رواية
ملحمة الأرض
أركاديا
هاني حيدر
KALEMAT

أركاديا

● أركاديا
● هاني حيدر
دار كلمات للنشر والتوزيع
الطبعة العاشرة - ٢٠١٧
دولة الكويت/ محافظة العاصمة
تلفون: ٩٩١١٩٩٣٤ (٠٠٩٦٥)
تويتر: @dar_kalemat
إنستغرام: dar_kalemat
البريد الإلكتروني: dar_kalemat@hotmail.com
للتواصل مع المؤلف:

Twitter: @hani_haidar
Instagram: @Hani.haidar707
Hani.h@windowslive.com

رسم الغلاف: وعد الطميحي @wa3d_m
خطوط: يزن الحسن @yazan_alhasan



مكتبة الكويت الوطنية
رقم الإيداع: 1436 /2801
الردمك: 978-603-01-7375-4

# أركاديا

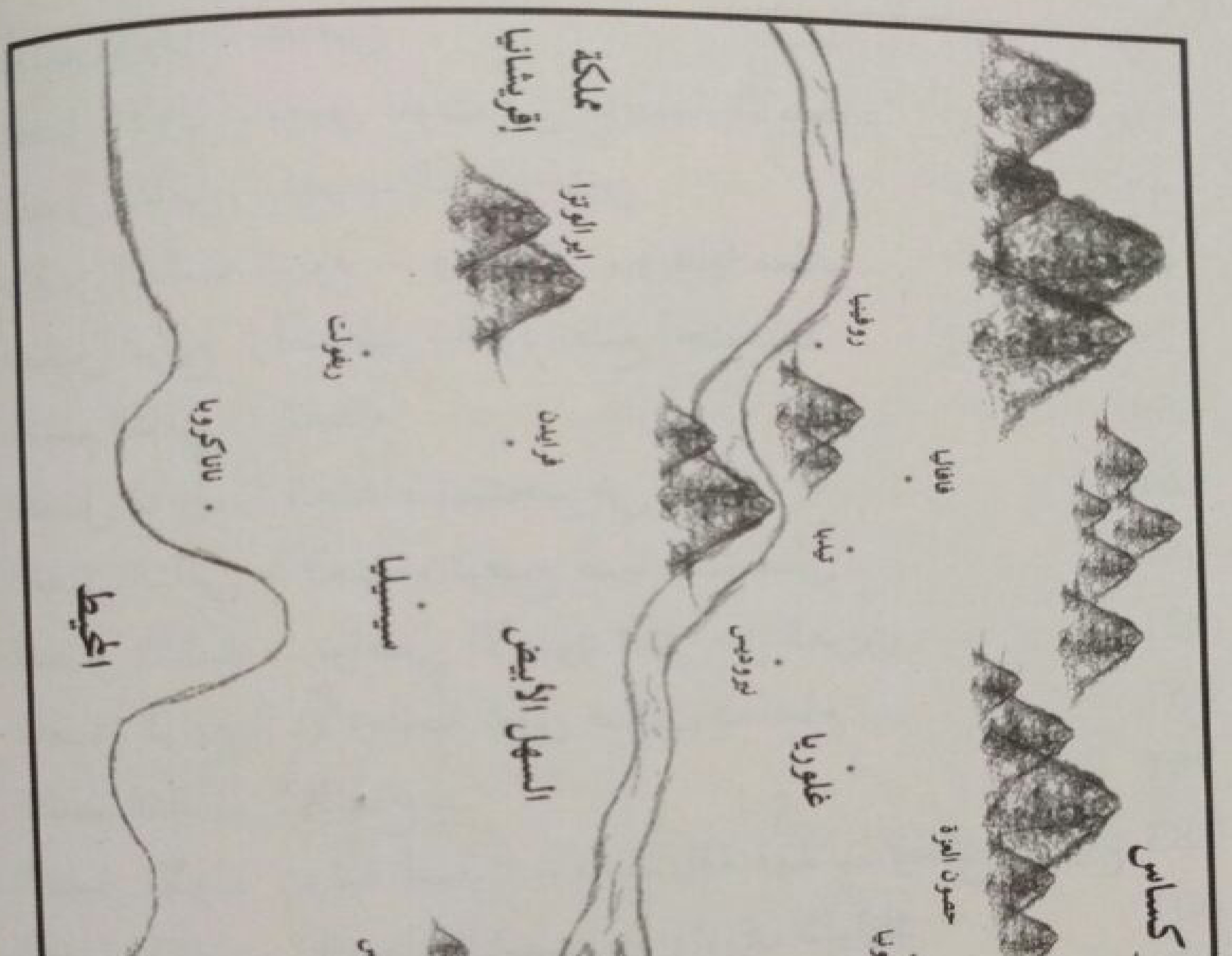
رواية

هاني حيدر

٢٠١٧

KALEMAT
للنشر و التوزيع

# المحتويات




إمبراطورية أركاديا

بسم الله الرحمن الرحيم

# القسم الأول

# المخاض

# الفصل الأول:
# نعيق الموت في عاصمة الأمجاد

اعتدت منذ أربعين سنة أن أغلي شاي الأعشاب ممزوجاً بالعسل والزنجبيل ، وأن آوي إلى ظل الشجرة العتيقة ، المطلة على الوادي الكبير ، حيث تستقر قريتنا الناعسة . .

كنت ـ ولا زلت ـ أحتسي فنجاني بتؤدة اكتسبتها عبر السنين وإن تغيرت المناظر واختلفت الأماكن ، إذ إن المرء كلما توغل في أدغال العمر ، تخفف من أشياء كثيرة ، أهمها على الإطلاق العجلة ومشتقاتها . .

ما أشبه عمر الإنسان بالشجر حين يحيق به الخريف فتتناثر أيامه صفراء بعد اخضرار السنين ، ثم تجده عارياً لا يستطيع ستر جذعه عن نظرات الشمس الحارقة . .

كنت أهوى مراقبة السماء تتزين بأشعة الصباح . . تطوي عن عاتقها رداء الليل السميك ، وتُظهر محاسنها ومفاتنها للأشجار والجبال والأكواخ والطيور المحلقة والعصافير الشادية والفراشات الراقصة ولسكان القرية الذين يستبشرون بإصباح سعيد ، وأمل جديد ، وحلم وليد يخرج من رحم القدر . .

كنت أراقب الجبال المحيطة بوادينا تستفيق خضرتها بعد ليلة طويلة خبأت فيها محاسنها . . وأتساءل : هل الحسن ينضب بكثرة الناظرين؟ كنت أرى الجبال تتطاول بهاماتها ترقب وهج الشمس

لتكون له أول المستقبلين، لتنال أوفر الحظ من طاقته الفيّاضة . .

كنت أرى النهر يجرف بقايا الليل، ووشوشات النجوم، وحكايا القمر، وأسرار العاشقين، وهمسات الشجر، وأحلام الزهور، وودائع العصافير، وتراتيل الجنادب، وابتهالات المصلين . . يتجرد من ذلك كله . . كنت أحسده على قدرته الهائلة على الاستيعاب دون ضجر أو ملل . . ثم إذا شاء نسي ذلك كله وعاد شفافاً كما خُلق . . ليت قلبي يتعلم من ماء الأنهار!!

تلك المناظر كانت في شبابي السحيق غاية تسليتي، ولحظات الأنس الوحيدة التي يتشربها قلبي المثخن بالأحزان . . لم أكن منعزلة كما يتهمني أهل القرية، بل كنت في بؤرة الأوجاع أكثر منهم جميعاً . . لقد رمت السماء قلبي بلعنة أبدية التصقت به التصاق الوشم بالجسد . . إنها حب أركاديا . .

هذه البلاد التي سقتني أمي عشقها مع الحليب ولم تفطمني منه أبداً . .

تلك البلاد التي نذر أبي حياته وجهده وفكره وقوته وطاقته وخبرته لنجاتها من الاندثار . . من أن تكون طيفاً مرّ بذهن التاريخ ثم ارتحل . . كان أبي يريد لأركاديا البقاء أبداً . . أن تكون نجمة مزروعة في قلب الأرض . . ترعاها السماء . . وتسقيها من رحيق العز ورضاب الأمجاد . .

البلاد التي كان زوجي يردد على الدوام أن دمه الجاري في عروقه إنما يتدفق من عروقها . . لذلك لم يبخل لحظة أن يسكبه عليها سماداً لتعود سامقة تلهو بمغازلة السحاب . .

بلادي التي كان الصباح يسكبها في كوبي فأرشفها على مهل كما فُقدت مني على حين احتلال . . فأشعر بها تسير في عروقي

تصبغ دمي بألوانها . . تتشربها مسامّي فتزهر وروداً على جسدي . . ينبض القلب حباً وعشقاً لها . . وحين أفرغ من الكوب . . ولا يبقى فيه إلا الثمالة . . أعلم كم هو قاسٍ أن تفقد وطناً . . وأن تعيش في أرض هي لك . . لكنك غريب عنها . . أن تمكث في بيت هو لك . . لكنك متشردٌ . . ضائعٌ . . هائمٌ . . لا دار لك تسكنها . . إلا الأحلام . . إلا الأوهام . . وأسمال الأحلام واهية . . لا تغطي جسداً . . ولا تستر عيباً . .

بلادي التي كان النسيم يحملها إلي بهبة تُبعثر خصلاتي . . فتترك تضاريسه عليها . . ترسمها على ذراعي بضوء الشمس . . فأتملى منها . . أروي ظمأ عيوني . . أحاول جاهدة ألا أنساها . . لكن القلوب خبيثة . . تلفظ اللحظات السعيدة . . وتجتر أكوام الأحزان . .

هل يمكن للشريد أن يبني وطناً في صدره؟ أن يُشيّد على أنقاض قلبه قصوراً وأسواراً يتنقل بين حجراتها ، ويلعب في أفنيتها ، ويركض كالطفل في أزقة أسواقها؟

أن يجري خلف الفراشات الهائمة ، ويقفز فوق الزهور النائمة ، أن يغطس في النهر ويعود لبيته ذات مساء فتوبخه أمه ، أن يتكوم مبتلاً أمام المدفئة يتدثر بدفء عائلته ، يراقب السماء ترعد وتبرق إيذاناً بهطول المطر ، وأن يسمع المزاريب تغني انتشاءً بجريانه إذا انهمر ؟

لكن للواقع تصاريف لا ترحم حتى أحلام الصغار . . في الحقيقة . . لطالما تخيلت الواقع كالغولة التي دأبت أمي على تخويفي بها أيام طفولتي . . التي تسكن في قلب الأحراش الموحشة ، في بيت قُدَّ من الحلوى ، وحين يقرع الأطفال بابه طلباً

للمزيد ، تنقض عليهم الغولة وتلتهمهم . . كذلك كان حال الواقع في سحق الأمل من نفوس الأركاديين وودعه مقابر الأحلام . .

تمر السنين سريعاً . . وتبلى الشهور حثيثاً . . وينفرط عقد الزمـان . . ولا يبـقى منه إلا رمـادٌ في طرف الذاكـرة . . ومن هذا الرماد تُخلق العنقاوات . . يمزقن سماء المستحيل . . ويهبن الأمل ظلاً مديداً يقيه عنفوان اليأس وقسوة القنوط . .

لطالما كان الإنسان على هذه الأرض محراث خير أو محراث شـر ، يزرع ويحـصـد ويبني ، ويقـتلع ويجـدب ويهـدم . . يعيش الإنسان على الأرض حالةً من التناقض ، فهو يقتل ليعيش ، ويهدم ليبني ، ويسافر ليقيم ، ويعادي لحل السلام . .

والسـلام قـد يئس من البـشـر . . لم يعـد لـه مكان في أرض أركاديا . . جمع أسماله البالية وغادر مع أسراب اليمام . . وظل هائماً على وجهه يطارده بنو الإنسان ولا يدركوه . . ومهما انتظرهم لا يلحقـوه . . لطالما كـانت ثمـة فـجـوة بينه وبينهم . . تسمى الغـريزة . . غريزة البقـاء . . والتي تشتمل على عدد من الصفات التـابعة . . كـالجشع ، والطمع ، والحقـد ، والحسـد . . وغيرها من الصفات التي يجد الإنسان لها من التبريرات فوق ما تحتمل . .

لقد شرفتني السماء بتأريخ حقبة زمنية من حقب الزمن غير العادية . . حقبة أجمعت السماء ونجومها ، والأرض وجبالها ، أنها لم تشهد حقبة أكثر مأساوية منها منذ الخليقة . ولا أطول منها على قصر مدتها . فالوقت لا يقاس ـ دائماً ـ بمرور الدقائق والساعات والأيام والشهور والسنوات ؛ بل يقاس أحياناً بما حوت طياته من أحداث وشخوص ومآس . . وإنجازات .

لقد اقتضت حكمـة السـمـاء أن لا تقسّم الأحـداث على

للمزيد ، تنقض عليهم الغولة وتلتهمهم . . كذلك كان حال الواقع في سحق الأمل من نفوس الأركاديين وودعه مقابر الأحلام . .

تمر السنين سريعاً . . وتبلى الشهور حثيثاً . . وينفرط عقد الزمان . . ولا يبقى منه إلا رمادٌ في طرف الذاكرة . . ومن هذا الرماد تُخلق العنقاوات . . يمزقن سماء المستحيل . . ويهبن الأمل ظلاً مديداً يقيه عنفوان اليأس وقسوة القنوط . .

لطالما كان الإنسان على هذه الأرض محراث خير أو محراث شر ، يزرع ويحصد ويبني ، ويقتلع ويجدب ويهدم . . يعيش الإنسان على الأرض حالةً من التناقض ، فهو يقتل ليعيش ، ويهدم ليبني ، ويسافر ليقيم ، ويعادي لحل السلام . .

والسلام قد يئس من البشر . . لم يعد له مكان في أرض أركاديا . . جمع أسماله البالية وغادر مع أسراب اليمام . . وظل هائماً على وجهه يطارده بنو الإنسان ولا يدركوه . . ومهما انتظرهم لا يلحقوه . . لطالما كانت ثمة فجوة بينه وبينهم . . تسمى الغريزة . . غريزة البقاء . . والتي تشتمل على عدد من الصفات التابعة . . كالجشع ، والطمع ، والحقد ، والحسد . . وغيرها من الصفات التي يجد الإنسان لها من التبريرات فوق ما تحتمل . .

لقد شرفتني السماء بتأريخ حقبة زمنية من حقب الزمن غير العادية . . حقبة أجمعت السماء ونجومها ، والأرض وجبالها ، أنها لم تشهد حقبة أكثر مأساوية منها منذ الخليقة . ولا أطول منها على قصر مدتها . فالوقت لا يقاس ـ دائماً ـ بمرور الدقائق والساعات والأيام والشهور والسنوات ؛ بل يقاس أحياناً بما حوت طياته من أحداث وشخوص ومآس . . وإنجازات .

لقد اقتضت حكمة السماء أن لا تقسّم الأحداث على

الأزمان بالتساوي . بل تُفضل قرون على قرون ، وسنوات على سنوات ، وأيام على أيام ، بل . . ولحظات على لحظات . .

شاءت حكمتها أن تتغنى حقبةٌ طويلاً ببطولات حقبة قبلها . . وأن تتسول حقبة المجد والشهرة بصلة تربطها بحقبة ذات مجد وأصالة . . وأن تجد حقبةٌ المجد كله في سبر أسرار حقبة قبلها . . وأن تسعى في المقابل حقبة جاهدة لاجتثاث الأسس القويمة التي غرستها حقبة قبلها عميقاً في التاريخ حتى تضع محلها أسسها التي ربما لا تلبث أن تضمر وتذوب دون أن يشعر بها أحد . . سنن سار عليها التاريخ سيراً حثيثاً لا يعرف الكلل . .

وأنا . . امرأة قد أكل الزمان عليها وشرب وأطال المكوث . . بل وتوقفت قافلته الحثيثة عند دارها طويلاً . . ولم تعاود المسير إلا وقد تخففت من أحمال كثيرة . . تركتها ندوباً في وجهي وجسدي . . وذاكرتي . . .

تقلبتُ طويلاً بين صفحات التاريخ ؛ كبجعة مهاجرة تجوب الشطآن في نهم شديد باحثةً عن مناخ يناسبها . كل كتاب من كتب التاريخ غُصتُ في صفحاته حتى أدركت مكامن لآلئه وصدفاته . وسبرتُ أغوار كهوفه ومغاراته . فأصبح التاريخ أمامي مشرعاً أستدعي منه لناظريّ ما أشتهي وأطلب . لقد سرتُ بقدميّ في ممالك قد خلت وبادت ، تنقلتُ بين القوافل في خطوط تجارة قد اندثرت . وتمشيتُ في قصور لم يبقَ من جدرانها الشاهقة إلا أعمدة متآكلة . وشهدتُ ملاحم غيرت دفة الزمن بانتصاراتها وهزائمها . وشهدتُ مولد أباطرة وملوك وقياصرة وقادة وأبطال ورعاع استوفوا ما عليهم ثم غدوا رفاتاً في قبور النسيان .

رغم هذا كله . . لم أشهد مثل الحقبة التي شهدتها دولتي

على أعتاب الخرف أو على حافة القبر ، لا بد أن تجد متنفساً تبث فيه بعض ما رسبته السنين في صدرها . . واصبروا عليّ فإن في روايتي شيئاً من العجب سيدهش الأذهان . .

***

أركاديا . . تلك الحقبة التي بدأت بعد مولدي بسنوات . . أعترف أن السنين الأولى قد قصها عليّ أبي وزوجي . . إلا أن الباقي شهدته كله بكل تفاصيله وأحزانه وأفراحه وزوابعه وزلازله . وخلّده قلمي يوماً بعد يوم دون ملل أو كلل . محصية بجهد جهيد كل خطأ وزلة وجريمة أُقترفت بحق البلاد حتى حاق البلاء بالأرض ، وعمّت الفوضى أرجاء أركاديا سنيناً متطاولة . وخلفتها كصحراء قاحلة جافة ترجو من السماء زخة مطر تجمع نسيجها المتشقق . .

وفي المقابل لم أغفل عن البطولات العظيمة التي استحقت عن جدارة واستحقاق أن تُنقش بحروف مضيئة على جدار التاريخ . .

رجال كثر مروا على هذه الحقبة . . منهم من خلدته صفحات التاريخ بطلاً من الأبطال . . ومنهم من صلبته خائناً من الخونة . . أو عفت عنه معتبرة إياه مرتزقاً جاء يتسول المجد والشهرة . . أو لفظته من صفحاتها إذ أنه لا يستحق فعلاً إلا اللفظ مع شيء من البصاق .

كذلك كان للنساء ذكر في هذه الحقبة ؛ فكما أن النساء أمهر من يجيد طبخ الولائم ؛ هن أيضاً سيدات طبخ المكائد والدسائس . وإذ إنني امرأة أعرف ما أصف جيداً جداً . . فثلثي الدمار الذي حاق بأركاديا كان من حياكة نساء أعرفهن كما أعرف أبنائي . . ولا ترموني بالتحامل فأنا امرأة أيضاً ، وقد كان لي حظ في هذه الصنعة . . صنعة المؤامرات . .

أطلت الثرثرة ولا ريب . وليس هذا لي بخلق . لكن امرأة دعكتها الأحداث مثلي ، ورحل عن العالم كل من هو في عمرها ، وركبت أطباق العمر طبقاً عن طبق حتى خلفتها الأزمان عجوزاً

أركاديا إمبراطورية عريقة . يضرب تاريخها عميقاً في جذور التاريخ . ذات حدود شاسعة وأطراف متطاولة تحوي في داخلها شتى أنواع التضاريس . ففي الشمال سلاسل جبلية شاهقة الارتفاع . ترتدي كل صباح رداءها الأخضر الخلاب المنسوج من مختلف أنواع الأشجار المنتجة لأشهى الثمار . وعلى السفوح تنمو زهور أريجية فواحة تبعث في الربيع عبقاً أخاذاً يعطر الأرجاء . تتخللها شلالات مائية كثيرة صانعة جداول عذبة كالعسل أو أشد عذوبة . وعند اقتراب الشتاء تخفي الجبال قممها بقلنسوة بيضاء تنسدل تدريجياً حتى تصبح عباءة عتيقة تسر الناظرين .

وفي الوسط تنحدر سهول خضراء هي كالجنان روعة وبهاء . ذات تربة خصبة غنية تجود بشتى أنواع الخضار ، فالقمح لا ينقطع إلا في الشتاء وقليل من الخريف ، وأكواز الذرة الذهبية تلمع في وجه الشمس كابتسامة جميلة . أما أنهارها فكثيرة دائمة النبض بسبب الحياة . أكبرها يقطع البلاد نصفين قبل أن يتفرع عند الطرفين إلى أنهار صغيرة كالعروق تسقي بقية الأعضاء .

هذه هي أركاديا . جادت عليها الطبيعة بالخيرات وفضلتها على كثير من البلدان تفضيلاً . أما أهلها فالطيبة ديدنهم ودستور حياتهم . يعمل جلّهم في الزراعة وحرث الأرض وتربية المواشي . وبعضهم قد احترف التجارة متنقلاً بين الأقاليم المختلفة ، ومنهم من امتهن قنص الحيوانات في الجبال أو صيد الأسماك نهراً وبحراً . أما حاكمها فكان إمبراطوراً قد جمع الشعب على حبه . من أسرة

عريقة تعاقبت على حكم البلاد أكثر من ستة قرون . عادل مقسط شديد البأس على أعدائه جم الكرم لأحبائه . ساس الدولة عشرين عاماً بحكمة واقتدار . لم تحفظ له زلة أو تنقل عنه خطيئة إلا ما شاع بين الملوك من السرف في اتخاذ الجواري والمحظيات ، والبذخ والترف في المباني والملبوسات . رغم كل هذه النعم لم ينجب الإمبراطور النعمان سريعاً . بل تأخر عقبه في الخروج طويلاً حتى أشفق أن يخرج الحكم من عائلته . فما كان منه إلا أن طلب الطب في شتى أنحاء الإمبراطورية . واضعاً جائزة كبرى لمن وجد له الحل . فاستبق إليه الأطباء حكماء ودجالين . كلهم يطمعون في الجائزة غير آبهين بذرية مليكهم اندثرت أو استمرت . وكلهم كان يأتي بغريب الطب وعجائب الوصفات . ولربما تجرع الملك على سبيل المثال دهن الخنفساء مع روث الخنازير مخلوطاً في دم قرد مقتول . والملك يصبر على ذلك كله في صبر وجلد مدهشين . رغبة منه في أن تقر عينه بطفل من صلبه يرث عنه المجد ويكمل مسيرة العز . وبعد سنوات عجاف كان له ما أراد على يد الحكيم توفيق . الذي كان كهلاً يعيش في جبال كوبي الشرقية مع عائلته الصغيرة . ذو لحية طويلة وخطها الشيب بأكملها . وجسد قد رثّ مع كرور الأزمان عليه ، تدعمه في تنقلاته عصاً خشبية يستند عليها العجوز كلما قام أو مشى . وبعد أن فكر وتدبر ، وقام بتحليل عينات من شعر وقلامة أظافر وبول الملك أخبره أن سبب الانقطاع سحر أصاب الملك وزوجته . وبعد طول علاج نصح الحكيم الملك بالمحاولة مرة أخرى بعد أن قام بتدابير وقائية له ولزوجته الشابة التي تزوجها بعد رحيل زوجته الأولى . فكان له ما أراد . . .

وفي ليلة ظلماء ملبدة بغيوم كثيفة . زأر فيها الرعد مزلزلاً أركان

السماء . وشق البرق الغيوم بنصله الحاد . تعالت صرخة الحياة .
«ولد ولي العهد» . هكذا ارتفعت الهتافات في القصر الإمبراطوري . وتساقطت دموع الفرح مزيلة يأساً يبساً كان قد نشب طويلاً في قلب الملك . الذي عانق قائد جيشه بتّار قائلاً بنبرات زانتها الفرحة :

- أخيراً يا بتار . . أخيراً رزقتني السماء ابناً من صلبي يخلفني بعد موتي .

قال القائد بتار :

- أطالت السماء عمر مولاي وحفظت خلفه ورزقته السعادة والعمر الوفير .

- فعلتها أختك يا زيدون دون كل النساء . وهبت لي السبب للتشبث بالحياة . أخبرني كيف أكافئها؟ أبني لها قصراً من ذهب؟ أم قصراً من ياقوت؟ أم من زبرجد؟ شُر علي يا رجل .

قال الوزير زيدون وهو ينحني تعظيماً لمولاه :

- مكافأة مولاتي أن تراك مبتهجاً على الدوام يا مولاي .

- لا . . لا بد من مكافئة مجزية . من الليلة النساء حرام علي ما حييت إلا هي .

ثم قال ملتفتاً إلى مستشاره عدنان وقد تذكر شيئاً :

- عدنان أرسل من يحضر الحكيم توفيق ليقوم بمهمته المعتادة .

قال عدنان في احترام :

- قد أنجزها يا مولاي وغادر من فوره . .

هتف النعمان :

أدركوه . . كيف ينصرف دون أن ينال مكافأته ؟

فانحنى عدنان بإجلال ثم راغ ليلبي أمر مولاه . فيما التفت

الملك إلى من بقي بمجلسه القائد بتار والوزير زيدون قائلاً في بشاشة :

– أريد أن تعم الاحتفالات أرجاء أركاديا . اغدقوا على الشعب جزيل المكافآت . أريد الجميع أن يفرحوا بمولد إمبراطورهم القادم .

وظل الإمبراطور منتشياً فرحاً كطفل جِيد عليه بلعبة حلم بها طويلاً . وسار متجهاً من إيوانه إلى جناح الإمبراطورة مع رجليه العتيدين إلا أن جندياً استوقف القائد بتار ، فاستأذن الأخير من مولاه واعداً إياه باللحاق . ولما خلص إلى الجندي سأله عن الخبر ، فقال الجندي وهو ينحني مقدماً رسالة مختومة إلى القائد :

– رسالة من قائد الحصون الشمالية يا سيدي القائد .

فضّ بتار الرسالة وقرأها ثم هتف :

– يا للسماء!! استدع لي أركان الجيش إلى قاعة الاجتماعات .

فانبرى الجندي لتنفيذ أمر قائده . الذي سار إلى القاعة والقلق يعصف بكيانه .

فيما كان الإمبراطور ينحني بقبلة على جبين الإمبراطورة نور ، ثم يجلس على كرسي بجوارها قائلاً :

– حمداً لله على سلامتك يا نور . وهبتنا السماء طفلاً في غاية الجمال .

ابتسمت الإمبراطورة ابتسامة شاحبة ، وهي تقول بصوت واهن :

– هنيئاً لمولاي بالموهوب ، جعلته السماء قرة عين لك وسعادة إلى حين .

كانت الإمبراطورة نور ذات صفات قلّ أن تجتمع في امرأة

واحدة ، فعندما تقع عيناك على عينيها تفيض من حدقتيها بحارٌ وشلالات ، وحديثها إذا ما تحدثت عزفُ مزامير وتغريد كروان ، الشمس تشرق من مفرقي شعرها الذهبي كلما انحسر عنهما النصيف وانحدر كشلال من خالص الذهب ، وحين تبتسم تتفتق شفتاها عن جمان منضود كالقمر إشعاعاً وبهاء . وإذا ما هي سارت . . سارت خلفها مئات النجوم والنيازك وحامت حولها الفراشات وزفتها العصافير بالتغريد . صغيرة السن لم تتجاوز الخامسة والعشرين ، ذات وجه أبيض مشرق كالصبح الوضاء . أو كوعاء فضي من حليب شابه عصير التوت . . .

كان الملك قد راقب أطوار نموها طوراً بعد طور ، وهي كالزهرة تزداد جمالاً كلما تفتحت وازدادت ألقاً وأريجاً . فما أن ماتت الإمبراطورة الأولى حتى سارع لخطبتها من أخيها زيدون ، الذي تردد بادئ الأمر دافعاً عن نفسه شبهة التزلف إلى الملك ، لكنه سرعان ما رضخ لرغبة مولاه وسعد بالمصاهرة الكريمة . وبعد سنوات عجاف ، وصبر مرير على علاجات الحكيم توفيق . ارتج القصر بخبر الحمل .

انحنى شقيقها الأكبر زيدون قائلاً :

– حمداً لله على سلامتك يا مولاتي .

زيدون الوزير . ينحدر من أسرة تخالفت على الوزارة في البلاط الإمبراطوري . كان كهلاً قد تجاوز الستين بنيّف . رغم عدم ظهور آثار العمر على لحيته الكثة وشعره الأسود الكثيف إلا في بعض الغضون التي اكتنفت تقاسيم وجهه الأبيض . ذو عقلية جبارة وحنكة سياسية لا يشق لها الغبار . كان صديقاً للملك منذ أيام الطفولة ، متنقلاً معه بين مراحل العمر مرحلة بعد مرحلة ، حتى

أنه لما تولى النعمان زمام الحكم لم يطمع إلى أكثر من منصبه الذي ورثه - بدوره - عن أبيه ، ولم يحاول يوماً أن يستغل مكانة أخته الصغرى من قلب الإمبراطور في زيادة ثروة أو تسيد مقاطعة . بل كان قنوعاً يجد الطمأنينة كل الطمأنينة في خدمة إمبراطوره وبلاده الغالية . على عكس أخيه الأصغر علّام . الذي ألح إلحاحاً طويلاً على أخته الملكة حتى تشفع له في حكم مقاطعة سيسليا عاصمة أكبر مقاطعات الجنوب . فكان له ما أراد .

في تلك الأثناء وصل القائد بتار إلى قاعة اجتماعات أركان الجيش . كان شاباً قد تجاوز الأربعين ببضع سنين . طويل القامة عريض المنكبين مفتول العضلات . أسمر البشرة قوي النظرات ، لحيته سوداء جميلة قصيرة وشاربه كث غليظ الشعر . تسلسل في سلم الجندية ابتداء من فارس في فرقة الخيالة . حتى أثبت نفسه في إحدى المعارك ضد جيش مملكة ركساس الشمالية . فعُين قائداً لفرق الخيالة ، ثم قامت ثورة في قرية ناناكروبا أقصى الجنوب الغربي طالب فيها حاكمها بالاستقلال عن الإمبراطورية . مزعزعاً أمن الجنوب بجيش قوامه خمسة آلاف جندي . فاستطاع بتار بفرقة لا تتجاوز الألف فارس أن يقمع الثورة وأن يُهدي الإمبراطور رأس قائدها على طبق ذهبي . فتعززت مكانته لدى الملك وعينه على الفور قائداً عاماً لجيوش الإمبراطورية . مرقياً القائد السابق عدنان - الذي شارف على الستين - ليصبح مستشار الإمبراطورية الأول .

حول مائدة مستديرة اجتمع أركان الجيش الأركادي المكون من بتار القائد العام للجيوش . والقائد فهد قائد فرق الخيالة وهو شقيق بتار . والقائد القعقاع قائد فرقة المشاة . والقائد الحجاج قائد سلاح

الرماة . والقائد هاشم الابن الأكبر للمستشار عدنان قائد الحرس الإمبراطوري .

بدأ القائد بتار الاجتماع بقوله وهو يلوح بالرسالة :

- جاءتني رسالة من القائد غضنفر - قائد الحصون الشمالية - مفادها أن الركساسيين قد حاصروا حصن العزّة ولن يصعب عليهم اقتحامه هو والحصنين المتبقيين وهم في سبيلهم إلى العاصمة .

تعالت الاستنكارات من قبل القادة . فقال فهد بصوته الهادر كالزئير :

- كيف يحصل هذا وجيشنا في الشمال يبلغ العشرين ألف فارس ؟! ناهيك عن التحصينات الهائلة التي أقمناها هناك .

كان بتار قد أمر ببناء ثلاثة حصون عظيمة تسد الوديان المؤدية بين الإمبراطورية ومملكة ركساس الشمالية ، وقد زودها بأبراج سهام ومجانيق وعدد كبير من الجنود بالإضافة إلى مؤونة تكفي لسنة كاملة ، ووضع عليها شقيقه الأصغر غضنفر القائد الشجاع .

سأل هاشم وقد كان أحدثهم سناً إذ لمّا يبلغ الثلاثين :

- كم هي تقديرات قواتهم يا سيدي القائد ؟

- تقول الرسالة أن قوات الركساسيين تقدر بخمسين ألف جندي . ويقودهم خيرة من قادة المملكة على رأسهم ولي عهدهم الأمير شاكان .

شهق القادة لذكر اسم القائد شاكان ذي السمعة العارمة في الأوساط الحربية بشدة بأسه وحدة ذكائه . قال القائد القعقاع :

- أقرب الحصون الثلاثة يبعد عن العاصمة ستة أميال لا أعتقد أنهم يستطيعون تخطيها قبل انبلاج الصباح ، مما يعني أننا قادرون على تجهيز جيش قوي كافٍ لصدهم .

سأل بتار موجهاً سؤاله إلى هاشم :

- كم يبلغ عدد الحرس الإمبراطوري الموجودين في المدينة أيها القائد .

- خمسة آلاف جندي يا سيدي .

داعب بتار ذقنه مغمغماً :

- أي حوالي عشرة آلاف إذا أضفنا إليها القوة المتمركزة في حصن السهل الأبيض جنوب العاصمة .

ثم أضاف :

- لا بد من طلب تعزيزات عاجلة مـ . . . . .

قطع حديثه فتْحُ باب قاعة الاجتماعات بقوة ليظهر على عتبته فارس ملطخ بالدماء . سرعان ما ابتدره بتار بقوله :

- القائد غضنفر ما الذي جاء بك إلى هنا ؟!

قال غضنفر بصوت حاد النبرات وإن ظهر الوهن فيه جلياً :

- خيانة يا سيدي القائد . لقد فني جيش الحدود الشمالية عن بكرة أبيه .

تعالت شهقة القادة فيما قال بتار :

-كيف حصل ذلك أيها القائد ؟

سحب غضنفر دفقة من الهواء ثم سرد قائلاً :

- لقد رصدت عيوننا حركة الجيش الركساسي بالقرب من حدودنا ، فأعددنا العدة في حصن العزة أول حصوننا في طريق المملكة المعادية . ولقد أعددنا الكمائن والفخاخ على امتداد الوادي بيننا وبينهم . لكنهم تجاوزوها كما لو كانوا يعلمون بأماكنها . وقتلوا كل رجالنا المتمركزين في الوادي . ثم وقفوا أمام الحصن بجيشهم الضخم على مسافة بعيدة تقيهم شر سهامنا ونبالنا وكأنهم يعلمون

مواقعها ومداها . حينئذ أرسلت لكم رسالتي طالباً التعزيزات . لكن وبعد برهة فُتح الباب الرئيسي فانقض علينا الأعداء وساموا جنودنا سوء العذاب ، وأطاحوا برأس كل من لقوه . وإذ نحن نقاوم الغزاة بضراوة فوجئنا بالباب الخلفي يفتح وأفواج من جيوش العدو تدخل منه فكانت مذبحة رهيبة .

سرت الدهشة بين القادة فيما تساءل بتار :

- ولكن من فتح لهم البوابة الرئيسية؟ وكيف استطاعوا الالتفات حول الجبل ليباغتوكم من البوابة الخلفية؟ هذا أمر ينهك أشد الرجال .

أجاب غضنفر :

- خائن ولا شك من فتح لهم الأبواب . أما عن الالتفات فلا أعتقد أنهم قد تجشموا عناءه . بل أظن أنهم قد توصلوا إلى الممر المختصر في وسط جبال راهوا .

هتف الحجاج :

- هذا مستحيل . . كما أن ممر راهوا سري للغاية . وقد أقمنا فيه أفخاخاً مميتة يستحيل معها أن تمر فرق من جيش ركساس .

- قد حصل ما حصل ولا أدري كيف .

ثم أضاف :

- هجموا علينا من خلفنا ومن بين أيدينا فعاثوا فينا فتكاً وتقتيلاً حتى أصبحنا تماماً بين المطرقة والسندان فسقط منا من سقط ، وفرّ منا من فر . واستطعت أنا أن أفرّ بمساعدة الخلص من جنودي . وبعد أهوال ومطاردة عنيفة بلغت القصر الإمبراطوري وحالتي كما ترون .

بلغ الغضب مبلغه لدى الرجال . في حين قال القائد بتار :

– لا بأس عليك أيها القائد . نحن في طور تجهيز جيشنا لصد هجومهم .

قال غضنفر وقد بدأت قوته بالخوران :

– عن أي صد تتحدث يا سيدي ؟! لقد مهد الخونة الطريق للركساسيين . إنهم هنا على مد البصر . انظر من النافذة .

تسابق القادة إلى النافذتين الوحيدتين في القاعة ، فسطع البرق ملقياً ظلاله على جيش عرمرم يسد الأفق طولاً وعرضاً . فقال القائد بتار في جزع :

–رباه . لقد انتهت العاصمة .

ثم وجه أوامره قائلاً :

– القائد فهد والقائد القعقاع احميا المقدمة بروحكما إن لزم واصمدا ما أمكن لكم الصمود . هاشم القصر الإمبراطوري مسؤوليتك فإن تأزمت الأمور عليك بتهريب الأسرة الحاكمة حسب خطة الطوارئ . غضنفر وحجاج اتجها جنوباً وأحضرا قوات الدعم من حصن السهل الأبيض على وجه السرعة .

وانطلق الكل لتنفيذ ما أنيط بهم . فيما انطلق بتار إلى الجناح الإمبراطوري يجر هماً ثقيلاً أثقل من الجبال . على عاتقه باتت مهمة حماية العاصمة وتأمين هروب الأسرة الحاكمة . ولما كان من المحال صد هذا الهجوم المباغت خصوصاً في وجود خائن لا يعلم من هو . صار من المحتم تهريب الأسرة الحاكمة خارج الحصن إلى الجنوب . إلى حصن السهل الأبيض ومنه إلى سيسيليا أكبر المدن الجنوبية وعاصمة أكبر مقاطعتها . وهناك سيرتبون ما تبعثر من أوراقهم ، ويجمعون شتات جيشهم حتى يغدو كقبضة واحدة تسترد العاصمة من يد الغزاة الغاصبين . وأقسم بتار في نفسه أن

يضع محل كل لبنة هدمها الغزاة جمجمة جندي من جنودهم. وأن يقتل بكل نفس أركادية عشرة من الركساسيين.

ورغم تزاحم الأفكار وتكالب الهموم. لم ينسَ أسرته التي تعيش في قصره وسط العاصمة. زوجته أشواق وابنه حمزة ذو الثلاثة عشر ربيعاً وابنته وردة التي لم تتجاوز السنوات العشرة. كيف هم الآن؟ هل سيتدبرون أمرهم في حال اقتحام الحصن؟ هو الآن قد نذر روحه لحماية الأسرة المالكة. سيبني لهم سلّم النجاة ولو بعظامه. وعلى أسرته تدبر أمرها. فنجاة أسرته لا يعدل نجاة الأسرة الحاكمة، فالحاكم هو الرمز الذي سيجتمع الشعب على رايته في سبيل استرداد ما فقد، والعودة إلى علياء العز.

وصل إليه صوت انفجار قوي. فنظر من كوّة قريبة ليجد البوابة الرئيسية وقد نسفت وجنود الأعداء يقتحمونها كسيل جراف. ملتحمين مع الجنود القلائل بقيادة القائد فهد شقيقه والقائد القعقاع. فانطلق بتار راكضاً بأقصى سرعته إلى جناح الإمبراطورة.

فيما كان جنود القائد فهد يحاولون في استماتة شديدة صد أمواج الغزاة العاتية لكنهم راحوا يتساقطون كبريعمات في وجه كاسحة الحصاد. وكان القائد فهد في طليعتهم يقاتل على ظهر جواده حاملاً سيفه الطويل مطوحاً به يمنة ويسرة، حاصداً مع كل ضربة كل ما كان في طريقه. وإلى جواره كان القعقاع يساعده في بسالة منقطعة النظير.

وانطلقت من طرف الغزاة أسهمٌ نارية أضرمت النيران في أكواخ القرية المسقوفة غالباً من القش وسعف النخيل. وراحت النيران تأكل كل ما في طريقها غير موفرة بشراً أو جماداً أو أخضراً أو يابساً. وهدمت قذائف المجانيق النارية كل ما واجهته من أسطح

وبيوت وأواني ورؤوس ، فكانت القذائف كالشهب رجوماً على عاصمة الأمجاد . فارتفعت عقائر البائسين من الشعب الأركادي بالصرخات طلباً للغوث والنجدة . وساد الهرج والمرج أرجاء المدينة التي كانت يوماً ما صرحاً للعزة ومهداً للبطولة . وفرّقت النيران بين آباء وبنيهم ، فرأوا أطفالهم يحترقون أمامهم وهم لا يملكون لهم نجدة ولا غوثاً . وأخذت الرقاب تتطاير بفعل نصال فرسان الغزاة غير مفرقين بين صغير ولا كبير ولا امرأة ولا شيخ ولا طفل .

وسطع البرق على البوابة الرئيسية . . فألقى ظلالاً طويلة لفارس عظيم الخلقة يمتطي صهوة جواد أدهم كبير . كان فارساً طويل القامة عظيم الجثة بعيدٌ ما بين منكبيه ، تلوح في وجهه الحليق الوسيم أمارات القوة وشدة البأس . وعلى رأسه استقرت خوذة ذهبية على شكل أسد يكشر عن أنيابه . أما درعه فذو تهاويل ونقوش ذهبية . يلف حول وسطه حزاماً له نفس رأس الأسد الذهبي . وكان يحمل بيده اليمنى حربة طويلة مصقولة من الفولاذ ، ينتهي طرفها برأس أسد عظيم الجمّة مصنوع من ذهب . يخرج من بين فكيه الكبيرين نصل طويل عريض مقوس الذؤابة . ما أن رآه الجنود الأركاديون حتى دبّ الهلع في قلوبهم وردد بعضهم :

- إنه شاكان!!

فنشب اسمه كالحريق في نشارة الخشب . ففرّ من فرّ ، وثبت من ثبت على تخوف منه . فابتسم الأمير شاكان وليد عهد مملكة ركساس وقائد جيوشها قائلاً بصوته الأجش :

- إلى أين تفرون أيها الجبناء ؟

ثم هتف بأعلى صوته :

- يا جنود ركساس الأشاوس . اقتلوا كل من لاقيتم في سبيلكم . لا توفرّوا طفلاً ولا شيخاً ولا امرأة إلا ما طاب لكم من جوارٍ وعبيد . أريد أن تصل الدماء إلى الركب .

وانطلق على رأس جنوده يكيل بحربته العملاقة أرواح الأركاديين فتطايرت الرؤوس منفصلة عن الأجساد . وتكومت الجثث أرتالاً . وتسابقت الأرواح صعوداً إلى السماء ، وجرت الدماء جريان الأنهار عقب مطر شديد . فراح السكان يجرون إلى كل حدب وصوب غير آمّين وجهة يقصدونها ، وقد تهشم في قلوبهم كل أمل بالنجاة بعد أن رأوا حماتهم يتساقطون في وجه الغزاة .

ومن بين اللهب . . تقدم فهد على صهوة جواده من شاكان ، ولوح بسيفه قائلاً :

- شاكان أيها الوغد . . أنا فهد سأكون خصماً لك .

ابتسم شاكان باستهزاء وقال :

- تعال وأرني ما لديك .

وتشابك الفارسان في صراع عنيف . اختلطت فيه صلصلة النصلين مع هزيم الرعد . وبذل فهد جهده في محاولة اختراق دفاعات شاكان الذي كان يصد الضربات القوية بسهولة ويسر . وابتسامته الهازئة لا تفارق شفتيه ، رغم أن فهد لم يكن فارساً ينقصه البأس أو قوة الشكيمة بل زاده الغضب قوة على قوته ، غيرته على شعبه ورغبته الملحة في الدفاع عنه زادت من حدة ضرباته . حرصه على مستقبل ابنته الصغيرة ذات الأعوام العشرة جعله يقاتل كالأسد الهصور . وهو يعلم أن رغبات هذا الوحش الذي أمامه هي سر معاناة شعب دولته الحبيبة . طموحه التوسعي جلب على هؤلاء المساكين كل نكبة ومصيبة . ولقد كان يعلم ولا شك

أنهم سيغدون خدماً في قصور ركساس ، سبايا في مخادعهم . فراح يزيد من قوة ضرباته ، مادّاً السيف بلهيب نابع من اشتعال الدم في عروقه . لكن شاكان كان فارساً من طراز خاص . لا يتكرر في الجيل إلا مرة واحدة . يحرك حربته الطويلة ثقيلة الوزن في خفة وسهولة وكأنه يحرك خنصره أو بنصره . كما أن ركساس كانت دولة تعيش حروباً في استمرار على عكس أركاديا التي تركت ساحات الوغى منذ ردح من الزمن غير قصير ، فلقد رُبِّي شاكان في ساحات القتال . منذ نعومة أظافره لم يعرف لعباً إلا السيف والحربة والرمح والقوس والنشاب . لا صديق له إلا فرسه . لا يثق في أحد إلا في درعه .

واحتدمت المعركة وازدادت ضراوة . فهتف شاكان بصوت بدا كصوت تنين خرج من الجحيم :

- بدأ الجد ومضى الهِزال .

وانقض بضربات شديدة ثقيلة أنّ من وطأتها ذراعا فهد الذي أدرك أن ما سبق لم يكن - فعلاً - إلا ضرباً من هِزال . وأحس بنهايته في اقتراب . فراح يقاوم في بسالة ، مهتماً بمصير ابنته غادة ثمرة حياته ومهجة فؤاده ، فلقد فارقته أمها وهي ما تزال طفلة في الرابعة . فملأ عليها حياتها وملأت عليه حياته .كم يتوق الآن إلى ضمها واستنشاق عبير شعرها الأخاذ .

وفي غمرة أفكاره سقط سيفه إثر ضربة مباغتة من شاكان . فازدادت ابتسامة الأخير اتساعاً وسطع فيها وميض الزهو ، وهو يرفع حربته العملاقة قبل أن يهوي بها مطلقاً صرخة قتالية كانفجار الرعد ، فأغلق فهد عينيه انتظاراً للموت . لكن الضربة لم تصل إلى رقبته . أوقفتها حربة القعقاع قبل أن تفصل رأسه عن جسده .

سحب شاكان حربته مزمجراً بغضب :

– من أنت لتجرأ على صد ضربتي ؟! سأذيقك طعم الندم المرير .

وتبادلا ضربتين قبل أن يقول القعقاع مخاطباً فهد :

– اذهب أيها القائد . ساعد الأهالي بالفرار من البوابة الخلفية من الحصن . أنا سأتولى أمر هذا الوغد

قال فهد وهو يستعيد سيفه :

– لستَ كفؤاً له يا قعقاع . سيطيح بك بعض ضربات وجيزة .

– لا بأس . المهم أن ينجوا من كُتبت له النجاة من الأهالي .

– لا . سنطيح بهذا الوغد معاً . فأمثاله من الأوغاد المغترين بقوتهم وكثرة جيوشهم ووفرة عتادهم لا سبيل لمواجهتهم إلا بالتكاتف .

– وهو كذلك أيها القائد . . سنقضي عليه بتكاتفنا .

ضحك شاكان وهو يقول :

– جميل جداً . . تريدان أن تقاتلاني معاً؟ لا توجد قوة تحت السماء قادرة على هزيمتي . أنا شاكان قائد جيوش ركساس العتيدة سأقطعكما إرباً بحربتي (الأسد الذهبي) .

وطوح بحربته مهاجماً فهد الذي كان على يمينه ، فصدها فهد بصعوبة بالغة ، وانتهز القعقاع الفرصة وأطلق رمحه يشق الهواء إلى رقبة شاكان ، الذي صد الرمح بعقب حربته ، قبل أن يعود ويصوبها عليهما الاثنين معاً . . .

واحتدم الصراع الرهيب بين ثلاثتهم ، فاستغل الجنود الركساسيون الفرصة وتدفقوا إلى داخل الحصن وعاثوا فيه فساداً ، فالذين لم يطلهم لهيب النيران طالتهم سيوف ورماح الجنود . وعمّ القتل وانتشر الدمار ،

وسبحت الجثث في نهر من الدماء ، وتعالت الصرخات ، وتهاطلت الدموع ، وتبخر الأمل من القلوب وترسب اليأس . فدار في خلد فهد أن هذا القتال لا جدوى منه ، وأن عليه أن يتراجع مع صديقه لإنقاذ ابنته والذود بحياته حتى يعاودوا الكرّ مجدداً وقد رتبوا صفوفهم التي خلخلتها الضربة المفاجئة . فانتظر اللحظة المناسبة ، ثم وجه ضربة قوية إلى شاكان الذي تراجع ليتفاداها ، فجذب فهد عنان فرسه وانطلق إلى داخل المدينة هاتفاً بصديقه :

– هذه فرصتنا يا قعقاع . . لنتراجع . .

لحقه القعقاع لكنه تأخر في استيعاب الخطة . فلحق به شاكان ، وأطلق حربته إلى ظهره فاخترقته وبرزت من صدره ، قبل أن يسقط على الأرض . فتوقف فهد هاتفاً باسم صديقه بجزع ، لكن القعقاع قال وقد بقي به رمق من حياة :

– فريال أيها القائد . . ارع ابنتي فريال من أجلي أرجوك .

فهتف فهد والدموع تتجمع في عينيه :

– هي من اللحظة بمنزلة ابنتي غادة يا أخي .

فعلت شفتا القعقاع ابتسامة طمأنينة كانت آخر عهده بالحياة . . وشد فهد لجام جواده منطلقاً به إلى عمق المدينة المنكوبة ، التي لم يبقَ فيها منزل إلا وطالته نفحات اللهب أو تناثر ركاماً تحت طلقات منجنيق . كان يقصد منزل القعقاع ومن عينيه تكاد أن تفر دمعة رثاءٍ على ذاك البطل الهمام ، لكنه غمغم جازاً على أسنانه :

– لتبارك السماء روحك أيها البطل . عهد لك علي ما دامت السماء والأرض أن أحفظ ابنتك كما أحفظ روحي التي بين جنبيّ .

وفي القصر كان بتار يركض بأقصى سرعته متوجهاً إلى الجناح الإمبراطوري . وحين اقترب من دخوله فوجئ بفارس ينقض عليه بسيفه ، فتراجع بتار بخفة متفادياً الضربة ، وهو يستل سيفه من غمده لينقض على مهاجمه . لكنه سرعان ما تبين الشعار على لامته . فقال :

- توقف أيها الجندي أنا القائد بتار .

توقف الجندي وقد عرف قائده . وضع سيفه على الأرض منحنياً تعظيماً للقائد الأعلى لجيوش أركاديا وهو يقول :

- أعتذر على تسرعي يا سيدي . فلقد ظننتكم خطأً عدواً يريد بالإمبراطور شراً .

- قم أيها الجندي وعرف بنفسك وأخبرني لم أنت هنا ولست مع كتيبتك ؟

وقف الجندي وقال في اعتداد :

الفارس نصار بن زيدون من الحرس الإمبراطوري يا سيدي ، جئت لغرض حماية مولاي الإمبراطور وعائلته الكريمة . أعتذر إن كنت خالفت أوامركم .

- هل تعلم أن عقوبة مخالفة الأوامر هي الإعدام أيها الجندي؟

- أعلم يا مولاي . لكن الحفاظ على حياة مولاي الإمبراطور وعائلته الكريمة أشد قيمة من حياة جندي عادي مثلي .

تأمل بتار ملامح نصار بن الوزير زيدون في رضا وحبور . كان طويل القامة شديد البنيان . قد تجاوز العشرين بقليل . يشبه عمته الإمبراطورة في لون الشعر وزرقة العينين . تزين وجهه الوسيم لحية خفيفة الشعر وشارب أنيق .

ربت بتار على كتف نصار قائلاً :

– هيا بنا إلى الجناح الإمبراطوري لننقذ جلالة الإمبراطور .

دخلا الحجرة ليجدا الإمبراطور واقفاً إزاء سرير الإمبراطورة نور التي كانت مستلقية وقد زاد الوجل وجهها الشاحب اصفراراً ووجوماً ، والوزير زيدون والمستشار عدنان يقفان بجوار الباب وهو كل منهما يحمل سيفاً يصوبه تجاه الباب . ما أن رأى الإمبراطور بتار حتى تنفس الصعداء وهو يقول :

– أين كنت يا بتار؟ لقد تأخرت بالقدوم .

انحنى بتار وهو يقول بصوت أسيف :

– أعتذر يا مولاي . جنديكم البائس فشل في حماية عاصمة حكمكم .

ثم أردف بحزم :

– لكنني أقسم بإله السماء أنني لن أفشل في حمايتكم جميعاً .

ابتسم الإمبراطور في رضا وإن لم يزايله القلق ولم يتلاشَ الخوف . ودخل حينها الحجرة القائد هاشم بن عدنان وهو يقول :

– مولاي . جئت على رأس مجموعة جنود من الحرس الإمبراطوري لننقلك مع العائلة الإمبراطورية إلى خارج المدينة .

فيما وجه بتار خطابه إلى نصار قائلاً :

– اذهب يا نصار إلى حجرة مولاتي الأميرة ثريا استعداداً لننتقل إلى حصن السهل الأبيض عبر النهر الكبير .

وقد كانت ثريا هي أخت الإمبراطور ، وأضاف عدنان :

– خذ معك بعض الجنود .

فانطلق الجندي لتنفيذ الأوامر . فيما قالت الملكة بصوت واهن خنقت الدموع نبراته :

- خذ يا مولاي ابننا واتركني هنا ، فأنا لن أقوى على الحركة .
تلقف الملك كفها الصغير بين يديه قائلاً :
- لن أخطو خطوة واحدة خارج القصر دونك يا عزيزتي . لئن أمزق تحت نصال السيوف أحب إلي من أحيا بدونك .
وندّ عن شفتي الصغير صوت رقيق كهديل الحمام ، فذرفت الملكة دموعاً أسفاً على هذا الموقف البئيس الذي جثم كالموت على جسد رجل في أوج صحته وعنفوان شبابه . فلقد كانت ليلتهم هي السُعدى من بين الليالي . فيها قدم ولي العهد إلى الحياة بعد انتظار دام طويلاً جداً . فيها قاست آلام الولادة الرهيبة لإسعاد هذا الملك الطيب الذي ما رأت منه إلا كل سعادة وهناء . في هذه الليلة اشتعلت بيوت عاصمة الشموخ والإباء . وتراكمت جماجم رجالها الأشداء جبالاً وكثباناً . وهم على شفير الموت . . أو هو على شفيرهم . وهؤلاء الواقفون أمامهم هم الخلّص من رجالات الملك .
فما كان منها إلا وأن التفت إلى بتار قائلة بصوتها الوهين :
- أيها القائد .
انحنى أمامها بتار قائلاً :
أمر مولاتي .
- أرجوك أيها القائد الشجاع أن تحمي سمو ولي العهد كما تحمي حياتك أو أشد .
قال بتار بصوت هدجت التأثر نبراته :
- هو في مقلتيّ منذ اللحظة يا مولاتي .
- الآن أستطيع أن أرتاح .
أومأ لها برأسه ثم اندمج مع الرجال الثلاثة - عدنان وزيدون وهاشم - في نقاش حول خطة نقل الملك والعائلة الحاكمة ، وعن

عدد القوة التابعة للحرس الإمبراطوري . وفي خِضم ذلك ، دخل نصار الحجرة وهو يلهث ، تعلو ملامح وجهه علائم القلق . فقال :

– الركساسيون في باحة القصر الإمبراطوري .

ارتفعت الشهقات من أفواه الجميع . واندفع بتار وهاشم إلى النافذة ليشاهدا رتلاً من الجنود الركساسيين يحطيون القصر إحاطة الأنشوطة للعنق ، فغمغم الملك وقد بدأ بنيانه بالانقضاض :

– لقد قضي علينا .

فقال عدنان :

– لا يا مولاي . لدي خطة جيدة .

ثم استرسل في شرح خطته :

– هناك سرداب سري ـ كما تعلمون ـ أسفل القصر يقود مباشرة إلى خارج الحصن من الناحية الجنوبية . لكننا نحتاج إلى صرف أنظار الجيش الركساسي عن المخرج السري إلى مخرج وهمي وهو المخرج الموجود خلال المطبخ . لذا أقترح أن نتبادل يا مولاي أنا وأنت الثياب ، ويرتدي بعض الجنود ثياباً نسائية ونذهب إلى هناك برفقة حراسة شديدة حتى يتصور الأعداء أن هذا هو موكب الملك . في الوقت الذي يرافقك فيه بتار وهاشم أنت والعائلة الكريمة إلى خارج المدينة عبر السرداب السري .

لمعت عينا الملك ببريق الأمل لكنه قال في كبرياء :

– تضحية كبيرة يا عدنان من الصعب أن أقبلها .

فقال عدنان بإخلاص :

– روحي لروحكم السامية فداء . أرجوكم أن تقبلوا يا مولاي .

وألح الحاضرون على الملك حتى أبدى الموافقة . لكن زيدون قال فجأة :

- أنا من سيرتدي ثياب الملك .

التفتت إليه رؤوس الحاضرين دهشة وتساؤلاً ، فاصطدمت نظراتهم بوجه رجل يفيض عزماً وإصراراً . إلا أن ذلك لم يمنع عدنان من أن يقول :

- ليس هناك متسع لإظهار البطولات يا زيدون ؛ فالوقت يداهمنا .

قال زيدون في إصرار :

- الأمر كما قلت أيها المستشار . ليس هناك متسع لإظهار البطولات .

ثم أردف قائلاً :

- أنا أقرب منك إلى سمو الإمبراطور حجماً ، فجسدك ذو قامة ممشوقة وعضلات مفتولة ستفضح أمرك ولا شك . كما أن الملك بحاجة لمستشار متمرس شجاع لا تعوزه الحكمة والقوة مثلك يساعده في عملية تحرير البلاد يوماً ما .

وأضاف ومسحة حزن تعلو كلماته :

- أما أنا . . فوزير عادي ، كثرٌ هم من يستطيعون شغر مكاني .

هتفت الإمبراطورة باسم أخيها الأكبر وهي تنتحب ، وداری الملك دمعة انسلت من عينه وهو يقول :

- وا صديقاه . .

واعترض نصار - ابن الوزير البكر - قائلاً :

- كلا يا أبي . . لن أقبل بتضحيتك هذه .

أثار هذا الفيض من الشجاعة والإخلاص في نفس الإمبراطور أقصى مشاعر المحبة والرضا على رجاله الخلصاء . وتمنى - في سريرة

نفسه ـ ألا يخسر رجلاً منهم ولو خسر هو حياته ، حتى يكونون خير عون لنجله في مستقبله القريب .

حتى بتار أثاره موقف زيدون الشجاع ، فراح يزن الأمور في عقله بسرعة عالية ، منحياً فكرة التضحية التي جاء بها المستشار نهائياً . ثم قال وقد نبتت في رأسه فكرة جريئة :

– لن تكون هناك أية تضحيات . ولن يتنكر أحد بزي الإمبراطور ، وسينجو الجميع بإذن الله .

تساءل الإمبراطور قائلاً وقد عاوده الأمل من جديد :

– كيف يكون ذلك ؟

أجاب بتار :

– ستتوجهون جميعاً بقيادة هاشم وحاميته إلى الممر السري ومنه إلى خارج الحصن ، حيث أتوقع أن تلاقيكم على ضفاف النهر الكبير قوات الدعم القادمة من حصن السهل الأبيض التي انطلق لجلبها القائد حجاج والقائد غضنفر ، ومن هناك ستركبون السفن عبر النهر إلى مدينة سيسليا .

سأله عدنان :

– وماذا عن المفرزة التي تحاصر للقصر ؟

قال بتار :

– أنا من سيتصدى لها . ولدي خطة مناسبة .

تعلقت به العيون دهشة وتساؤلاً ، فأردف :

– أحتاج فقط إلى أربعة من الرماة .

وشت نظراتهم بعدم الاقتناع ، وقال عدنان :

– لكن يا بتار هذه المفرزة يتجاوز عدد أفرادها المائة ولن تستطيع الصمود أمامهم طويلاً .

ابتسم بتار ابتسامة حاول أن يبث بها الطمأنينة في قلوبهم وهو يقول :

- صدقوني أنا لا أبحث عن بطولة زائفة على حساب الآخرين . أنا على ثقة بالغة بقدراتي . ولن تعوزني الحيلة . وسنلتقي مجدداً في سيسليا صباح الغد .

والتقت عيناه بعيني الملكة الذابلتين وهو يقول :

- فلقد وعدت مولاتي أني أحمي مولاي ولي العهد بروحي .

وعلى عتبات القصر اصطفت جحافل مفرزة من الجيش الركساسي يبلغ تعدادها مائة وخمسين جندي بين فارس وراجل ، وعلى رأسهم قائد عظيم من قادات مملكتهم العتيدة يدعى زاندن ، وقف مختالاً على صهوة جواده المدرع ، يسير روحة وذهاباً مستعرضاً فرسان وحدته العاتية ، التي تعد من أقوى وحدات جيش العدو . ولقد حمّلها القائد شاكان مهمة إحضار رأس الإمبراطور من مخدعه في القصر الإمبراطوري .

قال زاندن خاطباً في جنوده :

- أيها الرجال الأشداء . . لقد تكللت خططنا بالنجاح . بسواعدكم المفتولة حققنا النصر على أعدائنا الألداء . هؤلاء الرعاع الذين حاربناهم سنين متطاولة دون أن تكون لنا الدائرة عليهم . فلقد كانت الحرب بيننا سجال على الدوام . اليوم آن لنا أن نستأصلهم من شأفتهم . آن لنا أن نلغي من الخرائط اسم مملكتهم . لن تعود رايتهم للخفقان بعد اليوم . وحدها راية مملكة ركساس ستظل خفاقة في علياء العز والمجد .

ورفع سيفه عالياً وهو يهتف :

- عاشت مملكة ركساس . . سحقاً لأركاديا .

فردد الجنود الهتاف بصوت واحد بدا كزمجرة الرعد . ثم عاد زاندن ليقول :

– أوامر مولاي القائد شاكان أن نحضر له رأس الإمبراطور على طبق ذهبي . اقتحموا القصر الآن . لا تبقوا فيه جسداً ينبض بالحياة . أريده أن يصبح ضريحاً فخماً لعائلة الإمبراطور . هيا اهجموا .

فأرخى الفرسان أعنة خيولهم لاكزين بطونها المشدودة ، وانطلقت صوب القصر ولها صهيل وطقطقة ، ومن خلفهم الرَجَلة حاملين رماحهم وحرابهم وسيوفهم النهمة للكيل من لحوم أهل القصر ، وكأنها لم تشبع من لحوم ودماء الأركاديين جنوداً ومدنيين . فلقد قتل الركاسيون كل من وقف في طريقهم وكل من نكص فاراً على عقبيه من طريقهم . لم يفرقوا بين طفل أو امرأة أو شيخ . الكل كانوا في نظرهم سواسية . فكانت النتيجة أن نضحت الأرض بالدماء المهراقة ، وأن ألقى البعض أنفسهم في النار فراراً من مصير أشد قد يلاقوه تحت أسنة رماح الركساسيين . وقوبلت بالتجاهل صرخات الغوث والنجدة والاستسلام متبخرة كسراب كان كأن لم يكن . فلقد كان الركساسيون وحوشاً جائعة لا يزيدها منظر الدماء ورائحته إلا رغبة في إراقة المزيد منه . ولقد علتهم النشوة وهم يتقدمون من القصر الإمبراطوري ، إذ إن دماء قاطنيه ذات نكهة مختلفة . نكهة ملكية . رأس الواحد منهم يساوي ثقله ذهباً . لذا حث المتقدمون خيولهم على زيادة سرعتها توثباً لعبور القنطرة الصغيرة التي تعلو المجرى المائي أمام مدخل القصر الرئيسي . لكن وابلاً من السهام انقض عليهم من شرفات القصر حصد الطليعة من جنودهم فتساقطوا في المجرى جثثاً هامدة . فتراجع الجنود خوفاً من الموت ، لكن منظراً آخر قد هالهم وبث الرعب في أوصالهم .

فلقد فتحت البوابة الرئيسية للقصر الإمبراطوري ليخرج منها القائد بتار على صهوة جواده يحمل في يمينه حربةً طويلة مشرشرة النصل . فانطلق نحوهم هاتفاً بصوت مزق نياط قلوبهم :

- إلى الجحيم يا ركساس . . عاشت أركاديا .

وطاح فيهم بحربته فتكاً وتقتيلاً . مطوحاً بها يمنة ويسرةً حاصداً كل ما قابل طريقها من أرواح وأجساد ، في مشهد بطولي عز الزمان أن يجود بمثله ، فتراكمت جثث الجنود الركساسيين في المجرى المائي ، في حين أحجم البقية على أن يتقدموا من هذا البطل المغوار . فوقف بتار على القنطرة ملوحاً بالحربة وهو يهتف :

- أنا القائد البتار قائد الجيوش الأركادية . من يجرؤ على مبارزتي ؟

أثار اسم بتار ومنصبه الرهبة في قلوب الركساسيين ، فكما أن للقائد شاكان شهرة عارمة في أركاديا فلبتار نفس الشهرة في ركساس . جولاته وصولاته في حروب الشمال السابقة لم تتلاشَ من الذاكرة بعد . علقم الهزيمة الذي جرّعهم إياه بحسامه مازال ناشباً في حلوقهم . علاوة على أن موقفه هذا يدل دلالة واضحة على شدة بسالته ، أو شدة وقاحته . لكن أثره كان واضحاً عليهم . فلم يتجرأ أحد منهم للتقدم لمنازلته . فسواء كان الموقف بسالة أو وقاحة فالرجل شديد البأس صعب المراس ، ذو ذراعين كالرحى تطحن كلما سقط بين شقيها . فاقترب فارس من زاندن قائلاً :

- أنا له يا سيدي .

فأشار له زاندن بالتقدم قائلاً :

- ائتني برأسه يا شرويد .

فانطلق شرويد شاهراً رمحه الحاد مصوباً إياه نحو صدر بتار ،

الذي لكز جواده ممسكاً اللجام بيسراه وحربته مشرشرة النصل بيده اليمنى ، وما أن اقترب من خصمه حتى أفلت اللجام وأمسك الحربة بكلتا يديه ليضرب الرمح المصوب نحوه ثم يرسل ضربة قوية شقت صدر شرويد من الكتف إلى الكتف . فجحظت عينا الفارس الركساسي قبل أن يسقط من أعلى حصانه جثة هامدة . فيما عاد بتار ليقف على القنطرة هاتفاً بصوته الجهوري :

– من يستعجل ملاقاة الموت فليتقدم لمنازلتي .

فكان الهدوء المشوب بالرهبة هو مجيبه . .

وفي ردهات القصر الإمبراطوري سار الموكب السامي تجاه السرداب السري يسير في مقدمتهم القائد هاشم ويحمي مؤخرتهم نصار . كانت الحامية تتكون من خمسة عشر جندياً فقط إذا عددنا فيهم المستشار عدنان . على عاتقهم حماية الأسرة المالكة المكونة من الملك والملكة وولي العهد الصغير والأميرة ثريا والوزير زيدون ووصيفتان . ولقد بدا الإعياء جلياً على الملكة نور الوالدة حديثاً . فقدانها للدم أثناء الولادة ، والهلع الشديد الذي أصابها أنهكا أطرافها ، مما جعلها تسير ببطء شديد وهي تتوكؤ على الإمبراطور ووصيفتها شروق . فهمس في أذنها الأول مشجعاً :

– تشجعي يا عزيزتي لم يبقَ إلا القليل ونصل إلى السرداب .

حاولت أن تبتسم لتطمئنه لكنها لم تستطع ؛ فلقد علت الصفرة وجهها الشاحب ، وسال العرق غزيراً على جبينها وخديها ، حتى بدت كالخارجة حديثاً من حمام ساخن .

كان الجناح الإمبراطوري يقع في الطابق الثاني من القصر ، والسرداب يقع في آخر القبو من الناحية الجنوبية . يقود السرداب إلى إسطبل سري عند البوابة الجنوبية ، حيث به عربة وعدد من الجياد

يُعتنى بها خصيصاً لتهريب الإمبراطور وعائلته في حالات الطوارئ . وكان هذا السرداب من السرية بمكان حتى أنه لم يكن يعلم بوجوده إلا الملك والقائد بتار والمستشار عدنان والوزير زيدون وقائد الحرس هاشم . ولقد كان الساسة القائمين على الإسطبل ينتقون بعناية من أفضل جنود الحرس الإمبراطوري وأكثرهم إخلاصاً .

كان السرداب مظلماً ذا رطوبة ساهمت في انبعاث رائحة عفونة أزكمت الأنوف ، فبدا للموكب المرهق أن السرداب يمتد إلى مالا نهاية . وكانت الملكة تقاسي من الآلام ما لا يطيقه رجل شديد البأس ، فما كان منها إلا أن سقطت مغشياً عليها من فرط الجهد والإرهاق . فانحنى الملك عليها قائلاً :

- نور!! ما بك ؟! أجيبيني . .

تحسس زيدون نبضها ونفسها ثم قال :

- لا تقلق يا مولاي فلقد أغشي عليها فحسب .

وأمر نصار أن يحملها ففعل . وأكمل الموكب المسير إلى أن لاح لهم ضوء من آخر السرداب بدا لهم كانبلاج صبح بعد مقاساة ليل طويل حالك السواد . فحثوا الخطى نحو الخلاص لكنهم فوجئوا بأن الضوء ما كان إلا ناراً مستعرة تلتهم العربة وجثث الجياد . فتوقفوا على عتبة الإسطبل واليأس يلتهم بقايا الأمل في قلوبهم . وجثا الملك على ركبتيه وانتحب بصوت مسموع وهو يرى يقيناً أن منيته قد اقتربت ، وأن لا خلاص يرجى من هذا الموقف البئيس . فالتفت إليه عدنان هاتفاً :

- مولاي . لم يحن وقت الراحة بعد . أمامنا القليل لنصل إلى النهر الكبير حيث تنتظرنا السفن لتنقلنا إلى سيسيليا . هيا يا مولاي اشحذ جنودك بالعزيمة والإصرار حتى نصل معاً إلى بر الأمان .

لكن الملك اليائس قال وهو يبكي :

– لم أعد أقوى على السير . . لم أعد أقوى . . اذهبوا ودعوني . . .

فهتف به هاشم :

– لن أتزحزح بدونك يا مولاي قيد أنملة . سأحملك على عاتقي لو لزم الأمر .

وهتف زيدون وقد علت ملامحه أمارات غضب شديد :

– قم أيها الملك . . ما لي أراك هكذا تبكي وتنوح كالنساء ؟! أرغد العيش في بلاط الملك أنساك أصول الرجولة ؟! قم وتجلد أمام رجالك الذين يضحون بحياتهم دفاعاً عن حياتك وحياة أسرتك .

فرفع الملك إليه عينيه الغارقتين في الدموع وقد امتلأت دهشة واستغراباً . فاستطرد الوزير الغاضب :

– مولاي . لقد كنت في زمن الصبا فارساً شجاعاً مقداماً . لا يكتفي بإلقاء الأوامر وإعداد الخطط في ساحة القتال . بل كنت تقاتل بسيفك في الصفوف الأولى غير هياب للأخطار . مستعد لبذل مهجتك لنصرة شعبك وجنودك . ما لي أراك الآن وقد ركبك الخوف ودلدل الأقدام على جانبيك محتنكاً إياك يسوقك كيف يشاء؟ هيا قم وانفض عنك هذا الخور وعد أسداً هصوراً كما عودتنا .

كانت الكلمات تهز فؤاد الملك هزاً . . فتحت في شخصيته باباً خفياً ظل مغلقاً وقد نسج عليه الترف خيوطاً من نسيان . فتسلل منه الخجل والحياء إلى أركان الملك وأطرافه . موقظاً مارداً ظل نائماً في قمقمه ردحاً غير قصير . فجفت الدموع وتألق الإصرار في عينيه كالشمس وهو يقلبهما في وجوه حاميته القليلة . فانحنى الوزير عارضاً ذراعه للملك ليستند عليه قائلاً :

- هيا يا مولاي . سنحيا معاً . . أو نموت معاً .

فانسابت الذكريات كجدول رقراق أمام عيني الملك الدامعتين ، ففي أول مراحل شبابهما ، كان هو والوزير زيدون يتدربان على الفروسية والمبارزة معاً ؛ وكانت الغلبة - في الجملة - تكون لزيدون ، إلا في مرات قليلة كان يتساهل فيها - بحكمته - ليغلبه ولي العهد - آنذاك - حتى لا يخسر ثقته بنفسه . وقد جلسا مرة ذات نهار قائظ يتفيئان ظل شجرة توت في الحديقة القصر الإمبراطوري . فقال نعمان :

- أرأيت يا زيدون لو أننا كنا في ساحة القتال سوية . أترانا نقاتل جنباً إلى جنب ؟

فقال زيدون متحاشياً الإجابة :

- لعلك يا مولاي تكون في تلك الأيام إمبراطوراً فنكيفك مؤونة القتال .

- هب أن الظروف أبت إلا وأن تزج بي في أرض المعركة ؟

- حينها سأفديك بروحي يا مولاي .

- لا . . بل سنحيا معاً ونموت معاً .

فاعترض زيدون :

- بل أموت أنا وتحيى أنت يا مولاي ، فالملك هو الرمز الذي تحيى من أجله الشعوب وتقاتل من أجله . وتثبت دفاعاً عن الأرض لأجله . فهو الذي يمضي بها قدماً إلى مرافئ العز والأمجاد ، فالقائد للأمة كالقبطان العارف بمسالك البحر الخبير بدروبه إلى ركاب سفينته الحديثي العهد بالبحر . فلو أصاب القبطان مكروه فأيُّ نجاة يرتجيها ركاب السفينة من بعده؟ سيكون الغرق نصيبهم أو التوهان أبداً في عباب البحر .

قال نعمان معترضاً :

- قد يكون الصواب قد حالفك - بعض الشيء - في حديثك السابق . لكن واجب القبطان الحفاظ على حياة ركابه بأي ثمن . فأي قيمة ترجى من قبطان فشل في الحفاظ على حياة ركابه حتى وإن عانق بمركبه المهجورة مرافئ العز وشواطئ الأمجاد؟ بل الصحيح أن القبطان والركاب كالجناحين لباشق عملاق . فبعطب أي جناح منهما لن يصل الباشق إلى قمم الشموخ والعزة والإباء .

فابتسم زيدون لحكمة صديقه ثم وقف باسطاً كفه تجاه صديقه وهو يقول :

- سنحيا معاً . . ونموت معاً . .

وكما في الماضي تحت الشجرة تصافحا . تصافحا في الحاضر تحت وطأة الخطر وشدة المعاناة . وتمتم الملك وقد بخّرت ابتسامته غبش الدموع :

- نعم يا صديقي الحميم . . سنحيا معاً ونموت معاً . .

وحين هموا بالخروج من الإسطبل ارتفعت ضحكة مجلجلة من الخارج ، فتقدم عدنان وهاشم وأربعة جنود لهم ليجدوا فارساً على صهوة جواد أسود كجنح الظلام ، وخلفه عدد من الجنود لا يزيدون عن العشرين . فقال عدنان بشراسة وهو يلوح بسيفه :

- عرف عن نفسك أيها الفارس .

فسطع البرق مفصحاً عن ملامح الفارس العتيد الذي قال بنبرة طافحة بالهزء والكبرياء :

- أنا الأمير شاكان ولي عهد مملكة ركساس وقائد جيوشها العتيدة .

كان وقع اسمه كلطمة على قلوبهم . ولاح أثره جلياً في

وجوههم وفي شهقات حلوقهم . فابتسم شاكان وهو يضيف إمعاناً في غيظهم وتحطيم معنوياتهم :

- لقد أرهقني انتظاري لكم كثيراً . فرحت أنا وجنودي نستمتع باقتناص جيادكم الأصيلة وحرق عربتكم الباهظة هذه .

هالهم تسرب سر هذا المكان فهتف الملك قائلاً :

- من أين لك بمعرفة سر هذا المكان يا شاكان؟ أخبرني من هو الخائن الذي وشى إليك بهذا السر ؟

جلجلت ضحكة شاكان مرة أخرى وهو يقول :

- لن أقض مضجعك في مثواك الأخير أيها الملك بالحقد على الواشي . بل سأبقيه سراً علك تتسلى في ضريحك في محاولة سبر أغوراه .

ثم هتف بصوته المرعب :

- والآن . . استسلم أنت ومن معك لنقدمك للملك ركساس المفدى .

تقدم عدنان الركب شاهراً سيفه وهو يقول :

- أنا سأكون خصمك يا شاكان . .

ووضع نصار الملكة على أرض الإسطبل بعناية ، واستل سيفه من غمده قائلاً :

- دعه لي يا سيدي المستشار . سأري هذا الوقح عاقبة وقاحته .

فقال هاشم وهو يتقدم بدوره :

- بل هو لي أنا .

وإذا بسيف زيدون يبرز بجوارهم والوزير يقول :

- بل دعوه لي وانطلقوا بالموكب .

- بل سنقاتله سوية .

كان القائل هو الملك وقد استل سيفاً من أحد الجنود واصطف بجوار رجاله الأربعة ، ملتفتاً إلى زيدون قائلاً :

- لن أكون قبطاناً ناجحاً إن نجوت وتركت ركابي للغرق . أتذكر يا زيدون ؟!

ابتسم زيدون ، فيما اعترض عدنان بقوله :

- ولكن يا مولاي . . .

قاطعه الملك :

- هذا أمري يا عدنان وقد نفذ . هذا الوحش لا يستطيع رجل واحد هزيمته . لا بد لنا من أن نتكاتف حتى ندحره ونصليه ألوان الهزيمة .

فابتسم شاكان متمتماً :

- طريف . . طريف حقاً . سأقاتلكم أنتم الخمسة وحدي ، وأذيقكم طعم سلاحي الأسد الذهبي واحداً . . واحداً .

والتفت إلى رجاله هاتفاً :

- من يتدخل سأقطع عنقه .

ثم انقض على الشجعان الخمسة مطوحاً بحربته الرهيبة . لكنه وقبل أن يلتحم بهم فوجئ بظل يقترب منه بسرعة من خلال فتحة في جدار الحصن أحدثتها قذائف المنجنيق . فالتفت فإذا غلام صغير يعدو تجاهه بسرعة رهيبة ، مما جعله يتوقف رانياً إليه ؛ فإذا بالغلام يقذفه بحجر كبير شق الهواء ليصيب عينه اليمنى ويفقأها . فسقط الفارس العتيد من أعلى صهوة جواده مطلقاً صيحة ألم رهيبة . فصاح عدنان مستغلاً الفرصة :

- الآن هي فرصتنا لاقتناص هذا الوحش .

فانقض الأربعة نحو شاكان الذي قام مسرعاً واضعاً يده اليمنى على عينه التي تثغب دماً ونظر إلى الفتى بعينه اليسرى ، وتفرس في ملامح وجهه جيداً وفي شعره الأسود الطويل ، وهو يراه يركض نحوه مشهراً سيفه ، فوقف شاكان وحمل سلاحه من الأرض وأراد أن ينقض بدوره على مهاجمه الصغير ، لكن الألم راح يعصف بأطرافه ، فدار رأسه ، واغبشت الرؤية أمام عينه الوحيدة ، وسرى شعور غريب في جسده لم يعرفه شاكان على الإطلاق إثر مرأى هذا الغلام الصغير الذي ربما لم يصل طوله إلى بطنه ، وهو ينقض عليه في شجاعة نادرة . كان الشعور هو . . الرهبة . . فامتطى صهوة حصانه الأدهم وهو يهتف بحنق :

– لن أنسى تفاصيل وجهك ما حييت ، سأقتص منك ولا بد .

وجذب عنان فرسه مبتعداً عن المكان ، وانسحب هو وعشرة من الفرسان ، وأمر بقية الفرسان بالانقضاض على الملك ورجاله ، فاشتبكوا في قتال رهيب ظهرت فيه قوة هاشم ونصار ، وخبرة وحنكة عدنان ، وتجلد زيدون وقوة شكيمته ، أما الملك فكان صقراً هصوراً ، راح ينقض على الأعداء بحماس واندفاع ، والغلام أيضاً قتل بضعة رجال ، فرغم قصر قامته إلا أنه كان سريعاً جداً ، وما هي إلا دقائق معدودات حتى انسحب الفرسان الركساسيين من أمام أقوى رجال أركاديا .

تنفس الركب الصعداء ، والتفوا بالملك يسألونه عن حاله ، لكنه تركهم وتقدم من الغلام وقال له :

– من أنت أيها الغلام ؟

أجاب الغلام وقد جثا أرضاً احتراماً للملك :

– أنا حمزة بن البتار يا مولاي .

فهتف الملك بسعادة ودهشة :

– أنت ابن القائد بتار ؟!!

أجاب حمزة وقد أطرق والحياء يعلو محياه :

– نعم يا مولاي . أنا ابنه .

كان غلاماً في الثالثة عشر من عمره . أسمر البشرة وسيم القسمات . ذو شعر أسود حريري ينسدل إلى أعتاب ظهره . تلوح في نظرة عينيه النجلاوين شجاعة وفتوة . فما كان من الملك إلا أن وضع يديه على كتفي الغلام قائلاً :

– هذا الشبل من ذاك الأسد .

وتقدم الوزير زيدون وسأل :

– ما الذي جاء بك إلى هنا يا بني ؟

أجاب حمزة وقد بدا الحزن على ملامحه :

– لقد كنا في البيت أنا وأمي وأختي حين بدأ القصف الناري . فقررنا الانتقال إلى سيسليا كما وصانا أبي في حالة الطوارئ . وحين فرغت من سرج حصانين لي ولأمي وعدت لأخبرها وجدتها وقد . . .

واسترجعت ذاكرته منظر القذيفة وهي تسقط على أمه ساحقة رأسها ، فأكمل وهو يحاول منع أدمعه من الهطول :

– لأجدها وقد ماتت . فحملت سيفاً كان أبي قد خبأه لي ، وأخذت أختي وهممنا بالخروج من البوابة الجنوبية كما أمرني أبي . فجذب اهتمامي تجمع الفرسان الركساسيين حول هذا الركن القصي من الحصن . فخشيت أن يكونوا قد تجمعوا بأبي أو بك يا مولاي .

تمتمت الأميرة ثريا :

- يا للغلام المسكين .

وسأله عدنان :

- أليس من الحماقة يا غلام أن تهاجم فارساً مدججاً بالسلاح برمية حجر قد تخطئ طريقها ؟

أجابه حمزة :

- لقد كنت واثقاً من إصابة هدفي يا سيدي . فلقد بدأ أبي بتدريبي على الرماية منذ كنت طفلاً في السادسة .

ظهر الإعجاب على وجه عدنان ، وقال الملك :

- وأين أختك يا حمزة ؟

فذهب حمزة خلف الفجوة ، وعاد بفرس شقراء وعليه فتاة صغيرة ، فأنزلها أرضاً ، وقدم خطام الفرس إلى الملك قائلاً :

- هي لك يا مولاي . . شرفنا باعتلائها . .

فتلألأت ابتسامة الملك بالإعجاب وهو يقول :

- لقد أحسن بتار تربية أبنائه . نعم الغلام أنت يا حمزة! نعم الغلام !

في تلك الأثناء ، كان بتار ما يزال صامداً على القنطرة كالجبل في وجه الغزاة ، الذين تساقط منهم في المجرى كل من سولت له نفسه في مجابهة هذا البطل الهصور . وراح بتار كلما جندل فارساً منهم ،لوح بحربته المشرشرة وهو يهتف :

- هيا أيها الجبناء . . تقدموا لحتفكم . .

فاغتاظ زاندن وهم بأمر مفرزته أن ينقضوا عليه انقضاضة رجل واحد فقال أحد مساعديه :

- أخشى يا سيدي أن يكون هذا فخ يريد به بتار أن يستدرج جنودنا إلى القنطرة ، فيفر إلى داخل القصر ويغلق بوابته ، ثم يمطرنا

فابتسم أورون عن ثقة وهو يقول :

- سأقضي عليه ولا شك يا سيدي . بهاذين الفأسين سأدحرج رأسه بين قدميك .

- هيا امضِ . .

وانطلق أورون ركضاً نحو بتار . وما أن انتصفت المسافة بينه وجيشه وبين بتار حتى هتف بتحدٍ :

- هيا يا بتار تعال ونازلني .

فضحك بتار وهو يقول بسخرية :

- أَوَ تبخرت الشجاعة من قلوب فرسان ركساس حتى بعثوا بأحد الراجلة ؟

فلوح أورون بفأسيه قائلاً :

- يبدو أن التعب قد نال منك فجبنت عن النزال .

فهتف بتار بأعلى صوته وهو يحرص أن يبلغ مقاله مسامع زاندن :

- بل الجبان من يرسل جنوده الواحد تلو الآخر لحتفهم وهو قابع في أمان .

فاشتاط زاندن غضباً وهم بالتقدم لولا أن منعه مساعده بقوله :

- لا تمكننه من أعصابك يا سيدي . أورون كفيل بجز رقبته ، فلقد دعكه شظف الفقر والعيش بين الجبال والقفار حتى صار صلباً صلداً كصخورها . ولو افترضنا جدلاً أنه لن يقدر عليه فسينهك قواه . حينها تتقدم أنت وتقضي عليه بضربات قلائل .

فهز زاندن رأسه رضاً بما قال المساعد ، وراح يتابع المبارزة بين جنديه الصلب وبين قائد جيوش أركاديا الذي تقدم بجواده من أورون وهو يعد حربته ليضرب بها ضربة تنهي القتال . لكن هذا

الأخير مال متفادياً الضربة وسدد ضربة هائلة اجتزت قائمتي الحصان الأمامية فسقط وسقط عنه فارسه ، فانطلق أورون صوب بتار وكال له ضربة قوية بفأسه استهدفت رأسه . لكن بتار تدحرج متفادياً إياها . ثم عاود الهجوم بضراوة وكأنه لم يسقط . واشتعل القتال بينهما ، وبدا أن الصراع سيحسم لبتار . فهتف زاندن بجنوده :

- هيا يا رجال . . ألف قطعة ذهبية لمن يحضر لي رأسه . . اهجموا عليه . .

وقاد بنفسه الهجوم الغادر . . كان همه هو القضاء على هذا الفارس الذي مرغ أنف مفرزة قوامها مائة وخمسين جندياً في وحل الهزيمة ، ولقد كان بتار يتوقع هذا الهجوم الغادر وأعد له عدته - وإن رأى أنهم قد تأخروا فيه - لكنه كان قد وضع خطته على أن ينسحب إلى داخل القصر ويغلق بوابته في وجه مهاجميه ، ثم يقوم جنوده بإمطارهم بوابل سهام من الشرفات العليا قبل أن يتمكنوا من تحطيم البوابة ، لكنه الآن لن يستطيع التراجع ركضاً على قدميه ، وسهام رجاله لن تكون مجدية من هذا البعد . لذا لا مناص من مواجهة الموت . . فليواجهه إذن وهو متربع على صهوة العز والبطولة .

فانقض على أورون بكل ما أوتي من حنكة وبراعة وخفة فأرداه قتيلاً بعد تبادل ضربتين أو ثلاثة . ثم وقف مواجهاً المائة مستعداً بحربته المضرجة بدماء أقرانهم وهتف :

- هيا أيها الأوغاد أروني ما لديكم .

ولم تطرف عيناه ولم يدب الخوف في عروقه وهو يرى مائة جندي بينهم ما لا يقل عن أربعين فارس ، ينقضون عليه من كل

حدب وصوب ، كل يرى رأسه يلمع ككيس تحمل ثناياه ألف قطعة ذهبية ، ولقد كان يدرك أن كأس الموت مورده لا محالة ، فقرر أن يجرعه معه أكبر قدر من جنود ركساس ، وعلى رأسهم كبيرهم زاندن ، الذي كان في مقدمتهم يُعدّ سيفه لقطع رقبة بتار . وما أن صار زاندن في مجال رميه حتى انحنى بخفة والتقط فأس أورون وألقاه بقوة مستهدفاً قوائم الجواد ، الذي سرعان ما سقط بفارسه أرضاً ، فتعرقلت الجياد من خلفه ، وقضى زاندن نحبه سحقاً تحت ثقل أحد الجياد التي تعثرت به ، في حين انقض بتار كالصاعقة عليهم مستغلاً الهرج والمرج الذي شاع بينهم إثر تعثر الجياد ، وراح يحصد أرواحهم بحربته ، محركاً إياها يمنة ويسرة بسرعة وخفة وقوة لا تتفق إلا لرجل ليس لديه ما يخسره ، فهو يعلم يقيناً أن الموت مصيره ، فإذن حي هلا بموتة تخلدها صفحات التاريخ .

واحتدمت المعركة وطالت جداً . . والبطل ما زال صامداً ، وقد لطخته دماء من أرداهم من جنود ركساس الذين كانوا مبهوتين مبهورين من صلابة هذا الرجل الذي يقاتل كالموت نفسه ، ودب الذعر في قلوبهم وجمد أوصالهم ، وقد هالهم منظره الشرس وقد اكتسى وجهه قناعاً من دم زاده شراسة على شراسة ، فبدت عيناه المشتعلتين جمرتين ملتهبتين وسط الدماء ، فقاتل من ثبت منهم بوهن وخوف ، وإذا برجلين يخرجان من القصر ينقضان كنسرين على من تبقى من جنود الكتيبة . كانا عدنان وزيدون أتيا لمساعدة بتار ، ومن خلفهما الرماة الأربعة المكلفين بالشرفات . وما هي إلا دقائق معدودات حتى فنيت المفرزة عن بكرة أبيها . . مفرزة كانت مكونة من مائة وخمسين فارساً . . تجرعوا أقسى أنواع الهزائم . . أمام رجل واحد . . أمام فارس أركادي واحد . . سماه القدر يوماً باسم بتار .

الذي وقف صامداً بين الجثث وله لهاث شديد . والدماء تتدفق من جروحه المنتشرة في كل ركن من جسده . وقد بلغ الإعياء منه مبلغه ، وكاد أن يهوي من فرطه كجبل قد وقف طويلاً في وجه العواصف لولا أن استند على حربته المتخضبة ، وقد تقاطر الدم اللزج من نصلها المشرشر ، وسمع صوت صديقيه الحميمين يسألان عن حاله وقد تهدج صوتهما من فرط التأثر والإعجاب في حين قال زيدون :

– فعلتها يا بتار . . قضيت وحدك على مفرزة بأكملها . يا لك من رجل عز أن يجود الزمان بمثله .

فقال بتار بصوت واهن وهو يقاوم دواراً اكتنف دماغه :

– الإمبراطور . . لماذا تركتما الإمبراطور وعدتما ؟

قال عدنان بامتنان :

– الإمبراطور في أمان مع قوات الدعم . فجئنا نرد الجميل إليك أيها البطل . فلقد أنقذ ابنك حياتنا قبل قليل .

– حمزة ؟! أهو على ما يرام ؟

فأجاب زيدون :

– هو على خير ما يرام . فلقـ . .

ولم يسمع بتار بقية الجملة فلقد سقط أرضاً مستسلماً للدوار العنيف الذي اكتنف دماغه وعصف بأركان جسده ، وكأنه بعد أن اطمئن على مليكه وعلى ابنه لم يجد مضاضة في أن يهوي ساقطاً في أحضان الغيبوبة . .

وسكبت السماء دموعها وكانت قد حبستها ليلاً طويلاً ، وهي تشاهد رغماً عن إرادتها تلك المجازر الشنيعة . .

وتلك البطولات الرفيعة . .

***

# الفصل الثاني:
# نعيب البوم الحزين

كما نجمة وهاجة أفعمت السماء طويلاً بدفء ضوئها أفلت غلوريا عاصمة أركاديا . . كما نهر فياض أمد الناس بالماء والغذاء وروى الأشجار والحيوانات نضبت غلوريا . . بسهولة انتزاع قطعة ذهبية من جيب رجل مشلول . . عاجز . . فقير . . زفت العاصمة العذراء إلى أحضان العِنّة والجفاء . .

سقطت غلوريا عاصمة أركاديا في يد الروكساس ، وتبعها في السقوط سبعة من أكبر مدن البلاد ، أنجيليا ، فافاليا ، روفينيا ، طولينيا ، وراهوا . . ستٌّ مدنٍ كبيرة توالى سقوطها كانفراط حبات المسبحة ، ولم يتبق من الإمبراطورية الكبيرة إلا إقليم سيسيليا الجنوبي بمدنه الست .

في هذه الحرب تجلّت قوة الجيش الركساسي وبراعة خططه واستراتجياته ؛ فلقد حكى لي أبي أن حروباً كثيرة دارت بين أركاديا و ركساس كانت سجالاً بين الطرفين ، أما هذه الحرب فكانت مغايرة . كانت حرباً ضروساً شعواء من طرف واحد ، من طرف ركساس . كان جنودهم كالسيل العرمرم يجرفون كل شيء في طريقهم .

ولا يعني ذلك عدم وجود مقاومة من الجيش الأركادي ، فلقد

أرسل بتار سرايا كثيرة لحماية المدن قبل سقوطها باءت كلها بالفشل . حاول مراراً مباغتة العدو الركساسي فكانت المباغتة من نصيبه . لقد كان من الواضح أن تحركاته مكشوفة لشاكان وجنوده ، كان الخائن ينخر في كيان الإمبراطورية العتيقة بلا رحمة . وكل المحاولات لكشفه تكللت بالفشل . كان من الخفاء والدهاء ما جعل كثيراً من كبار قادة أركاديا يشككون في وجوده . وراحوا يعزون تفوق الجانب الركساسي عليهم إلى خسوفٍ أصاب القمر قبل ولادة ولي العهد الأمير العزيز بليالٍ قليلة . وذاكٌ ما كان يرفضه بتار والوزير زيدون بشدة ، كانا متفقينٍ على ضرورة كشف شخصية الجاسوس قبل انقضاض الركساسيين على سيسليا عاصمة الجنوب وآخر معاقل الإمبراطورية الأركادية . على عكس المستشار عدنان والحاكم علام اللذين كانا مصرين على أن فكرة وجود جاسوس ركساسي في الصفوف الأركادية ما هو إلا ذريعة ضعيفة للهزائم المتتالية .

سألت أبي عن سر الهزائم الأركادية في تلك الفترة ، وهل كان الجاسوس هو السبب الرئيس في ذلك . فأجابني أن الترف الذي حاق بأركاديا وتفشى في قادتها وشعبها هو السبب الرئيس ، ذاك الترف الذي عشعش في الأبدان فاستكانت النفوس للأمجاد القديمة والانتصارات العظيمة التي تحققت في الماضي على أيدي أجدادهم . . كان أبي يردد على الدوام أن الإنسان هو الذي يصنع لنفسه المجد وليس آباؤه وأجداده .

سنتان كاملتان مرتا على سقوط غلوريا في أيدي الركساسيين . شهدت مع أبي الخطبة التي ألقاها شاكان ولي عهد مملكة ركساس في الميدان الرئيسي في المدينة . كان كائناً مهيباً بحق . لم ترَ عيناي

قط من هو أكثر مهابةً منه . منظره بالعصابة السوداء على عينه اليمنى يبعث الرعدة في الأوصال . تلك العين التي فقأها حمزة بن البتار عشية انسحاب موكب الإمبراطور النعمان من المدينة . مما أذكره من خطابه أنه أكد على وحدة الشعبين الأركادي والركساسي ، وأنهم في الأصل شيء واحد ، وأن البلدين العريقين سينصهران في كيان واحد لا فضل فيه على أحد ، وأن الخيرات ستعم الجميع ، وأن الرفاهية ستزداد ، وستعيد الحكومة الجديدة تقسيم الأراضي الزراعية والممتلكات على الجميع بالعدل . وأن الدور والمعابد باقية على أصلها ، والأمن مكفول للجميع . أعقب ذلك بالاعتذار الشديد لكل من فقد عزيزاً في هذه الحرب ، موضحاً أن لكل معركة ثمنها ، ووعد أسر الضحايا بالتعويض القريب .

كان خطابه رقيقاً مسّ شغاف القلوب وملك بسطوته العقول . حتى أن أمي قالت لأبي : إن الرجل ليس بالسوء الذي وصفت لي .

فأجابها هازئاً : العدل ، والأمن ، والدين أغنية كاذبة يُخدر بها كل طاغية عقول الناس وقلوبهم .

وصدق أبي . . أيام قلائل وأعيد توزيع أراضي العاصمة على الناس ، فكانت المفاجأة أن أجود الأراضي كانت من نصيب كبار رجال شاكان ، على أن يعمل فيها أصحابها السابقون مقابل خُمُس الدخل ، ينالونه بعد أن تضع الحرب أوزارها ، إذ سيعود ريع الأراضي إلى المجهود الحربي ضد ما تبقى من أركاديا .

وبعد أسبوع واحد . . أقام الركساسيون تمثالاً كبيراً في منتصف المدينة لمعبودهم الأسطوري سيروس ، وأقيمت له المعابد في أكناف المدينة . وجُبيت الضرائب من الأهالي ، وقدمت أفواج من

الركساسين الهمج لاستيطان غلوريا مما اضطر كثيراً من الأركاديين للنزوح إلى الأرياف ، واتخذ شاكان القصر الإمبراطوري سكناً له مع زوجته الحسناء الأميرة ريفالا ، ومقراً لحكومته الجديدة ومنطلقاً لغزو الجنوب .

حدثتني إحدى جواري مخدع الأمير شاكان من بنات أركاديا ، أنه كان يقضي كثيراً من ساعات الليل ساهماً ، يتفقد عينه اليمنى في المرآة ، فينضح العرق على وجهه قبل أن يلعن حمزة وأباه بتار .

أخبرتني أنه كثيراً ما كان يفضي إلى مستشاره تَيهاد حقيقة مشاعره تجاه ما حصل في تلك الليلة . . كيف بوغت بانبثاق حمزة من الظلام ليطلق الحجر سهماً رابحاً حظي بعينه اليمنى .كان عصيباً على الفارس العتيد الذي ترتعد الجيوش لمجرد سماع حمحمة حصانه أن ينسحب من ساحة المعركة أمام ذلك الغلام الصغير .لم يكن جرح عينه الذي ينزف . . بل كرامته هي التي كانت تثغب الدم . .

علمت أيضاً أن تيهاد عرض على شاكان أن يقتل الجاسوس حمزة ويحضر له رأسه الصغير على طبق من ذهب . لكن شاكان رفض ذلك رغبة منه في الاقتصاص بنفسه من حمزة وأبيه .

حمزة بن البتار أضحى ذا حظوة لدى الأسرة الإمبراطورية بعد تلك الليلة . . كم كان بتار فخوراً به عندما أنصت للإمبراطور وهو يصف أفعاله الرجولية . كيف أسقط شاكان برمية حجر . كيف قدّم فرسه مطية للإمبراطور وحرمه . كيف تقدّم الركْبَ يسوق الفرس جنباً إلى جنب كبار فرسان أركاديا . كيف أبى إلا أن يكون من آخر الصاعدين إلى المركب الذي أقلّ الموكب السامي إلى الضفة

الأخرى من النهر الكبير . كيف كان يسهر في كل ليلة فوق رأس الإمبراطور الغافي ممتشقاً حسامه وهم في طريقهم إلى سيسيليا .

أثنى الإمبراطور عليه كثيراً . . أسبغ عليه بركته ورضاه ، واستوصى بتار به خيراً . وكذلك فعلت الأميرة ثريا شقيقة الإمبراطور النعمان . التي طالبت به مراراً حارساً شخصياً لها ، إلا أن بتار كان يتعذر بحداثة سن الغلام ، مخفياً رغبته العميمة لابنه بمنصب أرفع . فلقد كان بتار يُعِدُّ ابنه ليكون خلفاً له . . ليكون الفارس الكامل الذي لم يكنه . على ذلك ربّاه ونشّأه منذ نعومة أظفاره ، رغم اعتراضات كثير ممن كانوا حوله . الذين كانوا يحذرون بتار من مغبة اختلاس رصيد الطفولة من عمر حمزة . . لكن الفتى الموهوب أبدى تجاوباً عالياً مع رغبة والده . . بل بدا للجميع وكأنه ما خُلق إلا ليكون فارساً . أتقن الرماية بدقة عالية وهو لم يتجاوز السادسة . برع في ترويض الجياد قبل إكمال العاشرة . برع في المبارزة بالسيوف والحراب بعد ذلك بقليل . حتى أن كثيراً من المعارضين ـ خصوصاً شقيقي بتار فهد وغضنفر ـ انبهروا بالنتيجة ، وإن منعهم الكبرياء من الاعتراف بذلك .

لم يوافق بتار على انتقال حمزة إلى القصر الإمبراطوري إلا بعد شفاعة حاكم سيسليا علام شقيق الإمبراطورة والوزير زيدون ، الذي ألح على بتار بذلك تحقيقاً لرغبة الإمبراطور وزوجته . وفي ذلك أيضاً راحة لبال بتار قائد الجيوش إذ إنه سيطمئن على ابنه وابنته أنهم في خير كنف وجوار .

بذلك تفرغ بال بتار للإعداد للمعركة الفاصلة المتوقعة في السهل الأبيض على مشارف سيسليا . راح بنفسه يجوب المدن من أجل بث الحماسة في قلوب الشباب الأركادي ، وحيثما حلّ

كانت حكاية نصره الفريد على المفرزة الركساسية في جلوريا تسبقه ، وقد هولّها النقل وزيّف كثيراً من حقيقتها ، حتى أنني ظللت أعواماً أشكك بها وفي عدد أفراد المفرزة ، حتى أكد لي زوجي العدد الصحيح .

كان التوفيق حليف بتار في كل المدن والقرى التي يزورها ، الرجال والشباب يبتدرون التسجيل في كشوفات الجيش الأركادي بمجرد رؤيته وسماع كلماته . إلا في قرية صغيرة تطل على المحيط في أقصى الجنوب تدعى ناناكروبا . هذه القرية التي يشتهر رجالها بقوة الشكيمة والجلد في الطِعان . ولقد قاموا بثورة رهيبة قبل أوان الزيارة بأعوام طالبوا فيها بالاستقلال عن الإمبراطورية ، ولقد نجحوا فعلاً في احتلال عدد كبير من المدن والقرى في الجنوب مستغلين انخراط الجيش شمالاً في مناوشات مع الركساسيين ، حتى أنهم استطاعوا محاصرة سيسليا عاصمة الجنوب وثاني أكبر مدن أركاديا . كل ذلك بجيش من صيادي السمك لا يتجاوز تعداده خمسة آلاف مقاتل .

لكن بتار ـ الذي كان ضابطاً في الجيش آنذاك ـ طلب من قائد الجيش السابق عدنان ألف فارس فقط حتى يعيد السيطرة على الجنوب .

وبالفعل . . ما هي إلا أسابيع قليلة ويمزق بتار برجاله جيش الثوار ، ويستعيد المدن والقرى السليبة ، ويقبض على حاكم المدينة وقادة تمرده ، ليقدمهم إلى البلاط الإمبراطوري ، حيث حُكم عليهم بالإعدام .

قصّ لي أحد أبناء ناناكروبا لحظة وصول بتار وضباطه إلى القرية فقال :

«- وصل موكب القائد بتار المكون من القائد فهد والقائد هاشم وعدد قليل من الجنود المسربلين بالزي الإمبراطوري ، ساروا بجيادهم الأصيلة في شوارع القرية الضيقة المرصوفة بالوحل وملح البحر . كان الأهالي يرمونهم بعيون تقدح حقداً . مئات من خيرة شباب القرية قضوا نحبهم بهذه السيوف المغمدة في جراباتها .

قصد الموكب منزل الحاكم (الأرغل) الحاكم الجديد للقرية الذي كان شقيق الحاكم السابق قائد الثورة ، طلبوا منه جمع الأهالي في أكبر ساحة في القرية ، فاعتذر الأرغل عن ذلك بحجة وجود الشباب في البحر طلباً للرزق . فتوجه بتار برجاله للشاطئ لملاقتهم فور نزولهم .

ظل بتار وجنوده على صهوة جيادهم لم ينزلوا منها ، ولم يبادر أحد بضيافتهم حتى يعود الرجال ، إلى أن شارفت الشمس على المغيب وعادت القوارب محملة بالصيد وبالرجال . .

وبعد أن تأكد بتار من وصول الجميع ، خطبهم خطبة عصماء لا أنساها ما حييت ، ولا أعتقد أن أحداً ممن سمعها سينساها أبداً . . قال بصوته الجهوري المفعم بالكبرياء :

- يا رجال ناناكروبا الأشاوس . . يا من صقلت الشمس سواعدهم ، وسقت مياه البحر عزائمهم . . أرى عيونكم التي استلهمت لونها من أرضكم النقية تصليني سهام الحقد والكراهية . . أسمع أفواهكم الكريمة تلعنني في صمت وتوشك أن تطردني لولا أصالة أخلاقكم وطِيب منشئكم . .

ثم سكت ملياً يتفرس في وجوه الرجال . . قبل أن يستطرد :

- من أنا؟ أي منصب أحمل؟ من منكم يعرفني؟ هل من مجيب ؟

ضحك من هذا التساؤل جمع من الحضور الذي بدا لنا حينها سؤالاً ساذجاً . .

ألحّ في طلب الإجابة فهتف أحد الغلمان المندفعين :

- أنت سفاك الدماء بتار قائد جيوش أركاديا . .

العجيب أنه رد بهدوء وكأنه كان ينتظر تلك الإجابة :

- نعم . . أصبت أيها الغلام . . أنا سفاك الدماء بتار قائد جيوش إمبراطورية أركاديا المجيدة . . نذرت سيفي ورمحي وعمري لأسفك دماء كل من يجترئ على تراب هذه الأرض الطاهرة أو أهلها الطيبين . . لأسترد به حق المظلوم من الظالم بالطرق الشرعية وفق دستور البلاد . .

نعم أنا بتار بن الفلاح الفقير الذي سقته أمه حب هذه البلاد العزيزة وأهلها الكرام . .

نعم أنا بتار الذي غرس أبوه في عقله وقلبه حب حكام أركاديا الذين جاء جدهم ليجدنا شتاتاً معدمين نقاتل بعضنا على الرغيف ، فجعل منا دولة قوية وشعباً متحداً تهابهم الأمم شرقاً وغرباً . .

سكت يجسّ أثر كلامه في وجوه الرجال . . ثم أردف :

- هل عرفتموني الآن؟ هل تلومونني الآن؟ ليس خطأً أن يطالب الشعب بحقه . . ولكن الخطأ الفادح أن يطالب حقه بالتعدي على حقوق الآخرين . .

وبعد سكوت :

- واليوم جئت أستنهض فيكم شيئاً أنا متيقن من وجوده في صدوركم . . شيء أعلم أني لن أجد شبيهاً له في شتى أنحاء الأرض . . . إنه الروح الأركادية . .

ثم علا صوته فجأة حتى أن فرسه جفلت من حدته :

- فهيا يا رجال . . يا من أرقتم الدماء رغبة في الحياة الكريمة . . جاء عُبّاد سيروس من كهوفهم لاستلاب أرضكم . . جاءوا جوعاً وشبقاً للحوم نسائكم . . جاؤوا بحثاً عن أطفالكم ليقدموهم قرابين لمعبودهم سيروس . . أفترضون ذلك ؟

هتف الجميع ـ وكنت معهم ـ لا شعورياً :

- لا . . الموت أحب إلينا من ذلك . .

هتف :

- إذن هيا . . هبوا . . أركاديا تستجدي أبناءها . . تدعو رجالها ليُعزِّوها بعد أن أذلها الغزاة . . فلتحيا أركاديا . . عاش الإمبراطور . .

فهتفنا جميعاً :

- فلتحيا أركاديا . . عاش الإمبراطور . .

وتزاحم الرجال بالأكتاف تسابقاً لتسجيل أسمائهم في كشوف الجيش . . »

كذلك كان بتار قائداً لم تشهد البلاد مثله . . يجيد دحر النفوس . . والأجساد . .

بتلك الرحلات استطاع بتار إضافة عشرة آلاف مقاتل متطوع إلى جيشه البالغ خمساً وثلاثين ألفاً . دربهم بنفسه ما أتاح الوقت له ذلك . وتقدمهم إلى السهل الأبيض ليلاقي الجيش الركساسي الذي اجتاز النهر بجيش قوامه ستون ألف مقاتل .

الكل مجمعون على أن سقوط سيسيليا يعني نهاية الحرب . . كان هذا الأمر يقض مضاجع أهل المدينة المهددة . . لذا تسابق الجميع في البذل للمجهود الحربي . الميسورون أنفقوا أموالاً طائلة لتجهيز الجيش بالمؤن والعتاد ، مربوا الخيل قدموا أجود خيلهم دون

مقابل . الحدادون وصلوا الليل بالنهار في سباكة الأسلحة والدروع والتروس . النساء سهرن الليالي على حياكة الملابس والرايات .

الجميع كانوا يستشعرون المسؤولية . . مسؤولية الدفاع عن وطنه . .

كم كانت مهيبة لحظات تشييع السكان الجيش إلى أرض المعركة . . كم من دموع ذرفت . . وكم من ابتهالات رفعت . .

وعلى رأس الجيش كان الإمبراطور النعمان . . تلك هي المرة الأولى التي يخرج فيها للقتال رغم نشأته العسكرية . . كان منظره مهيباً على صهوة جواده الأبلق ، متمنطقاً سيفه ذي القبضة الذهبية والجراب المموه بالنقوش والتهاويل ، وعلى درعه منقوش شعار الإمبراطورية صقر فارد الجناحين يمسك بمخلبيه سيفاً مصلتاً .

للسيف والشعار أسطورة مشهورة . قِيل أن هذا السيف كان لجد النعمان الأول الذي وحد البلاد بعد حروب طاحنة دامت خمسين عاماً ، أعطاه إياه صقر عملاق أرسلته السماء ليستعين به على قتال الأعداء .

حمزة أيضاً ارتدى زي الحرب واستعد للخروج ، لكن بتار استبقاه في المدينة أسوة بأترابه . وبعد إلحاح وإصرار وحيل ومناورات قال له بتار :

– سأعهد إليك بمهمة تفوق أهميتها الخروج إلى الجبهة .

سأله حمزة بشغف :

– وما هي يا أبتِ ؟

قال :

– حماية ولي العهد والإمبراطورة إن حصل لجيشنا مكروه .

فتنازل حمزة لـمّـا أقنعه بتار بجسامة مهمته .

انضم للجيش قادة كانت لهم أدوار بارزة في صناعة الأحداث التـاليـة ، منهـم من عـاد للسمـاء نجـمـة باكيـة ، ومنهم من شـرقت الأرض المتلمظة بدمـائه النتنة ، ومنهـم من صـارت سـيرته أغنيـة تتغنى بها العصور اللاحقة . .

***

عباءة الليل الساحرة تكلل الأماني العارجة بالأحلام الوردية . الغيم المتكتل يمنع النجوم الفضولية لذة استراق النظر . النسيم الساكن حرّض الرطوبة على الانتشار وقوّى من عزيمة الوسن . أغلب الجنود في المعسكر الأركادي خلدوا للنوم العميق . يُعدّون أجسادهم المنهكة لمعركة فاصلة . القائد بتار ظل سهراناً . يسير بين جنبات المعسكر يتفحص الجنود ويختبر الإعدادات . يستنشق بقايا رائحة الحطب ولحم العشاء . متلفعٌ بدثاره الأسود الطويل الموسوم بشعار الإمبراطورية يتقي به برد المساء . استوقفته ضحكات عابثة من قِبل بعض جنود الحراسة . فنهرهم عن العبث أثناء أداء الواجب وإن داخله سرور لارتفاع المعنويات .

هاجسٌ مُلحّ كان يؤرقه . أقامه من فراشه بعد أن أسلم الجفنين للرقاد . إنها خطة المعركة المرتقبة . الخطة التي تخبئ أصابعها قدر أمة ومصير دولة . الخطة التي أعدها بمشورة ومعونة من أكبر رجال الإمبراطورية المستشار عدنان والوزير زيدون . ولم يعلم بتفاصيلها أحد إلا من كان له دور فيها مع تعمية الأخبار عنه حتى لحظة التنفيذ . خطة يعلم يقيناً بخبرته كمحارب أن تنفيذها لا يعني فقط انتصار الجيش الأركادي في المعركة ؛ بل تحطيم الجيش الركساسي إلى الأبد . هو يعلم أن وجود جاسوس خائن في صفوف الجيش خطر لا ينبغي التغافل عنه . فماذا سيحصل للإمبراطورية إن تسربت الخطة من خلاله إلى القيادة الركساسية ؟

قصد القائد العتيد خيمة المستشار عدنان أستاذه وقائده السابق والحكيم الذي يثق في رجاحة عقله وحسن تدبيره . ذلك الرجل الذي خدم الإمبراطورية عمره كله ، وأثبت من خلال التضحيات الكثيرة التي قدمها عن طيب خاطره ولاءه العميم للإمبراطور وللإمبراطورية .

وجد ضوءاً ينوس داخل الخيمة فاستأذن قبل الدخول . رأى المستشار عاكفاً على خارطة للسهل الأبيض جبهة المعركة ، فتساءل المستشار بصوته الوقور العميق :

– ما الذي يبقي قائد جيشنا ساهراً إلى هذه الساعة؟

– هاجس مؤرق أقض مضجعي وشوّش تفكيري يا سيدي .

رازه المستشار بنظرة عميقة أحس بها بتار تسبر أغواره ، ثم قال :

– لعلك تقصد بالهاجس المؤرق الجاسوس الذي نحسب أنه السبب في انتصارات الركساس علينا في المعارك الماضية .

كان بتار يعلم أن المستشار يشكك في وجود جاسوس بمثل هذه القدرة يُسرِّب الخطة تلو الخطة إلى الركساسيين دون أن يقع في خطأ واحد يفضح أفعاله الخبيثة . لكن قائد الجيوش كان في غنى عن خوض جدال عقيم سيضيع ليلته دون طائل .

– نعم أيها المستشار . ذاك ما أقض مضجعي .

دعاه المستشار للجلوس على مقعد جلدي صغير حول المائدة المربعة التي تحمل خارطة جبهة المعركة . أردف بتار وهو يتأمل ظل السراج المتراقص على الخارطة :

– كما تعلم أيها المستشار أن هزيمتنا ـ إن وقعت غداً ـ ستعني نهاية الإمبراطورية ، وسقوطها بالكامل تحت مُلك الركساسيين

الطغاة ، وستنتهي حقبة استمرت ستمائة عام ساد فيها العدل والخير والمحبة والمساواة ، وستبدأ حقبة جديدة يكتنفها السواد . ونحن نعلم يقيناً أطماع ملك ركساس الجشع . الذي يسعى للاستيلاء على الأراضي لا لهدف إلا لزيادة ثرائه وثراء أسرته .

أطرق المستشار لكلمات القائد التي هبطت عليها مشبعة بالكآبة وقال :

– أيضاً هذا هو السبب الذي أقامني لهذه الساعة يا بتار . . أعلم أن الأيام دُول . . وأنه سيأتي يوم ينتهي فيه حكم آل النعمان ، ويَعزُّ على رجل عُمِّر مثلي أن يرى سقوط دولة روى جذوعها السامقة بدمه ودم أبنائه . . خسارتنا غداً تعني شيئاً واحداً . . .

«– تعني فشلنا في حفظ الأمانة المناطة بأعناقنا . . »

التفتا إلى قائل الجملة الذي كان الوزير زيدون وهو يدلف من مدخل الخيمة . فدعاه عدنان للجلوس على مقعد شاغر حول الطاولة . جلس الوزير وهو يقول :

– أمة بأكملها الآن علقت آمالها وأحلامها على نصال سيوفنا . قد فوضونا لحماية حياتهم وأمنهم وملكهم وكرامتهم وعزتهم . كلهم ينامون الآن تجوس جفونهم أماني النصر واسترداد الأمن والسلام . أكاد أرى دعواتهم تعرج إلى السماء مكللة بالرجاء أن تظللنا السماء بحمايتها ، وأن تسبغ علينا نصرها وأن تربط على قلوبنا وتقذف الوهن في قلوب الأعداء الغاصبين . . كم من عذراء ترتعد الليلة وجلاً أن تستيقظ وعلى رأسها هيكل شبق يخطف ثمرة عفتها . هذه هي الأمانة الملقاة على عواتقنا يا رفاق . .

« أثقلتَ على الرجال بكلامك يا زيدون . . وعليّ أنا بالذات . . »

كان القائل هو الإمبراطور الذي دخل بدوره من باب الخيمة ، فهب له الرجال الثلاثة هيبة وتوقيراً ، وعرض عدنان الانتقال إلى خيمة الإمبراطور التي تليق بمقامه ، لكنه اتخذ مجلسه حول الطاولة داعياً الجمع للجلوس .

صمت الملك ملياً متأملاً تضاريس السهل الأبيض ، ثم قال :

- حدثني أبي أن هذا السهل كان دغلاً شائكاً تسكنه وحوش رهيبة مفترسة لا يجرؤ أشجع الفرسان على المرور به أو الاقتراب منه . تلك الوحوش استكانت لـمّا كان الدغل يجود عليها بالطرائد الكثيرة والأنعام المتنوعة ولم يفكروا في الخروج منه بحثاً عن التنوع أو التناسل . فهاجمتهم وحوش أخرى من الأدغال المجاورة طمعاً في الخير المتدفق لديهم . فاحتدمت المعارك بين الوحوش ، وعاث الفساد في أرض الدغل الخصبة ، وانتشر الوباء من كثرة الجثث المتعفنة ، وفرّت الطرائد والطيور والأنعام نجاةً بحياتها ، وأصاب الدغل الجدب سنين متطاولة حتى أمسى غابة مهجورة فَتَك بها التصحر .

ثم لما وحد أجدادي البلاد ، هطلت على السهل أمطار غزيرة بعثت الحياة في تربته الخصبة ، فأتى سكان الأقاليم المجاورة إليه وزرعوه بالقمح والذرة والشعير ، وأسسوا مدينة سيسليا بالقرب من النهر الأبيض . فأصبح هذا السهل أكبر مورد للغذاء في جميع أنحاء الإمبراطورية . . ولذلك أسموه (السهل الأبيض) .

كان الرجال يعرفون هذه القصة جيداً ، لكنهم لم يكونوا يعرفون المغزى من وراء ذكرها في هذه الساعة ، وما هو ربطها بالأحداث الجارية ، وكأن الملك أدرك ذلك من تعابير وجوههم وحجمهم عن التعليق ، فأردف موضحاً :

- يقولون : إن الحياة سلسلة تدور فيها الأحداث بنسق ثابت . . وأخشى . . .

قاطعه الوزير زيدون بحدة :

- وكأن سموكم يعرض باحتمالية خسارتنا لمعركة الغد ؟

التفت إليه عدنان وبتار دهشة لجرأته على الإمبراطور الذي قال :

- هذا احتمال وارد ولا شك يا زيدون .

- إذن لماذا خرجت معنا يا مولاي وأنت تعلم أن حُمام الموت مصيرنا ؟

سكت الملك لا يجد جواباً ، وتبادل الرجلان العتيدان نظرات الحرج من جرأة الوزير التي كانت مستمدة من الصداقة والمصاهرة ، وحاول بتار قول كلام يخفف فيه الوطأة على الإمبراطور ، لكن الوزير لم يتح له المجال وقال :

- إنها الحرارة . . حرارة الأمل التي جاءت بك لتستدفئ بها من زمهرير الذل المتربص بملكك وملك آبائك .

هتف عدنان بخشونة :

- جاوزت الحد يا زيدون . . تأدب في خطابك مع جلالة الإمبراطور .

لكن الملك أسكته بإشارة من يده ، داعياً الوزير لاستكمال حديثه . . قال زيدون :

- ذات الأمل الذي حداك للخروج هو الذي حدانا للخروج خلفك حاملين أرواحنا على أسنة رماحنا ، ليس دفاعاً عن مُلكك فحسب ، بل دفاعاً عن أرضنا وأعراضنا وكرامتنا ومستقبل الأجيال القادمة . . لن نسمح يا مولاي على الإطلاق أن يأتي أبناؤنا

وأحفادنا ـ وإن رزحوا تحت هوان الاحتلال الركساسي ـ أن يلعنوننا لتفريطنا في ديارهم دون قتال . . دون دم يراق ورؤوس تتطاير . .

مولاي . . دواوين التاريخ قد أشرعت . . وأقلامه أشد مُضياً من السيوف المصلتة . . لا يعرف الرحمة ولا الشفقة . . وموت الأبطال . . أحب إلينا من حياة الأنذال . .

تلك كانت مشاعرهم جميعاً وإن لم يجيدوا لمّ شعثها في كلمات مؤثرة كما فعل خطيب مُفوّه وسياسي محنك كالوزير زيدون . .

نفض بتار رماد الحوار المؤثر بقوله :

– جلالتكم . . قصدت المستشار الليلة لأراجع مع سعادته خطة معركة الغد علّنا نستدرك ثغرة قبل فوات الأوان .

– نِعم الرأي يا قائد الجيوش ، أنا معكم أذن مصغية .

وقف بتار ليشرح خطته مستعيناً بالخارطة :

– جلالتكم . . لا يخفى على شريف علمكم احتمالية تسرب الخطة إلى الجيش الركساسي عن طريق الجاسوس . . .

قاطعه عدنان :

– الذي فشلت كل التحريات في الكشف عن وجوده . .

تجاهل بتار إنشاء جدال حول هذا الموضوع مكملاً :

– لذلك حرصنا على إعداد خطة محكمة تقلب ميزان القوة المائل نحو خصومنا ونعيده إلى كفتنا . .

وبدأ بالإشارة إلى تضاريس المنطقة على الخارطة :

– السهل يا مولاي منطقة مفتوحة يحيطها جنوباً الغابة البيضاء التي تفصلنا عن سيسيليا . شرقاً تلال أوكاس ، شمالاً

النهر الأبيض . . سيكون ظَهر جيشنا محمياً بالغابات ، فيما سيكون ظهر العدو إلى جنوب النهر . .

خطتنا تهدف إلى إفقاد العدو أكبر مقومات انتصاره وهي تفوقه العددي علينا ، فكما تعلمون أن الجيش الركساسي يبلغ تعداده ستين ألفاً ، فيما أن جيشنا لا يتجاوز خمساً وأربعين ألفاً ، لذا فكرنا بإرسال قوتين تلتفان حول الجيش الركساسي وتباغته من المؤخرة ، فأرسلنا فيلقاً مكوناً من خمسة آلاف فارس بقيادة الضابط (الغُريَر) ليلتف حول تلال أوكاس ويباغت العدو بعد ثلاثة أيام نكون قد سحبناهم فيها إلى منتصف السهل . وتحسباً لانكشاف الخطة أرسلنا فيلقاً آخر تعداده خمسة آلاف أخرى بقيادة فهد ليهبط ليلاً من النهر ويباغت العدو أيضاً فيصبحوا بين نيراننا من جميع الجهات فلا يجدوا مهرباً من الموت بأسيافنا أو غرقاً في النهر .

أومأ الإمبراطور برأسه برضا قبل أن يستفسر بقوله :

– وما هي التدابير التي اتخذتموها لعدم انكشاف الخطة ؟

قال بتار :

– فيلق أوكاس أرسلناهم بأوامر أحطناها بالسرية التامة ليتجهوا صوب سلطنة ناقار كي يحتلوها تحسباً لانكسار جيشنا وسقوط سيسليا في أيديهم ، وإعداد الجزيرة لتكون مأوى للأسرة الإمبراطورية ومنطلقاً لجيشنا بعد الانكسار . وبعد يومين من مسير الفيلق أرسلنا في إثره فارساً نثق به وهو القائد غضنفر برسالة مختومة هو لا يعلم فحواها ليسلمها للغرير تحوي تفاصيل الخطة وساعة الصفر .

أما فيلق النهر فأرسلناهم غرباً صوب فرايدن كي يقوموا بإخماد ثورة وهمية أشعنا في سيسليا حصولها . وبعد يوم من انطلاقهم

أرسلنا خلفهم القائد جوّاس بن المستشار عدنان يحمل رسالة مختومة فيها تفاصيل الخطة ، موضحين فيها ضرورة شراء سفن كافية والتوجه مع تيار النهر إلى شرق السهل والنزول ليلاً حتى لا يكشفهم النهار ، والهجوم بعد زوال الشمس في اليوم الثالث .

قال المستشار بحدة :

– على الورق الخطة محكمة . . لكن الواقع شيء آخر . . ما زلت متحفظاً من تقسيم جيشنا بهذه الطريقة التي ستكسب العدو تفوقاً عددياً يبلغ الضعف . . فضلاً على أنهم يفوقوننا حتى في العدة . . ماذا لو بادروا باستخدام مدرعاتهم؟ لا أعتقد أننا سنصمد أمامهم نهاراً واحداً .

قال زيدون :

– هدئ من روعك أيها المستشار . . هذا جيش قد تملّكه الغرور بسبب انتصاراته السهلة المتلاحقة ، فيما أن جيشنا يقاتل باستماتة للدفاع عن آخر معاقله ، ولن نفرط فيها وفي عروقنا قطرة دم ساخنة تجري . كما أنهم لن يستعجلوا باستخدام أقوى أسلحتهم من الجولة الأولى ، بل سيؤخرونها لاختبار قوة وجلد جيشنا ، وهنا تظهر حنكة وحسن تدبير قائدنا الذي يجب أن يستشعر ذلك فيشد ويرخي حسب ما تقتضيه ظروف المعركة انتظاراً لوصول فيلقيْ الكمين . .

قال بتار بحماس :

– روحي وكل ما أملك لمولاي فداء . .

قال المستشار :

– غداً يوم الملحمة . . فلتبارك السماء جهودنا . .

وقف الإمبراطور قائلاً :

– إذن يجب علينا جميعاً أن نحظى بقسط من النوم نتقوى به على مجهود الغد . .

وانفض المجلس . . وخرج كلٌ إلى خيمته . . وبحث بتار عن البدر في السماء فألفاه محجوباً بركام من السحب . . فتساءل في نفسه : «متى يسفر عتم الأوان عن ضوء الحقيقة؟»

ومع انصرام فتيل الليل استيقظ الجنود من الطرفين . . تناولوا إفطارهم على عجل توقاً للقاء العدو . . كعك محلى وفاكهة وحبوب منتقاة بعناية لتمدهم بالطاقة . جمع الجند عتادهم ومؤنهم وانطلقوا إلى فرقهم . .

كانت الرهبة تسود القلوب وتغزو الأطراف . . شعور رهيب يكتنف النفوس حينما تقبل على الموت . . لحظات قليلة ويُكشف الستار عن مسرحية مخضبة سطورها بالدماء . .

جعل بتار على ميمنة الجيش قائداً يدعى غيّاث ، وعلى الميسرة جرفاس الفافالي ، وعلى المؤخرة القائد الحجاج . . فيما قاد هو المقدمة . . وسلم رايتها لنائبه على الجيش هاشم بن عدنان وهي أكبر الرايات ، ومع كل فرقة راية أصغر منها تجمعهم .

وخلف المؤخرة كان صوان الملك يرافقه فيه عدنان وزيدون تحميهم فرقة من أشد فرق الحرس الإمبراطوري .

وبعد أن انتهت تسوية الصفوف تناهى إليهم صوت موسيقى الحرب من قبل الجيش الركساسي . . تلك الموسيقى المرعبة التي سبقت كل فجائعهم السابقة ، فتفشت الرهبة بين الصفوف ، وازداد التوتر وبدا ملحوظاً على وجوه الكثير من جنود المقدمة . فانطلق بتار بجواده أمام الجنود بسرعة رهيبة جعلت دثاره الطويل الذي يحمل شعار الإمبراطورية وشارة القيادة يرفف لامعاً تحت وهج شمس

الصباح الفتية . كان يروز الوجوه بملامحه الجامدة الطافحة بالعزم والإصرار . توقف في مكان اجتهد ليكون المنتصف بين جنود المقدمة وهتف بصوت جهوري :

– يا أبناء أركاديا الأوفياء . . يا مزيجاً من أرضها الخضراء وسمائها الزرقاء وأنهارها العذبة البيضاء النقية . . يا طهر الأرض وبركة السماء وحلاوة الأنهار . . يا من تربيتم على العزة ونشأتم على الكرامة . . يا من تأنفون الذل وتأبون الهوان . . اليوم . . لا أستجديكم الاستبسال . . فأنتم من منح الاستبسال معناه . . (وأشار بحربته إلى الصفوف الركساسية) . . أترون أولئك الأوغاد . . جاءوا يحملون لكم هدايا . . جاؤوا يحملون لكم سرابيل الاستعباد . . ليعودوا بكم إلى جبالهم القذرة عبيداً تغسلون المراحيض . . . أترضون أن تكونوا كذلك ؟

هتف بعض الجنود :

– الموت أحب إلينا من ذلك . .

فهتف :

– اليوم هي فرصتنا الأخيرة . . فرصتنا الوحيدة . . لنثبت لأولئك الرعاع أننا نحن السادة . . وأن أركاديا لا تنجب إلا الرجال . . وأننا سنختار أقدارنا بسيوفنا . .

ثم رفع صوته ما استطاع :

– عاشت أركاديا . . عاش الإمبراطور . .

ردد الجنود هتافه بحماسة وراحوا يسبون الركساسين بأقذع الشتائم . . لقد ارتفعت معنوياتهم بارتفاع معنويات قائدهم . . لقد كان بتار يُعوّل كثيراً على معنويات الرجال كي يسد النقص الحاصل في الصفوف . .

حتى أولئك الذين لم يصل إليهم صوته تحمسوا لرؤيته متحدثاً ، يتمختر على جواده الأصيل ، ملوحاً بحربته المشرشرة التي أصلت الركساسيين نيران الجحيم ونُسجت حولها الكثير من الأساطير . .

مـال هاشم إلى بتار وهما يقفان متجاورين في الصف وقال له :

- ما رأيك أن نستغل علو معنويات رجالنا بطلب المبارزة ؟

هز بتار رأسه استحساناً للفكرة ، واستدعى أحد الفرسان الأشداء وقال له :

- اذهب يا دَوْسَر واطلب المبارزة . . حاول أن تطيح بخصمك بأسرع ما تستطيع .

تقدم دوسر بهيكله الضخم ، رافع الرأس منصوب الجذع ، يخب بحصانه متبختراً إلى منتصف المسافة ، ورفع صوته الأجش ما استطاع ليبلغ الصفوف الركساسية :

- أنا الضابط دوسر من الجيش الأركادي . . أطلب المبارزة . . هل من رجل في الجيش الركساسي يستطيع الخروج للقائي ؟

كان دوسر من خيرة الفرسان ، دربه بتار فأحسن تدريبه ، واصطحبه معه في غزوات كثيرة . كان يثق تمام الثقة أنه قادر على هزيمة أربعة أو خمسة فرسان ركساسين ، مما سيرفع من معنوية الأركاديين ، ويحط من معنويات خصومهم .

لم يجب دوسر أحد من الركساسين ، فعاد ليهتف ساخراً ما استطاع :

- كنت أعلم أنه لا رجال بين الصفوف الركساسية . إذن هلموا بامرأة تسليني حتى تبدأ المعركة .

سمع حينها تغير صوت الموسيقى الركساسية ، ورأى الرماة

يتقدمون ويأخذون مواقعهم ، والتفت إلى جيشه ليرى بتار يهتف بأعلى صوته :

– تراجع يا دوسر . . سيرمونك بالسهام . .

واندفعت السهام الركساسية من أوتار القسيّ كالصواعق من السماء ، وحاول دوسر اتقائها بترسه ، لكنها أصابت حصانه فجفل مسقطاً إياه أرضاً ، فانهمرت السهام على جسده المكشوف ، وارتفعت روحه إلى السماء كأول ضحية في هذه الموقعة الرهيبة . .

صاح هاشم بغضب :

– الأوغاد . . أي دناءة هذه فيهم ليقتلوا فارساً تقدم لطلب المبارزة؟!

قال له بتار :

– تمالك أعصابك يا هاشم . . فعلوا ذلك ليخرجوننا من حالة التماسك التي رأونا عليها هذا الصباح . . اهدأ واستعد بترسك فسيمطروننا بالسهام الآن ولا ريب . .

وبالفعل . . ألقم الركساسيون قسيهم بالسهام متخذين الوضعيات والزوايا المطلوبة لإصابة الصفوف الأركادية ، ومع سماع الإشارة انطلقت سهامهم تشق الهواء عالياً ، قبل أن تهوي على الجنود الأركاديين ، الذين تستروا بتروسهم المنيعة ، فلم يصب منهم أحد إلا القليل إصابات طفيفة .

وعاود الركساسيون الكرة مراراً وتكراراً دون رد من الأركاديين ، فقال هاشم لبتار :

– لماذا لا نرد عليهم يا سيدي ؟

أجابه بتار :

– دعهم يفرغون ما في جعبتهم . . هم المهاجمون لذا ننتظر خطوتهم الأولى . .

وهو في الحقيقة كان يسعى لكسب المزيد من الوقت وإيهان عزائم الركساسين .

تغيرت موسيقى الحرب لدى الركساسيين ، فتراجع الرماة خلف الصفوف ، وتقدم الخيالة متخذين تشكيلاتهم ، ثم انطلقوا مع سماع إشارة قائدهم . . ومن مخيمه المطل على ساحة المعركة هتف الإمبراطور النعمان :

– لقد بدأ الركساسيون بالزحف . .

قال عدنان باستغراب :

– من الغريب أن يبدأ شاكان هجومه بالخيالة . . هذا تكتيك ضعيف للغاية . .

وافقه زيدون بقوله :

– صدقت أيها المستشار . . إما أن شاكان لا يقود الجيش بنفسه ، أو . . .

أكمل عدنان مقولة زيدون :

– أو أنهم يدبرون مكيدة ما . .

كذلك كانت تلك أفكار بتار الذي واتته الدهشة من هذا الهجوم الساذج ، لكنه لم يدع فرصة لنفسه ليستغرق في أفكاره ، بل بادر بإطلاق أوامره :

– هاشم . . الرماة . .

أطلق هاشم من بوقه نفيراً متقطعاً ، فاتخذ الرماة مواقعهم ، وجهزوا القسي بالسهام ، حتى إذا أصبح الفرسان في مدى رميهم هتف بتار :

- المجموعة الأولى : أطلقوا . .

وقبل أن تتلاشى آخر حروف هتافه انطلقت سهامهم تحصد الفرسان المتقدمين ، وتقلع بعض الفرسان عن السروج ، وتسقط بعض جيادهم ، ثم هتف بتار مرة أخرى :

- المجموعة الثانية : أطلقوا . .

وكذلك انطلقت السهام تخترق المهاجمين بضراوة ، ثم انطلق بتار هاتفاً :

- الخيالة يا هاشم . . ورائي . . .

فأطلق هاشم النفير الخاص بالخيالة ، وانطلق خلف قائده الشجاع ، الذي كان في طليعة الخيالة ، متشوقاً لهرس المعتدين بحربته الطويلة ، التي راح يطوح بها في سرعة خيالية لا تكاد تُرى يمنة ويسرة يحصد أرواح الجنود الركساسين ، وسرعان ما انضم له فرسان الخيالة ، يتقدمهم هاشم ، وفارس آخر على رأس فرسان ناناكروبا يدعى صفوان ، كان عملاقاً عريض المنكبين داكن البشرة كسائر أقرانه من أبناء القرية البحرية ، يقاتل بحربة طويلة عظيمة ، يطوح بها وكأنها لعبة صغيرة . استطاع أن يطير بها عدداً من الرؤوس ، وكان إذا أصاب ترس فارس أقامه من فرسه من شدة الضربة . . كذلك أيضاً كان نصار بن الوزير زيدون يقاتل بشراسة بالغة فاقت سنه الصغير ، كما برز أحد الضباط الأركاديين الشباب ويدعى سوّار قاتل بشراسة ، كان يقتحم الصفوف بحربته ذات الطرفين ويبارز على الجهتين ، أيضاً كان لدوسر ـ أول الضحايا ـ شقيقان أصغران يدعيان هندس وخبور فقدا والدهما محارباً في معركة غلوريا ، لذا كان الفارسان اليافعان يقاتلان بضراوة انتقاماً لوالدهما ولشقيقهما الأكبر . . . وغيرهم من الفرسان . . كانوا

جميعاً بلا استثناء يبحثون في دماء الركساسين عن الانتقام . . عن الثأر . . عن آلاف الرجال الذي قتلوا غدراً . . ومئات السبايا اللواتي اغتصبن هدراً . . عن البيوت التي هدمت ، والمزارع التي حرقت ، والمدن التي استبيحت . .

كان رشاش الدم الساخن على وجوههم يذكي رغبتهم في القتال ، يؤجج فيهم الرغبة في الانتقام . . كانت الدماء الطازجة ساخنة كاللهيب . . وهذه الحرارة لا يطفئها إلا مزيداً من الجحيم . . تناسوا آلام الجروح . . تشاغلوا عن الخدر الساري في قبضاتهم . . لم يفكروا في الدماء النازفة من أجسادهم . . ضاعفوا من سرعتهم ، وراحوا يجتزون الرؤوس بلا رحمة ، ومالت سريعاً كفة القتال للأركاديين ، وظهر جلياً تفوق فرسانهم على خصومهم . . لم يسقط من الأركاديين إلا أربعة فرسان ، فيما تجاوزت خسائر الركساسين الخمسين فارساً . .

لقد فعل الأركاديون الأعاجيب بالموجة الأولى من خيالة ركساس ، كانوا متعطشين لسفك دمائهم ، وقد فعلوا . . وتفشى التفاؤل بين صفوفهم حتى أن الملك قال لرفيقيه بجذل :

– نحن ننتصر يا رجال . . بهذه الطريقة لن يصمدوا أمامنا حتى الأصيل . .

لم يشأ عدنان أن يحط من فرحة الإمبراطور ، لذلك أساءته مقولة زيدون :

– اصبر يا مولاي . . هذه الموجة الأولى من فرسان ركساس . . مدرعاتهم لا تزال رابضة خلف الصفوف . .

كان الإمبراطور يعلم ماذا تعني مدرعات ركساس . . سمع عن قوتها التدميرية الهائلة في المعركة . . كان يعلم أن الجيش الأركادي

لم يستطع أن يتصدى لها في أي غزوة سابقة ، ولم يستطيعوا إسقاط ولا مدرعة واحدة . . لذا لاذ الإمبراطور بالصمت ، واكتفى بالمراقبة . .

في الساحة كان بتار يقاتل كابحاً نفسه عن الانسياق خلف الحماس الناجم من الانتصار السريع الذي حققه فرسانه ، كان يقاتل مُرعياً بصره وفكره للمعركة تحسباً لأي حركة يقوم بها الغزاة فيتخذ لها رداً مناسباً ، كان يتابع رجاله بعيني الرضا . . كلهم بلا استثناء حازوا على إعجابه . . صحيح أنه أشرف على تدريبهم كلهم ، لكن هذه المعركة أظهرت معادنهم الأصيلة التي خرجت من قلب أرض أركاديا . . حتى صفوان المحارب النناكروبي حاز على إعجابه ، كان يعتقد أن الجنوبيين سيخيبون أمله في المعركة ، أو يقدموا على أمر مكروه كالانسحاب أو حتى الغدر . . لكن أن يرى قائدهم صفوان يتقدم الصفوف ومعه خيرة من الرجال يكسرون أمواج العدو بسواعدهم المصقولة بشمس الجنوب . . ذاك الذي لم يتوقعه . .

تناهى إلى سمعه تغير موسيقى الحرب الركساسية ، ورأى المشاة يتحركون متقدمين إلى الجبهة في صفوف متتالية ، فهتف إلى هاشم :

– المشاة يا هاشم . .

أطلق هاشم من بوقه النفير الخاص بالمشاة ، فتقدموا فوراً بسيوفهم ورماحهم ، والتحموا بمشاة الركساس . . واستطاعوا أن يوقفوا تقدمهم ، بل وحملوهم على التراجع شيئاً فشيئاً . . وأمر بتار الجناحان بإحاطة الغزاة بشكل نصف دائرة ، وضربهم بلا رحمة أو شفقة ، فانبرى قائدا الجناحان غيّاث وجرفاس لتنفيذ الأمر ،

وأجبروا جانحي الجيش الركساسي على التقهقر حتى نجحت خطة بتار ، وراحوا يكيلون الضربات في الجنود المحاصرين بلا هوادة ، فتساقط منهم المئات ، فاضطر قائد الركساسيين أن يرسل الموجة الثانية من الفرسان المدرعين من الجانبين ليلتفوا حول مؤخرة الجيش ، لكن بتار كان يقظاً ، فأرسل تعليماته للجناحين بالانفراد ، ومعاودة الضغط بعد محاصرة الخيالة الركساسين . .

كان معركة رهيبة ، وملحمة عظيمة . . ارتوت الأرض اليابسة بالدماء ، وشهدت الشمس العالية تسابق الأرواح صعوداً للسماء . .

وحين اقتربت الشمس من الأفول انفض الجمعان ، عاد كل جيش إلى معسكره حاملاً جثث القتلى والجرحى ، فتلقتهم النساء المتطوعات بزغاريد الفرح والأناشيد ، قبل أن يقدمن العناية اللازمة بالجرحى .

وفي المعسكر راح العبيد يوزعون حصص الطعام على الجنود ، المكون من اللحوم والأسماك والخبز والزيتون والفاكهة والحلوى ، وجبة غنية تكفل استعادة القوة للجنود المنهكين .

كانت النشوة التي سببتها غلبة اليوم شعوراً متفشياً بين الجميع ، يمنين أنفسهم بهروب الركساسيين ليلاً خوفاً من معركة فاصلة بعد انبلاج الشمس ، وتراهن بعض الجنود على أن أصيل الغد هو موعد نهاية المعركة .

بتار زار الجنود المصابين لمواساتهم ورفع معنوياتهم ، والتأكد من قدرتهم على مواصلة القتال في الغد ، كما تفقد القتلى من رجاله ، وأوصى العبيد بدفنهم في لباسهم الحربي تكريماً لهم .

وبعد أن انتهى من جولته التقط شطيرة لحم ناوله إياها نائبه هاشم بن عدنان قائلاً :

– ما هي الإحصائيات يا هاشم ؟

– مائة من الشهداء ، وضعفهم من الجرحى ، ثلثهم قادرون على مواصلة القتال غداً .

لاك قطعة من الشطيرة وهو يقول :

– وإحصائيات العدو ؟

– أكثر من ثمانمائة قتيل والجرحى قد يتجاوزن الألف . . لقد أثخنا فيهم ضرباً أيها القائد .

لم تبدُ السعادة على وجه بتار وهو يأتي على شطيرته ، فقال هاشم متسائلا :

– ما الخطب يا سيدي؟ ظننتها أخباراً سعيدة .

قال بتار :

– منذ أن نزل الركساسيون أرضنا لم نصب منهم ما أصبنا هذه اليوم . . ألا تعتقد أن هذا شيء غريب يا هاشم ؟

– وفيمَ الغرابة يا سيدي ؟!! رجالنا يقاتلون باستماتة ذوداً عن آخر معاقلنا . .

أومأ بتار برأسه موافقاً وإن لم تعبر ملامحه عن ذلك وقال :

– أرجو أن يكون كلامك صحيحاً . . مُر الرجال بالنوم فور انتهائهم من العشاء وعاقب من يخالف الأمر .

– أمرك سيدي .

وانبرى لأداء الأمر ، فيما توجه بتار لخيمته لينام ، وحين هم بولوجها ؛ رأى بومة بيضاء تحلق في الأفق . . فاغتم لمرآها كثيراً . .

وفي صبيحة اليوم التالي عاد الأركاديون للسيطرة على أرض المعركة ، كانت سيوفهم تفري في صفوف الركساسين بلا رحمة ، أثبت الضباط كفاءتهم العالية بتأدية بنود الخطة بمهارة ودقة

بالغتين ، كما برز مجدداً - وبقوة - القائد الجنوبي العملاق صفوان ، فبحربته العظيمة راح يفصل الرؤوس ويشطر الأجساد بقوة وشجاعة نادرة النظير ، حتى أنه أصبح حديث المعسكر الأركادي ، وأثنى عليه الملك ومستشاريَه أيما ثناء .

قبيل الغروب عاد الجنود إلى معسكرهم ، يتبادلون التهاني لما حققوه من انتصار بالغ في جولة اليوم . تجاوز عدد القتلى في صفوف الركساسيين الألف بقليل ، فيما لم تبلغ خسائر الأركاديين المائة . تنبؤوا بانتصار بالغ في الصبيحة التالية .

وبينما كان يتناول بتار عشاءه جاءه نبأ وصول رسول من القائد غضنفر فقام مسرعاً لملاقاته ، تلقى منه رسالة مختومة فضّها بلهفة والتهم حروفها . . كانت الرسالة تخبره بوصول الكتيبة إلى الوادي خلف تلال أوكاس ، وأنهم سيغيرون على مؤخرة جيش العدو ضحى كما هو مخطط بالضبط .

سُرّ بذلك بتار غاية السرور ، وانطلق لنقل الخبر السارّ إلى الملك والمستشارَين ، لكن في الطريق قابله رسول آخر قادم من قبل القائد فهد ، فقرأ الرسالة بلهفة لا تقل عن الأولى ، علم منها أن الأسطول على مسيرة نصف يوم من المكان المحدد للنزول ، وأنهم يسيرون حسب المخطط .

زفّ القائد الأخبار السعيدة إلى إيوان الإمبراطور ، الذي أبى إلا الاحتفال بفتح إحدى القناني المعتقة من النبيذ الأركادي الفاخر ، التي لا تُفتح إلا في الاحتفالات الكبرى كيوم الجلوس أو يوم الميلاد أو ذكرى توحيد الإمبراطورية .

ترع بتار كأسه على عجل ، واستأذن للاجتماع بقادة جيشه ، حيث دعاهم لخيمته على الفور .

بدأ بتلاوة الأخبار السعيدة شارحاً لهم المهم من تفاصيل الخطة التي لم يكونوا يعرفونها قبل الآن . فتلقوها بسعادة وغبطة . . قال قائد الميمنة غياث :

– أخيراً سننتقم لهزائمنا . .

وقال الحجاج قائد المؤخرة :

– غداً نضع حداً لأطماعهم الدنيئة . .

قال جرفاس قائد الميسرة منتشياً بالخبر :

– وإن لم نكن بحاجة للكمين . .

وراحوا يعبرون عن سعادتهم بالخبر كل بطريقته إلا صفوان قائد النانا كروبين ظل صامتاً واجماً . قال بتار قاطعاً لَغَطَهم :

– أول أمر أؤكد عليه عدم إخراج هذه الأخبار خارج هذه الخيمة ، لا نريد أن نفقد زمام المفاجئة . فإن وصلت الأخبار للعدو بأي طريقة سنخسر خسارة رهيبة .

خطتي هي على الوجه التالي ، وأرحب بآرائكم عليها : غداً لن نحمل على العدو بكامل ثقلنا حتى نسحبهم إلى منتصف السهل . كما سنسعى لإراحة أكبر قدر من جنودنا ، وكل ساعة سيبدل القادة بين صفوف القوات ، فيريحون الصفوف المقاتلة ، ويدفعون بالصفوف المرتاحة حتى نجهد الخصم . وعندما يصل القائد غضنفر بجنود الكمين الأول ، سيطلق القائد هاشم نفيرين طويلين كإشارة للهجوم المكثف بكامل القوة .

هتف هاشم بحماسة :

– وبذلك نفنيهم عن بكرة أبيهم .

ضرب جرفاس الطاولة بقبضته وهو يهتف بنشوة ، فاندلق كوب الماء من أمام بتار فأقامه قائلاً :

- هزيمتهم غداً لا تعني انتصارنا في معركة السهل الأبيض فحسب ؛ بل وانتصارنا في الحرب كلها . . سنستعيد أراضينا من براثنهم القذرة ، ونرسم البسمات على وجوه شعبنا الذليل ، وسيبدد شعاع النصر دلجة الذل والهوان ، وسنعود إلى عاصمتنا غلوريا محملين بأكاليل الغار ، لنرصع بها جباه شعبها الأبي . .

ووقف لينهي الاجتماع مؤكداً مرة أخرى ضرورة كتم أنباء الكمين .

حين أوى لفراشه تذكر صمت ووجوم صفوان لدى سماعه الخبر ، فراحت الشياطين تبث في أذنيه الوساوس ، فقام متدثراً بردائه قاصداً خيمة صفوان ، حيث وجده جالساً في ضوء مصباح صغير على باب الخيمة يشحذ نصل حربته العظيمة . اقترب منه بتار حتى لامس بقدمه ظل رأسه فلم يبدُ أن المحارب العتيد انتبه لوصوله لولا أن قال :

- ما الخطب أيها القائد ؟

أثارته رعونة صفوان لكنه تجاوز ذلك بقوله :

- بدوت واجماً على عكس ما ينبغي أثناء تلقي أخبار سعيدة كالتي أخبرتكم .

قال صفوان :

- لعله حدسٌ أصابني لم أرد أن أُفسد به صفوكم . .

- أتشك في انتصارنا غداً يا صفوان ؟

ركز صفوان رمحه على الخيمة وهو يقول :

- نعم أيها القائد . . لن تنتصروا غداً . .

بهتت صراحة صفوان البالغة وجه بتار ، لكنه أخفاها بقوله :

- لماذا هذا التشاؤم وكل الدلالات تشير لنصرنا غداً ؟

– هي ذاتها التي تدعوني للتشاؤم . .

قالها أيضاً دون أن ينظر للقائد أو يدعوه للجلوس ، فثار غضب بتار حتى لم يعد قادراً على ضبطه فقال بحدة :

– كلامك هذا يدل على حقدك البالغ تجاه الإمبراطور رغم كل ما فعله من أجلك وأجل شعبك .

ظهر شبح ابتسامة على طرف شفتي صفوان وهو يستمع لكلام بتار قبل أن يقول :

– إمبراطوركم هذا أبقه تحت ناظريك ، فغداً قد تنهش الغربان لحمه . .

استل بتار سيفه بسرعة خرافية وصوب نصله إلى عنق صفوان ، في الوقت الذي هبت فيه نسمة شمالية قوية أسقطت الحربة أرضاً ورفرف لها دثار بتار . . قال :

– إن أصاب جلالته مكروه فسأبتر عنقك أيها الوغد . .

قال صفوان بسخرية :

– وجّهْ سيفك للأعداء أيها القائد ، فبرغم اختلافاتنا إلا أنني أركادي مثلك ، ولن أخون عهداً قطعته في حياتي . .

قال بتار بحدة :

– إذن لماذا لا تفصح عن مخاوفك ؟

– ليس لدي شيء أقوله يا سيدي . . الغد يحمل الإجابة لي ولك . .

وأبعد ذؤابة السيف بيده ، والتقط الحربة وركزها بقوة على الأرض ، وهم بدخول خيمته قائلاً :

– والآن اعذرني يا سيدي . . فأنا بحاجة إلى قسط من النوم . . فغداً . . سيكون يوماً طويلاً . .

وفي طريقه لخيمته عرج بتار على هاشم ، وطلب منه مراقبة صفوان جيداً ، وألا يدعه هو وكتيبته من الاقتراب من جلالة الإمبراطور . .

وحين ولج إلى خيمته وهمّ بإطفاء السراج ؛ لمح فراشة جميلة تطوف حول اللهب التماساً للدفء المتصاعد ، لكن . . وفي غمرة رقصها المحموم ؛ اصطدم جناحها بالزجاجة فانكسر ، وسقطت أرضاً تنتفض . . فاستلقى بتار على الفراش وهمه على صدره كالجبال . .

***

## الفصل الثالث:
## بوم.. وغربان.. وضباع.. وبقايا مجد

جـمـيل أن يعلو الأمل في الأفق فـتـرتفع له العـيـون عطشى لشـربة . . أو رشـفـة . . أو قطرة منه تبـدد لظى اليأس الذي يحيق ببيادر الأحلام . .

جميل أن النفوس الأبية تُعلق رجاءها بالسماء وما ينزل منها ، وألا تركن للأرض والخبث الخارج منها . .

جـمـيل أن ترى الرجال الأشاوس يريقون أرواحهم في بساتين الأيام ريّاً لبذور الأمل حتى تعلو وتسمق ، وتظلل بأغصانها الوارفة مستقبل الأجيال القادمة . .

جميل أن تكون السيوف المتعانقة رمزاً لعهود قادمة من السلام والمحبة ، فبدون السيف لا يستقيم السلام ، ولا يتبدد الخوف ، ولا يستقر الأمان ، ولا يرعوي ظالم ، ولا ينتصر مظلوم . . كما كان يردد أبي دائماً . .

لكن القـبـيح . . والشنيع . . هو أن تُسكب الدمـاء لِقاء طيف كـاذب . . أو سـراب خـدّاع . . أو نداءٍ مُلتبس . . فـتكتشف الروح المحلقـة إلى مسـتـقر الأرواح . . أنهـا تعـرضت لخدعة دنيئة ، وأن تضحياتها كانت خطأً جسيماً سيبقى وصمةً في التاريخ . . وإن لم تكن تقصد . . قال أبي : كم من خير أراده فاعله فكان نحساً ووبالاً عليه . . وعلى أجيال . . وأمم . .

تلك المعركة كانت شامة في جبين التاريخ . . سيظل السهل الأبيض طويلاً يتذكرها جيداً . . تتناقل مناقير الطيور التي تعبره أحداثها . . تنقش قطرات المطر الساهمة على جبين الأديم أسرارها . . تصف وشوشات الرياح المسافرة التي تضمخت بأغصان أشجاره أسرارها وأخبارها . . تضج زهوره النائمة فزعة من ذكرياتها العالقة ببتلاتها . . تستفيق الأشجار الخالدة من سباتها الأبدي من هول ذكرى قعقعة السيوف ، وطنين السهام ، وهوي الأجساد ، وتدحرج الرؤوس ، وصرخات الألم ، وابتهالات النصر ، ونحيب الهزيمة ، وفحيح الموت . .

سترون في الصفحات القادمة ما أعنيه جيداً . . ظل أبي ردحاً من الزمن يصف لي المعركة ، ويحلل لي وقائعها ، مستنبطاً منها الدروس والعبر ، فما زلت أذكر الكثير مما قال . . ونسيت الأكثر بسبب العمر وتوالي الأحداث . .

في سيسليا كان القلق يمور بالسكان . كانت النفوس تغلي انتظاراً لأخبار المعركة . . دأب الغلمان على الخروج صباحاً إلى أن ينفرهم حر الشمس التماساً لخبر ينقلونه إلى الآذان المشتاقة عسى أن يخفف عليهم وطأة الانتظار ، وينالون به حلوان البشرى . .

حتى حمزة بن البتار كان يخرج على ظهر جواده الأبيض رفقة ابن عمه عامر بن الغضنفر يرتقيان هضبة عالية لينكشف لهما الأفق ، يجوس بصرهما الأرجاء علّ شاهداً صغيراً أو كبيراً ينبئهما عن حال المعركة . . كان الغلام الصغير يعوّل على أبيه كثيراً . . يؤمن أن أباه خلق لينتصر . . وأن الهزائم الكثيرة التي حاقت بالجيش ما هي إلا حلقة ضاقت وضاقت ومصيرها الانفراج . . علمه أبوه أن الهزيمة هي أم الانتصار . . وأن الفارس

المنتصر لن يكون كذلك حتى يذوق طعم الهزيمة المرّ . . لأنه بعدها سيسعى جاهداً لصون لسانه من تكرار التجربة المريرة .

صورة بتار في عينيه وعيون الأركاديين جميعاً كانت مرادفة للانتصار . . قرينة للقوة والعزيمة . . كانوا متيقنين أن جيشاً يقوده هذا الفارس العتيد لا يمكن أن يُهزم . . وإن كانت الهزائم السابقة قد هزت الصورة قليلاً ، لكن كثيراً منهم عزّى نفسه المصدومة بتبريرات كثيرة خلاصتها أن تلك المواجهات كانت أقرب لكونها مناوشات من أن تكون مواجهة حقيقية بين جيشين متكافئين . .

كانوا على قناعة تامة بأن هذه المعركة هي الفيصل بين الجيشين ، وأن النصال الأركادية ستفري حثالة الجبال الركساسية . . لم تكن الهزيمة لِتَرد على أذهانهم الناضحة بالتفاؤل . . خصوصاً أن الإمبراطور النعمان كان على طليعة الجيش . .

كان خروج الإمبراطور له أثر مقارب لأثر قيادة بتار للجيش . . فلم يكن على الإطلاق تصور هزيمة جيش يقوده فارس كبتار . . وفي طليعته إمبراطور كالنعمان . .

لذلك كانوا ـ بالجملة ـ منتظرين عودة الجيش بتباشير النصر . . كانوا يستعدون لنفض غبار القلق عن نفوسهم المفطورة على التفاؤل . .

كان شروق الشمس يعني لهم يوم عز يولد من رحم المعاناة ، وأفولها يعني قرب انبلاج نصر تزفه لهم الشمس الفتية . .

عامر أيضاً كان يعول على أبيه كثيراً . . كان يراه على الدوام على يمين عمه بتار قائد الجيوش ، يعلم بأسه وإصراره وقوة شكيمته ، رغم فظاظة في الخلق يشاطر بها شقيقه فهد . . كان

الشقيقان القويان في طفولتهما الفقيرة متعرضين للسخرية والأذية في أزقة قرية نيروديس القاسية حيث كان أبوهم يعمل فلاحاً في أرض أحد الإقطاعيين . فعلمتهم الحياة أن البقاء لا يكون إلا للأقوى ، لذا كان الشقيقان يُغيران على أترابهما بالضرب رغبة في إثبات قوتهما وإقران اسمهما بالقوة والسطوة .

كان وكيل الإقطاعي قاسياً على أبيهما وعلى كافة عمال الحقل ، كان يعامل الأب الطاعن في السن بقسوة ، وكم ألهب الظهرَ المحني بسفعات سوْط باغية ، فكانا ينتقمان منه بطريقتهما الخاصة . حريصين على ألا يكشف أمرهما فيطال أباهم العقاب . .

حدثني أحد أقربائهم أن غضنفر قام في ظهر يوم قائظ بربط ساق الوكيل الغاطّ في قيلولة تحت شجرة في ساق جواده ، ثم ربط فهد في عنق الجواد حية مقتولة ، فجفل الجواد ، وراح يركض في أرجاء الحقل ساحباً الوكيل البدين ، الذي كاد أن يقتل بسبب الحادثة . فتلقى بسببهما كل العمال عقاباً شنيعاً من المالك . وعندما علم بتار بما فعلا ضربهما ضرباً مبرحاً . .

ثم لما التحق أبو عامر بالجيش أبلى بلاءً حسناً أسوة بشقيقيه الأكبرين . ترقى سريعاً بفضل قوته وجرأته والمتميزتين . رغم أن قادته كانوا يعانون من قلة انضباطه ومشاكساته الدائمة وتمرده المتزايد ورفضه الانصياع لأوامرهم ، لذا قام القائد السابق ـ المستشار عدنان ـ بإلحاقه بفرقة الرجل الوحيد القادر على كبح جماحه وهو شقيقه بتار .

أبلى الأشقاء الثلاثة بلاء حسناً في كل المعارك التي اشتركوا فيها . وطار صيتهم في جميع أنحاء الإمبراطورية ، ونالوا أرفع الأوسمة والدرجات ، فرغم صغر سنهم إلا أن انجازاتهم كانت

حديث الرواة في مقاهي البلاد .

خسر غضنفر زوجته بسبب مرض غامض أكل جسد المرأة وتركها هيكلاً صفصفاً لم يلبث أن ذوى وانطفأ فيه وهج الحياة . فقام على ابنه بالرعاية والاهتمام . فرباه ونشأه على الرجولة والفروسية . لكنه ـ على عكس بتار ـ كان يظهر القسوة على الغلام ، رغبة منه في أن يشتد عوده ولا يلين . ورغم ذلك كانت العلاقة بينهما وطيدة للغاية . .

عندما كانت تزداد على حمزة وعامر وطأة الملل وحرارة النهار ، كانا يتدربان على المبارزة أو الرماية لتقضية الوقت ونفض الكسل عن عضلاتهما الفتية . لا شك أن الغلبة كانت على الدوام لحمزة ؛ لكن ابن عمه لم يكن سهلاً ، كان قوياً هو الآخر يجيد الضرب بالسيف ورمي السهام بدرجة تسبق عمره .

بعيون عسلية ، وجسد نحيل مفتول ، وشعر أقرب للحمرة ، كان عامر ابن الثانية عشرة لا يشبه ابن عمه الأسمر ذي الشعر الأسود الطويل والعيون الداكنة ، وإن كانا متقاربين في البنية والهيكل مع فارق طول ضئيل لصالح حمزة .

قُبيل الأصيل كان الغلامان يعودان على صهوة جواديهما للمدينة الكبيرة ، حيث يمران على إحدى الحانات لتفقد غادة ابنة عمهما فهد ذات السنوات التسع حيث تركها أبوها عهدة لدى صديقه صاحب الحانة .

كان القائد الأركادي العتيد قلّما يكون له صديق بسبب طبعه الحاد الذي لا يحتمله أحد . فرّت منه زوجته بعد سنوات قلائل بسبب هذا الطبع الغليظ الجاف تاركة له ابنته حتى لا يلاحقها في أصقاع الأرض . كان ذاك الطبع لا يسكن إلا حين يَعبّ من نبيذ

العنب المعتق، فتصفو روحه، ويزول كدره، وتتهذب ألفاظه، وتلين أخلاقه، وتستكين جوارحه، وتراه ناعماً كثعبان متخم بعد وجبة شهية.. فلا غرابة - بعد ذلك - أن جُلّ أصدقائه كانوا من أصحاب الحانات ونزلائها..

كان فهد إذا أراد الخروج لمعركة ترك ابنته لدى زوجة شقيقه بتار، لكن بعد وفاتها لم يجد من يثق به إلا كريم صاحب الحانة. خصوصاً أن الأمانة لديه قد ازدادت بعد أن عهد إليه صديقه القعقاع قبل موته في غلوريا بابنته فريال والتي تصغر ابنته بسنتين. وكانت علاقته قد توطدت به وبزوجته نائلة، اللذين كان أبناؤهما قد تفرقوا في البلاد بحثاً عن الرزق، وبقي الزوجان الكبيران وحدهما يجمعان رزقهما من الحانة الصغيرة.

ولم تكن العلاقة بينهم حديثة بعد انتقال فهد في معية الجيش والدولة إلى سيسليا؛ بل كانت علاقتهم قديمة منذ أن كان فهد جندياً عادياً في جيش القائد عدنان. كان الجندي الشاب يتسلل ليلاً من المعسكر الرابض قرب المدينة، ويذهب إلى الحانة ليترع فيها، ثم يعود للثكنة قرب الفجر. وفي أحد المرات كان منكباً على شرابه، فدخلت عصبة من الناقاريين المسافرين المشهورين ببذاءة اللسان وقذارة الأخلاق، فأصدروا جلبة بضحكهم وعبثهم، وتحرشوا بابنة صاحب الحانة التي كانت أيامها نادلة فيها. كل ذلك لم يكن ليؤثر على فهد أو يفسد طقوسه في الشرب، لكن ثارت ثائرته حين هددهم كريم باستدعاء الدرك إن لم يلتزموا الأدب، فسبوا الدرك، وسبوا جنود أركاديا، وسبوا الإمبراطور.. حينها فقط انصب عليهم فهد كالإعصار، فضرب وركل وجرح وكسر وطردهم جميعاً خارج الحانة، وأوشك على

الإجهاز عليهم لولا وصول الدرك حيث استلزم عشرة منهم ليوقفوا الفارس العملاق عن عقاب الناقاريين الستة . كان كل شيء يهون لديه إلا سب الإمبراطور . . كذلك رباهم أبوهم ، وسقى قلوبهم بحب القادة . . وكبير قادة البلاد هو الإمبراطور .

طبعاً لا داعي أن أقول لكم أن عدنان قد أوقع عليه عقاباً شديداً لتأخره في العودة إلى الثكنة في الوقت المناسب .

ما الذي أوصلني لهذه الحكاية ؟!! نعم تذكرت . . كان حمزة وعامر يشتريان من السوق طعاماً ويذهبون لتناوله مع ابنة عمهما وفريال قبل أن يتفرقا ، فيعود حمزة إلى القصر الإمبراطوري ، ويعود عامر إلى منزله .

كانت غادة جميلة لم ترث شيئاً من دمامة أبيها وسمرة بشرته ، بل كانت بيضاء زرقاء العين كأمها ابنة مدينة راهوا الشمالية ، لكنها كسائر أبناء عائلتها كانت نشيطة وحيوية ، سليطة اللسان ، تثير المتاعب أينما حلّت ، ولولا ضفيرتاها لما ميزها أحد عن الصبيان ، ما صبر عليها كريم وزوجته إلا كرامة لأبيها ، ولولا ذلك لطرداها من الحانة شر طردة ، وإن كانا عازمين على الشكوى لفهد حال عودته من المعركة ، لكن الفتاة الشقية كانت تعلم أنها مستحوذة على مجامع قلب أبيها ، وأن ذلك الحب سيقيها العقاب ولا ريب . .

على عكس فريال ، التي كانت هادئة وادعة ، تنتظر عودة أبيها ، الذي زعموا لها أنه مسافر سفراً طويلاً قد لا يرجع منه ، لكن الطفلة الوادعة كانت تنتظر طيفه عقب كل طرقة باب . .

فتيات سيسيليا اللواتي كن يقضين النهار في جلب الماء من النهر المتدفق وسط المدينة لبيوتهن ، ويخبزن العجين ، ويعملن على

تنقية الحبوب ، وفصل جيد العنب عن رديئه ، ويحملن الزيتون إلى المعاصر ؛ كن يشرفن أصيلاً على الساحات المحيطة بالمدينة الكبيرة من أعلى الحصن انتظاراً لقدوم جيش مظفر يستحق أن يثنين خصورهن رقصاً لأنغام انتصاره .

الأمهات كن يبتهلن عند كل غروب لتحفظ السماء أبناءهن ، وأن تعيدهم أبطالاً تزين أوسمة الانتصار دروعهم . .

وفي القصر الإمبراطوري ، كانت الإمبراطورة نور تُطل من شرفتها ساهمة تتساءل بصوت مسموع ـ دون أن تشعر ـ عن حالها وحال ابنها الرضيع الذي كانت تخشى عليه من غموض القدر . . هذا الغلام الصغير الذي وُلد في يوم كان منتظراً ومرتقباً لأمة تنتظر حاكمها المستقبلي ، فلم يكن يوم ميلاده يوم فرح وسرور . . بل كان اليوم الذي تصلى فيه الأمة نيران الظلم والاستعباد من قوم رعاع ما ظنوا يوماً أن يبلغوا حداً يهزموهم فيه بمعركة فضلاً على أن يحتلوا مدنهم ويستعبدونهم . .

ذلك كان اليوم الذي سقط فيه رأس ولي العهد الأمير العزيز . . سقطت فيه غلوريا عاصمة البلاد لقرون متطاولة . . وسقطت رؤوس كثيرة كانت تتطلع لولادة الأمير . .

لذلك كانت الإمبراطورة تتطلع إليه في أيدي وصيفتها شروق بإشفاق على عمره الطويل الذي بدأ بهذه المأساة . . فإذا كانت تلك البداية . . فأي نهاية تدخرها له سحب السماء ؟

أيضاً الأميرة ثريا كانت تقضي وقتها بملاعبة ومحادثة وردة بنت البتار ذات الثلاثة عشر ربيعاً . كانت تجد لحديثها متعة وتشويقاً يفوق عمرها بسنوات وأعوام . تقضي معها ساعات طوال تجاذبها الحديث في مواضيع مختلفة وقصص شتى . والفتاة اليافعة

ترد عليها بإسهاب وتناسق عجيبين ، وكأن لها خبرات وتجارب فيما تتحدث عنه ، حتى أنها كانت لوهلة تبدو نداً للأميرة الشابة التي تجاوزت العشرين بنصف عقد .

في الحقيقة كانت وردة تختلق تلك الأحاديث بجرأة نادرة طبيعية استمدتها من تربية أبيها المحكمة ، ومن خيال خصب وهبتها إياه السماء .

علام كان يرسل رجاله كل صباح لاستطلاع وقائع المعركة . كان يناقش الأخبار الواردة مع مجلس حكمه ومع ضيفه حاكم ناناكروبا الأرغل الذي أصر على متابعة سير المعركة من أقرب نقطة تسمح بها صحته المتراجعة .

وبعد انقضاء المجلس كان علام يتجه للقصر حاملاً الأخبار للعائلة الإمبراطورية ، يعرج على جناح الأميرة الشابة قبل أن يقصد جناح شقيقته الإمبراطورة . ذلك أنه كان يسعى لكسب عاطفة الأميرة الجميلة رغبة منه في زواجها بعد انقشاع الغمة عن البلاد . لكنها كانت تنفر منه دائماً ، تتجاهله ما استطاعت ، إلا عندما كان يأتيها محملاً بأخبار الجيش ، حينها تصغي إليه متحملة ثرثرته الكثيرة التي لا تطيقها ، وتصبر على حضوره الثقيل على نفسها ، مبدية تبسطاً وترحيباً لتستخرج منه كل الأخبار . وهو بدوره لم يكن يغفل عن ذلك ، لذا كان يطيل الحديث معها في مواضيع بعيدة عن سبب حضوره ، ليستمتع قدر المستطاع بجلوسه معها ، ويغترف بعينيه من جمالها ما يمكنه من استحضار صورتها طوال الوقت .

وبعد انصرافه منها كان يزور شقيقته الصغرى الإمبراطورة نور ، حيث يقص عليها الأخبار ، ويحتسي معها الشاي ، ولربما شاركها

العشاء ، قبل أن ينصرف إلى مخدعه .

علام كان شاباً في منتصف العقد الرابع من عمره . قد غزا الشيب شعره الكثيف ولحيته الكثة . عينه الإمبراطور حاكماً لسيسيليا عقب زواجه من نور . ورغم المحاباة الظاهرة في ذلك التعيين ، إلا أن الحاكم الجديد أثبت قدرته وجدارته بالمنصب الكبير . ففي السنوات الثلاث التي قضاها حاكماً للمدينة ازداد اقتصادها ، وصارت الإمبراطورية كلها تستورد الحبوب والمحاصيل منها . مع تفعيله للأنظمة القضائية والإدارية .

وبعد سقوط الشمال في أيدي الركساسيين ، ونزوح كثير من الأهالي إلى سيسيليا ، لم يأل جهداً في تسكينهم ، وإيجاد فرص عمل مناسبة للقادرين منهم ، موفراً حصص طعام لمن لم يجد عملاً أو لم يكن قادراً عليه . فنال بتلك التدابير رضا الإمبراطور والوزراء ، ودفع بالجملة عن نفسه تهم المحاباة التي لاحقته إبان تعيينه .

أعلم أنكم قد سئمتم ثرثرتي لما يعتمل في نفوسكم من تشوق لأحداث اليوم الثالث من المعركة ، ولا ألومكم فأنا ثرثارة بالفعل ، والأحداث التي جرت تستحق السماع والإنصات . . فاسمعوها بآذانكم . . وأنصتوا لها بقلوبكم . .

فالذي جرى في اليوم الثالث لمعركة السهل الأبيض غيّر تاريخ الأمة بأسرها . . .

***

في صباح اليوم الثالث اشتبك الجيشان مجدداً . . قسم قادة فرق الجيش الأركادي صفوفهم حسب خطة بتار صفوفاً متتالية ، بحيث يهاجم جنود ثم يتبادلون المواقع مع جنود المؤخرة ، حتى لا ينال الإرهاق من جميع الجنود ، ويوفرون طاقتهم للمعركة المرتقبة حال وصول قوتي الكمين عند زوال الشمس .

كعادته أبلى بتار بلاء حسناً في المعركة ، رغم أن حديثه مع صفوان قد حرمه متعة النوم ، فلم تغمض جفناه إلا قبيل الفجر . كان خلال المعركة يراقب صفوان وجنوده من الجنوبيين خشية انفصالهم أو نكوصهم على أعقابهم فيحصل ما لا تحمد عقباه .

لكن صفوان كان يبدي ضراوة في القتال ، جعلت جنود الركساسيين يتطايرون من حوله خشية من حربته العظيمة ، ولم يبدل مع الصف الثاني على الإطلاق ، بل ظل ثابتاً كجلمود صخر في وجوه الأعداء .

هواجس ناعقة ظلت تتوارد على ذهن بتار ، مخرجة إياه من جو المعركة العام . كان مستغرباً من عدم نزول شاكان للقتال وهو الفارس العتيد المخضرم ، الذي سيحدث نزوله ثقلاً كبيراً في كفة الركساسيين معنوياً ومادياً . كما سيحدث اسمه خلخلة في جانب الأركاديين ، الذين يهابون اسمه كما يهاب الركساسيون اسم بتار .

كذلك كان مستغرباً من عدم إقدام الركساسيين على استخدام أفتك أسلحتهم وهي العربات المدرعة رغم إثخان الأركاديين

لصفوفهم ، تلك المدرعات الرهيبة التي تنفث اللهب ولا يوقفها شيء ، فهي محصنة من جميع الجوانب ، يجرها فَرَسَان مسربلان بالدروع يتحكم بهما قائدهما من داخل العربة المغلقة من جميع الجهات ، إلا من أربع فتحات صغيرة في الجهات الأربع ، فالأمامية للقائد حتى يتمكن من توجيه الفرسين ورؤية الطريق ، والجانبيتان والخلفية لإطلاق اللهب .

سلاح رهيب حاق بالأركاديين قتلاً وفتكاً ، ولم يصلوا لحل يوقفونه به .

انتزع بتار نفسه من هواجسه وراح يراقب الشمس الكسلى بعينين أرهقهما القلق .

احتدم الصراع ، وتناثرت الرؤوس والأجساد ، واصطبغت الأرض بالدماء المسفوحة ، وتتابعت الأرواح رقياً لمستقر السماء ، وامتزج عرق الجنود بدمائهم ودماء ضحاياهم ، فأثارت سخونة الدم ورائحته النفادة جنون الجنود ، تناسوا آلام زنودهم الناشئة من ثقل الأسلحة وقوة الضربات صداً وهجوماً ، تناسوا الجراح التي أحدثتها وسالت لها الدماء ، فتلبدت مشاعرهم وغدوا آلات مسخرة للقتل . . حتى أن الرجل منهم لم يكن يدرك أنه قُتل إلا حين يعجز جسده عن مطاوعته للضرب والطعان . .

تطلعت عيون كبار القادة الأركاديين إلى الشمس الرتيبة ، التي تواصل تلكؤها في مسارها السماوي ، فمنهم من لعنها في سره ، ومنهم من استحثها على الإسراع . . الفرج متعلق بأذيالها . . النصر مرتهن بباب الضحى الذي ستفتحه الشمس بعد سويعات . .

كانوا يستشعرون قسوة الذل حين يستحكم على النفس الأبية . . كم هو مقيت أن يفقد الإنسان حريته وأن تذبل أحلامه

السامقة ، وأن تسقط أمانيه العالية ، وأن يتهاوى صريح عظيم دأبت سواعد فتية في رفعه سنيناً متطاولة . . ثم في لحظة . . في لمحة . . يقف أصحاب السواعد عاجزين عن نجدة صرحهم ، وهو يتداعى أمام أعينهم عاجزين حتى أن يمنعوا أنفسهم من مشاهدة المنظر الحزين . .

رجال أمثال بتار وهاشم ونصار وجرفاس وغياث والحجاج كانوا يدركون شناعة أن تُساق النساء اللواتي نذرت سيفك لحمايتهن ، يساقون قسراً على فرش الأعادي ، وقد كن حرائر عزيزات يتجملن بالعفاف ويتسربلن بالفضيلة . أن تتخيلهن في المخادع ، وتتوهم أذناك صرخاتهن المستنجدة ممزوجة بضحكات العبث والشبق المندلقة من حلوق الغزاة . .

ذلك هو العار الذي كان أولئك الرجال يسعون لمحوه ولو لم يمحَ إلا بدمائهم وأرواحهم فلن يترددوا بسفكها رخيصة عن طيب خاطر .

كانوا أسوداً يقاتلون من أجل كل بريء قتله الركساسيون غِيلة دون حق إلا إرضاء لأطماع ملك ظالم لم تكفه مملكته الشاسعة ، فأبى إلا مزاحمة الناس في أقدارهم وأرزاقهم .

كثير من جنود الجيش فقدوا غالياً إبان اجتياح الركساسيين لبلادهم . . خسر بتار زوجته ، وقُتل ابنا الحجاج ، وفقد جرفاس أبويه ، وغياث سُبيت زوجته وأخته . .

كانوا أسوداً جريحة تقاتل فصيلاً من الضباع الجشعة الباغية . . يقاتلون من أجل شيء تربوا على قداسته حتى بلغ محلاً في نفوسهم يفوق مكانة الروح المتدفقة في أجسادهم . . إنها قداسة الأرض . . أرض أركاديا . . تلك الأرض الطاهرة التي ارتوت عروقهم من

بيادرها ، وتنشقوا هواءها فترددت الأرواح في صدروهم . .

لقد عجنت السماء أجسادهم من طين أرضها ، وتشكلت أجسادهم من لفح شمسها ، فتعمقت جذورهم عميقاً فيها فلن يقلعهم أحد بسهولة . . تلك كانت بيوتهم ومساكنهم التي يطالها الدنس الركساسي ويهدد بالجثوم أبداً . . أفلن يكون الموت أحب إليهم من رؤية ذلك واقعاً بغيضاً ؟

بعيون متشوقة لمح الإمبراطور الشمس تلج أولى منازل الضحى . . .

حبس الوزير زيدون أنفاسه وتسارعت ضربات قلبه . . .

شدّ المستشار عدنان قبضتيه على لجام فرسه وهو يراقب التلال الغربية . . .

تراجع بتار ليرتاح استعداداً لإلقاء أمر الهجوم الكامل فور وصول جيش الغضنفر . . .

وواصلت الشمس رحلتها في قوس السماء متجاهلة العظماء الأربعة . . لقد تأخرت قوات الكمين . . لكن ذلك أمر وارد الحدوث . . جزّ هاشم على أسنانه بغيظ وهو يحدق بالشمس والتلال . . وتواردت أسوأ الاحتمالات في عقل بتار . . وتطايرت أمام ناظريه الأرواح الشريرة نافثة في روعه أقبح الظنون وأبغض الأفكار . . لمح من بين الصفوف صفوان ينظره بنظرة تقول بشماتة :

– « أين رجالك؟ ألم أقل لك؟ » . .

بصيص الأمل لم ينطفئ . . ينوس لكنه لم ينطفئ . . حتى لو لم تصل فرقة الغضنفر ، فرقة الفهد تكفي لإطباق كماشة الكمين . .

توشك الشمس أن تزول دون أي أثر لفرقة غضنفر أو حتى خبر . . .

زالت الشمس وبدأت النزول من قبة السماء ، فانتقلت الأنظار إلى النهر الأبيض انتظاراً لهجوم قوات فهد ، فلم يلح للعيون الظامئة إلا اليباب . .

خشي بتار أن يوهن هذا التأخير من عزيمة القادة الذين أخبرهم بالخطة فتحبط معنوياتهم ويستشري ذلك الإحباط في جنودهم ، فما كان منه إلا أن اقتحم الصفوف وقاتل كما لم يقاتل من قبل في هذه الموقعة . . كان يريد أن يتناسى هذا الفشل المرتقب في الأفق كرعود وبروق تنذر بإعصار مدمر . .

ولما رأى القادة استبساله في القتال انقضوا بدورهم على صفوف الركساسيين فخلخلوها ، وأحدثوا فيها فجوات وثغرات عظيمة ، وأعملوا فيهم القتل الأليم . .

كانوا مردة زاد الغضب من قوتها وشدة بطشها ، حتى بلغ من إقدام بتار أن اخترق وحده الصفوف الركساسية ، فأحاط به الجنود من كل جانب ، لكنهم لم يقدروا حتى على خدشه ، كان بركاناً ثائراً يقذف حممه المميتة في كل اتجاه دون تمييز . .

كان يقاتل بنهم . . كأن بحربته ظمأ لا يرويه إلا دماء الركساسيين جميعاً . . في الحقيقة كان بتار يحاول دفع القدر المتدحرج نحو جيشه ككرة نارية تأكل كل ما يقف في طريقها . .

أغرقته الدماء الساخنة . . لطخت وجهه وسالت على درعه وحصانه . . حتى أصبح عرف الحصان أحمر قانياً . . كان بتار يفكر في أثناء القتال بإمبراطوره . . تذكر يوم جثا بين ذراعيه مقسماً على الذود عن الإمبراطورية بحياته . . قال له الإمبراطور يومها :

- أنت فارس عظيم يا بتار . . سيكون لك شأن عظيم ذات يوم . .

لا يهمه ذلك الشأن . . لم يقاتل يوماً لشأن أو صيت أو ثراء . . كل ما يهمه قسمه الذي قطعه يوم التحق بسلاح الفرسان . . حماية الإمبراطور . . حماية البلاد . . حماية الشعب . . مثلث يجب أن يصون أضلاعه بأضلاعه إن لزم . . لذلك هان عليه ترك أبنائه وزوجته في غلوريا مقابل حماية الإمبراطور وعائلته . . ألقى بنفسه أمام المفرزة الركساسية المتربصة بالقصر الإمبراطوري بسعادة ورضا فداء لمعتقداته ومبادئه . .

وفي معترك أفكاره انتزعه صوت هاشم يناديه بصوت وشى بالفرحة :

- سيدي القائد . . فارس قادم من الشرق يلوح في الأفق . .

فالتفت بلهفة شرقاً ؛ فرأى فارساً ينهب الأرض بسرعة رهيبة ، فانداحت تباشير النصر تطرد الأرواح المتشائمة . . وسمع صوت هاشم مجدداً :

- وأسطول القائد فهد كذلك يبدو على مقربة منا . . أرى دخاناً من الناحية الغربية . .

قطب بتار حاجبيه باستغراب . . دخان ؟!! عجيب أن يشعلوا ناراً في وضح النهار وهم في مهمة سرية . . لكن المهم الآن أن تنجح الخطة ، والحساب سيأتي في أوانه . .

لكن الدخان تزايد . . وأصبح ناراً هائلة . . وما هي إلا لحظات ويلوح الأسطول في النهر تأكل سفنه النار . . خمسون سفينة مدمرة لم يبق منها إلا ركام يهشمها اللهب قبل أن يبتلع بقاياها النهر الأبيض . .

كم كان وقع ذلك المنظر رهيباً في نفوس الأركاديين جميعاً . . سواءً من علم بالخطة أو جهلها . . ذلك أن الرايات الأركادية كانت منتصبة على الصواري الغارقة ، قبل أن يواريها عباب النهر . .

أما القادة . . فكانوا كمن يرى كابوساً رهيباً فرّ من عالم الأحلام . . ليتمثل في الواقع حقيقة أليمة . .

ثم وقعت المصيبة الأخرى . . هتف جنود المؤخرة بوجود عدو يقترب منهم من الخلف من قلب الغابات . . كانوا فرساناً يحملون الرايات الركساسية . .

أما بتار الذاهل فالتفت إلى الفارس المتجه نحوه بسرعة رهيبة . . لم يكن إلا شقيقه غضنفر مضرجاً الدماء . . يا للسماء!! ما أشبه اليوم بالبارحة !

بكى بتار . . لم تبكِ عيونه . . بل بكى قلبه . . بكى دماً عندمياً لاهباً . . فقد في لَحظة واحدة كل حواسه . . لم يستطع أن يبصر إلا الهزيمة الماحقة تفترس بشراسة ونهم بقايا بلاده . . لم يستطع أن يسمع إلا نحيب العذارى وهن يسقن إلى براثن الغزاة . .

كان ينظر إلى غضنفر الذي يقترب منه فيرى وجه الإمبراطور في القيد والأغلال يساق إلى بلاط مملكة ركساس . .

لم يستطع أن يستمع لشقيقه وهو يقول :

– سيدي القائد . . لقد انكشفت الخطة . . أعدّ الغزاة لنا كميناً مزق الجيش فلم ينجُ منه إلا القليل . . .

لم يدرِ بتار ماذا يفعل بابن أمه . . هل يفرغ فيه غله ويدحرج رأسه؟ أم يمزقه إرباً ويشرب من دمائه؟ ما منعه من ذلك الفعل إلا هتافاً ملوعاً :

– النار . . .

أطلق شاكان مدرعاته أخيراً . . كان يدخرها لهذه اللحظة . . فراحت نيرانها تحيق بالجيش الأركادي . . فجفلت الجياد وألقت بفرسانها أرضاً ليقضوا نحبهم إما دهساً بسنابك الخيل ، وإما حرقاً بلهيب المدرعات . .

وحمل الجيش الركساسي على الأركاديين بكامل قوته . . مزقت النصال من سَلِم من المدرعات ، فتبعثر الجنود يمنة ويسرة ، وراحوا يحاولون الهرب نجاة بحياتهم ، لكن الرماح والنبال وسيوف الفرسان حالوا دون ذلك . .

واقتنص الفرسان حملة الرايات الأركادية ، فسادت الفوضى الصفوف ، وتخبط القادة في اتخاذ القرارات بانقطاعهم عن القيادة ، فأمر غياث جنوده بالثبات ، فثبت قليل منهم ، وفرت الأغلبية شرقاً إلى النهر حيث أدركتهم الخيالة الركساسية وتركتهم جثثاً وأشلاء . .

أما جرفاس ففر بجنوده إلى تلال أوكاس لكن فرقة رماة ركساسية كانت بانتظارهم فأنشبت فيهم النبال وتركت كثيرا منهم مجندلين . .

أما الحجاج فعاد بجنوده لحماية إيوان الإمبراطور من الخطر الزاحف إليه من الخلف ، لكن الصفوف الركساسية ضربتهم وأحاطت بهم ممعنة فيهم القتل والتدمير . .

لقد كانت مفاجأة مرعبة للإمبراطور النعمان أن يرى الخيل الركساسية تُغير عليه من المؤخرة لا يحول بينه وبينهم إلا حامية قليلة من الحرس الإمبراطوري لا تجاوز المائتي جندي . . أمجاد أسرته العريقة الآن كزجاجة هشة في طريق السنابك . . ابنه الوحيد الذي ما هنئ بولادته قد لا يراه مجدداً . . لن ينعم بتربيته ،

ويسعد بترعرعه في أطوار النمو وصولاً لمرحلة الرجولة . .

استل سيفه المذهب . . قرر أن يموت كالأبطال . . لكن رجليه العتيدين تقدماه شاهرين سيفهما . . هتف زيدون :

- مولاي . . سنحميك بأرواحنا . .

وراح عدنان يلقي بأوامره للجنود ليأخذوا التشكيلات المناسبة . . فنظر الملك ملياً إليهما . . ساوره الفخر للحظة أن يرى رجالاً يضحون بحياتهم فداء لحياته . .

وانقض الجيش الركساسي وعلى رأسه شاكان وكبار فرسانه يفتكون ببقايا الجيش الأركادي فسالت الدماء وتراكمت الجثث وتدحرجت الرؤوس ، وأطبقوا الخناق على إيوان الملك ، حيث كان الحجاج صامداً يقاتل ذوداً عن مليكه حتى خر صريعاً من كثرة الضربات التي تلقاها .

نصار أيضاً كان ثابتاً يقاتل دون الإيوان ، يتلقى السهام بترسه ودرعه حتى لا تصل لظهر الإمبراطور المكشوف ، متيقناً من قدوم الموت ، فاسترخص عرضه مقرراً الموت فداء للإمبراطور . .

عدنان وزيدون كانا يقاتلان بضراوة بالغة ، على رأس الرجال المتحلقين بالملك ، ورغم ذلك استطاع بعض الجنود اختراقهم ، لكن سيف النعمان أرداهم صرعى . .

في أقل من ساعة واحدة سقط أكثر من خمسمائة مقاتل ذوداً عن الإمبراطور المحاصر . . العجيب أنه قد امتلأ فخراً بهم . . وهو يراهم يسقطون تباعاً فداءً له . . رأى جندياً ركساسياً يهم بإلقاء رمحه نحوه فيأتيه جندي لتلقي الرمح بجسده ذوداً عن الإمبراطور . . رأى عدنان الشيخ الكبير يتلقى ضربة هائلة على ترسه فيخر منها أرضاً ، ثم يقوم لمواصلة القتال والدم الغزير يغطي

درعه بأكملها . . وزيدون صديقه الحميم يتلقى بكتفه ضربة سيف هوجاء كادت أن تصل إليه قبل أن يردي صاحبها قتيلاً . .

فامتلأت عيناه بالدموع ، وانطلق يقاتل ذوداً عن حياته ، ليثبت لأرواح القتلى الذين يراقبونه الآن أن دماءهم لم تُسفح هدراً ، وأن تضحياتهم ستبقى قناديل تضيء صفحات التاريخ . .

السيوف الركساسية تكالبت عليه وعلى حاميته التي لم يبق منها إلا العشرات ، فتوالت النصال تنهش من لحمه ، وتمزق جلده شر تمزيق ، أصابته ضربة قوية في ذراعه اليمنى ، فأحس بالخدر يسري فيها حتى عجز عن رفع السيف ، فراح يصد الضربات بترسه فقط ، وانتظر ضربة تنهي حياته وتنقله إلى صفوف الأموات . .

لكن زوبعة هائلة بعثرت الجنود الركساسين المحيطين به ، ونثرت أجسادهم وأشلاءهم في كل مكان ، كانت زوبعة أركادية أصيلة سمتها السماء يوماً : . . . بتار . .

انشق الزمان والمكان فجأة عن بتار ليحافظ على حياة مليكه . . ليبر بالقسم المرتهن بناصيته . . أتى شاقاً طريقه بين الصفوف ليحمي ملكه غير آبه بعشرات الجروح التي مزقت جسده . .

هتف النعمان باسمه ، فاقترب بتار بفرسه منه هاتفاً :

- لبيك يا مولاي . .

وحمل الملك بذراع واحدة ووضعه خلفه على صهوة الفرس هاتفاً :

- لن أتخلى عنك يا مولاي . . لن أسلمك للرعاع وفيّ عرق تنبض . .

وانطلق بالشهباء صوب سيسليا بعد أن تأكد من استواء الملك وتشبثه به ، كانت الكتائب الركساسية تحول بينه وبين التوجه

جنوباً ، لكنه قرر اختراقهم . . حماقة . . لو صدرت من غير بتار . .

كانت الشهباء تنطلق بأقصى سرعتها ، مستمدة الشجاعة من فارسها الهمام ، الذي كان يقبض على اللجام بيسراه ، ويلوح بحربته بيده اليمنى ، وعيناه المتقدتان تنفثان لهيباً كاد أن يطال الأعداء . . حتى إذا اقترب من صفوفهم هتف بأعلى صوته :

– من أراد الموت فليقف في وجهي . . أنا البتار قائد الجيوش الأركادية . .

فأفسح البعض له الطريق خوفاً من اسمه الذي زلزل الركساسين حين وصلت إليهم أنباء فتكه بالمفرزة في غلوريا .

تخطاهم بتار هالة من نور تجوس أكناف الظلام ، مزيحاً من تجرأ على الوقوف في طريقه بحربته المشرشرة . . لكن بعض المشاة عرقل سير الشهباء برمح ألقاه بين ساقيها ، فكَبَتِ الفرس الأصيلة في وقت غير مناسب على الإطلاق . .

سقط بتار والملك بين أقدام الركساسين متدحرجين لمسافة طويلة . . وبمجرد استقراره هبّ بتار للقتال رغم الدوار العنيف الذي يكتنف رأسه ، راح يجندل الجنود بحربته في كل الاتجاهات الأربع ، محافظاً على مسافة مناسبة بينه وبينهم حتى لا تطاله نصالهم ، حريصاً ألا يقتربوا من الملك المستلقي قريباً من أقدامه عاجزاً عن النهوض من أثر السقطة . .

تساقط العشرات من الركساسيين من حوله . . لكن الإعياء كان يعصف بالبطل . . اختلط عرقه الغزير بدماء قتلاه التي أصابت وجهه وسالت على عينيه فاغبشت الرؤية أمامه . . ونزفت الجراح الكثيرة التي استطاعت النصال الركساسية من إحداثها بجسده . .

فراح الدوار يزداد برأسه حتى أصبحت خطواته غير متزنة وكاد أن يقع مرات متكررة . .

تسابقت النصال في النيل من جسده . . وهو صامد شامخ يأبى السقوط أرضاً إلا وروحه قد فارقت حياته . . تمثلت له صورة حمزة ووردة وزوجته الراحلة أشواق . . فأحس بدنو أجله . .

الملك الذي استعاد شيئاً من عافيته وقف حاملاً سيفه الأسطوري ليموت مقبلاً غير مدبر . . لاهجاً للسماء أن تحفظ ابنه حتى يثأر لمقتله . .

واقترب الموت حتى أضحى بينه وبينهم ذراع أو أدنى ، لكن السماء كان لها رأي مختلف . . ففي غمرة القتال المحموم بين الركساسين وبتار اقتحمت المعركة كتيبة النناكروبين بقيادة صفوان فصدوا الهجوم الرهيب ، ثم لم تلبث أن أدركتهم كذلك قوة على رأسها هاشم بن عدنان يرافقه كل من نصار وغضنفر ، فخففوا الوطأة عن قائدهم بتار وعدلوا من كفة الغلبة . .

ثم اقترب غضنفر من شقيقه هاتفاً له :

- أستحلفك برأس الإمبراطور أيها القائد أن تغادر إلى سيسيليا حفاظاً على حياته . . فأسوارها المنيعة ستحافظ على حياته حتى تجتمع فلول الجيش . .

تردد بتار في الانسحاب ، فهتف صفوان بدوره :

- هيا أيها القائد . . سنؤمن ظهرك فلا يصلوا إليك . .

وتعاون هاشم ونصار لرفع الملك على صهوة الشهباء والأول يهتف :

- هيا يا سيدي . . سيرافقك نصار وبعض الجنود . .

فامتطى بتار الفرس مذعناً لصوت العقل ، فيما راح الملك

يقلب عينيه الغائرتين في وجوه الرجال الذين أنقذوا حياته، فأحسوا بما يريد الإمبراطور قوله، لكنهم أشاحوا بوجوههم خجلاً من سوء صنيعهم، وعادوا للقتال رفقة رجالهم..

وانطلق الركب على رأسهم بتار مزيحاً كل عقبة تواجههم، يساعده في ذلك نصار على صهوة جواده وعشرة من الفرسان سقطوا تباعاً، حتى ما استطاع تجاوز الصفوف الركساسية إلا فرس بتار وجواد نصار..

واستمر الثلاثة بالركض طويلاً حتى غارت الشمس خلف الجبال الحزينة، واستبد بهم وبحصانيهم الجوع والعطش والإرهاق، حتى أن الإمبراطور عانى من الحفاظ على توازنه فوق صهوة الجواد.. الجراح النازفة في أنحاء جسمه، وطول الطريق والجهود الكبير الذي بذله في القتال عصفوا بجسده المنعم المترف، رغم محاولاته المتجلدة لإخفاء ذلك؛ إلا أن الشحوب والذبول والأنات التي أطلقها رغماً عنه فضحت ما يعانيه الإمبراطور.. فاقترح بتار عليه الاستراحة قليلاً قبل مواصلة المسير، حتى يستعيدوا شيئاً من رمق الحياة يتقوون به على طول الطريق، فوافق الملك مظهراً امتعاضاً مصطنعاً حفظاً لماء وجهه..

قفز الفارسان من صهوة جواديهما ليساعدا الإمبراطور على النزول أرضاً، وأسنده بتار إلى جذع شجرة، فيما جلب نصار قربة ماءه وقربها من شفتي الإمبراطور المتلمظة، فراح يروي عطشه فيما قائد جيوشه ينزع درعه وخوذته متفقداً جروحه الكثيرة التي كان أخطرها شق عريض أعلى المنكب، ثم توجه على ضوء القمر باحثاً عن نوع معين من الأعشاب الطبية، سرعان ما عاد ليضمد بها جراح الإمبراطور مستعيناً بقليل من الماء وقطعاً من قميصه.

وبعد أن انتهى من عمله مسح وجه الإمبراطور بقطعة قماش مبللة ، وأحضر من جرابه لفافة بها كِسَر لحم مقدد وخبز جاف ، غمسها في الماء لتلين قليلاً ثم قدمها للإمبراطور ، الذي تناول قطعة منها بصعوبة لمرارة وصعوبة مضغها ، لكن الجوع كان عاصفاً به ، فابتلعها على مضاضة متبعاً إياها رشفات من الماء . .

تركه بتار ليتناول طعامه ، متوجهاً لنصار الذي كان يتفحص جروحه البليغة ، فتقدم القائد منه طالباً إلقاء نظرة ، فتمنع الضابط الشاب ، لكنه خضع تحت إلحاح قائده ، فخلع درعه بصعوبة ليكشف عن قميص غارق بالدماء ، مزقه بتار ليرى جرحاً رهيباً في صدر الفتى ، فشهق قائلاً :

– ما هذا يا نصار ؟!! جرحك بليغ جداً . كيف استطعت التحامل هكذا ؟!!

قال نصار وقد خارت قواه وارتعشت أوصاله :

– الواجب يا سيدي . . روحي لروح مولاي فداء . .

فأعجب به بتار وأكبره غاية الإكبار ، وتمتم قائلاً :

– أنت فعلاً ابن الوزير زيدون . .

ثم مسح الدماء بقماش مبلل قبل أن يضمده ما استطاع بما تبقى لديه من أعشاب وقماش ، وقال :

– نحتاج لكيه . . لكن إشعال نار الآن سيلفت أنظار المطاردين . .

لم يسمعه الشاب ذو العشرين عاماً إذ غط في نوم عميق إثر الإرهاق الرهيب الذي يعانيه ، فساعده على الاستلقاء أرضاً ، وعاد للإمبراطور الذي كان مستيقظاً يراقب قائده العتيد . قال له بهدوء لا يتناسب مع الظروف الراهنة :

– من أين تعلمت العلاج بالأعشاب أيها القائد ؟

اقترب منه بتار وجثا أمامه قائلاً :

– أنا جندي من صغري يا سيدي والجندي الناجح لابد أن يتكيف مع التضاريس المحيطة به مستفيداً من كل عناصرها . .

– لكن ليس كل جنودنا يجيدون هذه المهارة يا بتار . .

أطرق بتار ملياً يفكر في سؤال إمبراطوره الجريح الطريد . . كيف يقول له أنه منذ كان حدثاً يركض في طرقات نيروديس وهو يسعى ليكون جندياً متميزاً يدفع الظلم عن المظلومين وينتصر للحق حتى يعيده لمستحقه؟ كيف يقول له أنه كان يساعد أباه في حراثة الحقل نهاراً ، ويقضي الليل بين التدريب على فنون الفروسية التي اجتهد في تعلمها ، مسخراً كل معلومة يتعلمها لخدمة ذلك الهدف النبيل الذي سعى عمره ليصل إليه ؟

أجاب :

– لعلها هوايات قديمة . . حاول أن تنال قسطاً من النوم حتى نواصل الانطلاق . .

أومأ الإمبراطور برأسه موافقاً وأسلم جفنيه للرقاد . وبعد أن تأكد بتار من نوم سيده أخذ قطعة من خشب وقبض عليها بأسنانه ، وهو يقوم بخلع درعه بألم شديد ، لقد طالت النصال أغلب أجزاء جسده ، وأضحى قميصه الأبيض تحت الدرع أحمر من كثرة ما نزف من الدماء ، وحين حاول انتزاع قميصه شعر بألم شديد بسبب التصاق الدم المتخثر بقماش القميص ، فانتزعه بقوة شديدة شعر بألمها في رأسه ، فجز على قطعة الخشب بين فكيه حتى لا تفلت منه أهات ألم توقظ الإمبراطور ، ضمد ما استطاع من جراحه بالأعشاب وجمع عليه درعه ودثاره ، قبل أن تخور قواه

ويستلقي على الأرض .. كان الحنق يفتك به أشد من الألم والإرهاق ..

لقد خسر أهم معركة في حياته بسبب سوء تخطيطه .. لم يحسن تخمين قدرة الجاسوس الناخر في كيان الأمة .. خطة محكمة وضعها ولم يُعلم بها أحداً إلا الخُلّص من رجالات الدولة .. أيعقل أن يكون أحدهم هو الخائن ؟! تمنى في تلك اللحظة أن تمد السماء عمره ليحطم رأس الجاسوس بقبضته ..

تذكر أحداث المعركة فتعالت مرارة الهزيمة في حلقه .. لقد خسروا خسارة فادحة لا تعوض .. خِيرة شباب أركاديا قد قضوا نحبهم ذبحاً بالسيوف أو هم يئنون الآن تحت وطأة أغلال الأسر .. ولم يبق له دور إلا ليعود بمليكه إلى أسوار سيسليا المنيعة .. رجاء أن يفشل الأعداء في اقتحامها ، فيحاول جاهداً التفاوض معهم للوصول إلى اتفاقية استسلام تحفظ حياة ملكه وأسرته ..

مريرٌ هو مذاق الهزيمة .. خصوصاً في حلوق رجال كبتار .. كانت تلك المرارة تهد بنيانه الصلب العتيد ..

حانت منه التفاتة إلى الملك النائم بادي الإعياء ، فرأى في صفحة وجهه تاريخاً حافلاً بالانجازات .. عشرون عاماً ساس بها البلاد بحنكة واقتدار رغم هفوات تذوب في سلسبيل حسناته ..

لقد كان بتار فخوراً حين انضم إلى سلاح الفرسان وهو غلام لا يتجاوز الخامسة عشرة .. كان يتبختر بزيه الموشّى بشعار الإمبراطورية ..

لم يكن والده صاحب جاه أو ثروة .. كان فلاحاً معدماً بالكاد يجد قوته وقوت عياله .. لكنه على شدة عوزه وقلة يده ؛ كان يهيم حباً بأركاديا وأرضها .. يقدس أسرة الإمبراطور النعمان التي - كما

كان يردد دائماً ـ أنقذت قبائل البلاد من الشتات والفرقة والتناحر التي كانت تستهلك دماءهم وتجعلهم عرضاً مستباحاً لهجمات الدول المجاورة . .

كان يقول لأبنائه نقلاً عن أبيه وأجداده : «كنا رعاعاً تُغير علينا الدول كلما قرصها الجوع أو حركها الملل ناهبين أرزاقنا وأقواتنا ، فلَكم ساقوا من خيرة شبابنا عبيداً لهم ، وسَبَوا ما اشتهوا من فتياتنا خليلات ليدفئن فرشهم . .»

«كذلك كنا شعباً لا قيمة لهم ولا وزناً . . حتى بعثت صقور السماء جد الإمبراطور النعمان ليلم ذلك الشتات ويحوّل من فتاته صرحاً عظيماً ناهز في فترة وجيزة أعلى الدول المحيطة بنا ، بل وأوقف غزواتها وأجبرها على احترامنا ، بل قامت بعض الدول بدفع الجزية لنا درءاً لبطشتنا واستقواءً بنا . .»

وعندما توجه بتار لأول معركة يخوضها تحت سلاح الفرسان استوصاه أبوه أن يحمي جناب الإمبراطورية ولو بحياته ـ إن لزم ـ صيانة لملك سيده ومولاه . .

«– سيدي . . أنت متيقظ؟»

انتزعه صوت نصار من أفكاره فالتفت إلى الفارس الشاب الذي كان قد ارتدى درعه دون أن يشعر به ، فعلم أن النوم قد أخذ عينيه برهة من الزمان . . قال :

– ما بك يا نصار ؟

– أقترح أن أسبقكم إلى سيسليا وأعود بفرقة حماية لمولاي الإمبراطور خوفاً من أن يدركنا الطلب .

– لكنك مرهق يا نصار ، وأخشى أن تسقط في منتصف الطريق . .

- لقد نلت ما يكفي من الراحة يا سيدي ، وأرجوك أن تمنحني هذا الشرف . .

ازداد إعجاب بتار بابن الوزير فقال :

- حسناً . . اذهب يا نصار ولترعك نجوم السماء . .

قام نصار وسحب جواده بعيداً حتى لا يصدر منه صوت يزعج مولاه ، ثم انطلق به مسرعاً باتجاه عاصمة الجنوب ، لكن الإمبراطور كان قد استيقظ متسائلاً :

- إلى أين ذهب نصار يا بتار ؟

قام بتار ليقترب من سيده قائلاً :

- لقد سبقنا لطلب حامية ترافقنا إلى سيسليا يا مولاي . .

اتكأ النعمان على جذع الشجرة وأخذ يراقب نجوم السماء ، وابتسم ابتسامة باهتة قبل أن يقول :

- أتعلم ما الذي أشعر به الآن يا بتار ؟

- لا يا سيدي . .

- ثمة شعور بالغ يجوس في صدري . . إنه شعور السعادة والفخر والرضا . .

تعجب بتار من كلام ملكه ، وخشي أن الملك يهذي متأثراً بجراحاته ، لكنه أنصت صامتاً للملك وهو يردف :

- خلال العشرين عاماً التي حكمت فيها البلاد كانت تراودني شكوك حول مشاعر شعبي تجاهي . . أنا الملك القابع حول حجارة قصري الفاخرة ، متمتعاً بفراشي الحريري الذي تدفئه لي في زمهرير الشتاء أجمل النساء وأحلى الجواري ، أنعم بأطيب الطعام وأشهاه ، لا أدري عن معاناة فقراء شعبي وحقيقة مشاكلهم ومعاناتهم . . .

اليوم فقط تأكدت أنني لم أكن حاكماً سيئاً . . وإلا لما تسابق أولئك الرجال لبذل أرواحهم من أجلي . .

قال بتار متأثراً :

– إنهم يجلّونك يا مولاي . .

فجأة قبض الملك على ذراع بتار بشدة وهو يسأله :

– بتار . . أستحلفك بالسماء . . هل كنت ملكاً صالحاً ؟

تطلع بتار لبرهة في عيني الملك اللامعة بالدمع ، ثم أطرق مجيباً :

– وهل في ذلك شك يا مولاي؟ أكثر الرجال شجاعة رأيتهم اليوم يبذلون مهجهم حماية لك يا سيدي . .

ربّت الملك على ذراع بتار وترك دموعه تنساب على وجنتيه ، وعاد ليتكىء على الشجرة قائلاً بصوت متهدج :

– لقد كان عزيزاً عليّ أن أرى أولئك الرجال يموتون وأنا عاجز لا أستطيع الدفاع عن نفسي وعن الملك الذي ورثته عن أجدادي . .

ثم أغمض عينيه مردفاً :

– الآن وقد سمعت إجابتك أستطيع أن أستسلم لقدري . . لتفعل السماء بي ما تشاء . .

قال بتار محاولاً تخفيف وطأة اليأس الجاثم على صدر الملك :

– لم نستسلم بعد يا مولاي . . معركة خسرناها وسنعاود الكرة . . سنستعيد بلادنا ونطرد الغزاة الباغين . .

تجاهل الإمبراطور كلام قائده الظاهر الكذب ، ومسح الدمع عن وجهه ، وسكن حتى بدا أنه غارق في النوم . .

كانت تلك من أحلك اللحظات ظلمة في حياة بتار . . فبعد

عمر مديد قضاه في الدفاع عن مَلكه وبلاده ؛ يجد نفسه في هذا الموقف البئيس يستمع للإمبراطور يتحدث عن الفشل والموت .. يتحدث عن النهاية المحتمة التي تنظرهم ..

لقد فشل فشلاً ذريعاً في أشرف المهام التي أوكلت إليه .. أحس بقلبه المقبوض يسقط في أوحال العار ..

تمثل له خيال الجاسوس اللعين .. ود ساعتها لو يفري لحمه بأسنانه .. رجل واحد يسقط أمة ؟!! يا للعار!! لأي شيء يخون الخائن؟ لأي شيء يدنس كرامته في قذر الخيانة؟ بأي ثمن يبيع انتماءه ورجولته ؟

لم يكن بإمكان رجل مثل بتار تنشأ على الفروسية والشهامة أن يتقبل الفكرة أو حتى أن يتصورها .. فكرة الخيانة نظير أي شيء في الدنيا .. كيف وهو يرى مليكهم الحاكم المثالي عدلاً وجلالاً يهيم الشعب حباً له ولأسرته؟

كان يعلم أن النعمان مسرف في الترف واللذات ، لكنه لم يبخل على الشعب بأي شيء ، بل نصر الفلاحين الذين كانوا يعملون في أراضي الإقطاعيين مقابل أجر بالكاد يكيفهم لبضعة أيام ، فقام بإصدار أمره برفع أجور جميع الفلاحين من الخمس إلى الربع .

كذلك حين حاق الجدب بشمال البلاد وانتشر الجوع والجفاف ، وارتفع سعر المحاصيل بسبب ندرتها وكثرة الإقبال عليها ؛ وضع الضرائب عن جميع السكان ، وبذل الأعطيات من خزانة الدولة حتى انكشفت الغمة وعاد الرخاء ..

فلماذا؟ لماذا يخون أركادي ملكاً مثل النعمان ندر الزمان أن ينجب مثله ؟!

انتبه بتار لصوت خشخشة نبات من المحيطة حوله ، فهب ممتشقاً حربته ، ليجد مهاجماً يقترب منه في الظلام ، ففصل رأسه عن عنقه بضربة سريعة ، وسرعان وما توالى هجوم الركساسين من كل الجهات وهو يرديهم قتلى . . واستيقظ الملك لمرأى المهاجمين يحيطون ببتار ، فامتشق سيفه بدوره مستعداً للدفاع عن نفسه ، لكن بتار هتف به :

- الشهباء يا مولاي . . امتطي صهوتها واسبقني نحو سيسليا . . سألحق بك بعد قليل . .

انطلق الملك بالفرس ، فيما حال بتار بين المهاجمين وبين أن يلحقوا بالملك ، ثم في لحظة مناسبة ، انطلق راكضاً ليلحق بالإمبراطور الذي هدأ من سرعة الفرس ، فامتطاها بتار بخفة ، وأطلق العنان لها لتنطلق بأقصى سرعتها نحو الجنوب ، منعطفاً بين الأشجار ليضلل الفرسان الذين يلاحقونه ، حتى إذا خرج من الغابة التفت إلى الخلف قائلاً :

- لقد تجاوزناهم يا سيدي لم يبق بيننا وبين سيسليا إلا القليل . .

هتف الملك بذعر :

- انظر أمامك . .

فنظر بتار ليرى صفين من الرماة الركساسين مستعدين بقسيهم وسهامهم ، ما أن لمح قائدهم بتار يخرج من الغابة مكشوفاً للعيان حتى هتف :

- أطلقوا . . .

انطلقت السهام صوب الفارس العتيد وملكه . . اعتمد بتار على رِكاب سرجه واقفاً فارد الذراعين حماية للإمبراطور . . فتلقى

السهام بدرعه فقط . . أصابه سهمان في صدره . . وآخر في بطنه . . وآخران في كتفيه . . وأصابت مجموعة أخرى من السهام الشهباء فجفلت وسقطت براكبيها صريعة على الفور . .

لم يشعر بتار بألم السهام الذي نفذت إلى جسده بقدر ما شعر بألم الهزيمة بعد أن وصل إلى هذه المرحلة . . اعتمد على حربته ليقف . . وقف بصعوبة بالغة . . انتزع الأسهم بألم . . قاوم الدوار العنيف الذي سببته السقطة والجراح النازفة . . رأى الرماة الركساسين ينظرونه بدهشة بالغة . .

ركض نحوهم بأقدام مترنحة وهو يهتف بأعلى صوته :

– النصر لأركاديا . . إلى الجحيم يا ركساس . .

فهتف قائدهم :

– أطلقوا . . اقتلوه . . .

فألقموا قسيهم بالسهام استعداداً لقتل ذلك المغوار الذي يهاجمهم بمنتهى الشجاعة والكبرياء . . كم هي رائعة شمس الشجاعة حتى في لحظات الأفول . . كم هو ثقيل على النفوس السوية ألا تحترم نفساً سمقت عالياً في سماء الإباء والشهامة والرجولة . . نفس كنفس القائد البتار قائد الجيوش الأركادية . .

لقد كان مهيباً بحق منظره وهو يهاجمهم بما تبقى لديه من رمق الحياة . . جعل الجنود الركساسين يترددون في إطلاق سهامهم ، لكن قائدهم عاود الهتاف بأعلى صوته :

– أطلقوا . . قلت أطلقوا . . .

لكنهم لم يطلقوا . . لم يطلقوا أبداً . . لأنهم بوغتوا بسهام أصابتهم من خلفهم ، أردت بعضهم صرعى ، فيما التحم بهم فرسان أركاديون قادمون من خلفهم ، استطاعوا هزيمتهم في دقائق

معدودة . . كان نصار يقودهم . . ترجل من جواده متوجهاً إلى بتار المتكئ على حربته لاهثاً بكل قوة . . هتف به نصار :

– سيدي . . هل أنت بخير ؟

سأله بتار بصعوبة :

– كيف عدت بهذه السرعة يا نصار ؟

– لقد وجدتهم في الطريق يا سيدي . . أرسلهم عمي الحاكم علام فور وصول أنباء الانكسار إليه . .

هز بتار رأسه الناضح بالعرق قائلاً :

– أحسن علام صنعاً . . ساعدني لنتفحص الإمبراطور . .

كان الإمبراطور مستلقياً على ظهره يئن من الألم الذي سببته سقطته ، فلقد كسرت ذراعه ، والتوى كاحله ، كان يفكر في بتار . . لم يصدق أنه ضحى بجسده لحمايته . . مثل بتار يجب ألا يموت . . هو وحده القادر على استعادة البلاد في يوم من الأيام . .

قال له نصار عندما اقترب منه رفقة بتار :

– مولاي . . هل أنت بخير ؟

قال الملك :

– بل كيف هو بتار ؟

قال بتار :

– سلامة مولاي هي المقدمة . . ما بتار إلا جندي من حماة مليكه . .

– لو كان عندي عشرة مثلك يا بتار . . ما جرى في بلادي ما جرى . .

تناهى إلى أسماعهم أصوات جحافل تزحف إليهم من خلف الأشجار ، فأمر نصار فارسين بحمل الملك وبتار إلى سيسليا ، لكن

بتار امتنع عن ذلك ، وطلب فرساً واحدة ليردف عليها الإمبراطور ، فلما اعترض نصار أجابه بتار :

– ما زلت القائد يا نصار . . احتفظ بكل جندي فستكون بحاجتهم لدرء العدو عنا . .

وانطلق بتار بجواده بأقصى سرعة رغم الآلام الهائلة التي كانت تقدح كالشرر في كيانه . . كان الألم شديداً حتى على رجل يملك جلداً كجلد بتار . . راح يترنح على صهوة الجواد محاولاً الحفاظ على توازنه بما تبقى لديه من قوة . . كانت تتراءى له صور متتابعة . . رأى نفسه يسير بجواده على جسر مرصوف بالنرجس والياسمين قاصداً قرص الشمس . . على جنبات الجسر رأى حمزة ابنه الوحيد يتمرن على الرماية بالسهام . . وبجواره وردة تلعب بدمية محشوة بالصوف . . رأى على الضفة الأخرى أخويه فهد وغضنفر يلوحان له بذراعيهما . . ومن خلفهما كوخهم القديم يبدو فيه أبوه وأمه يحتسيان شراباً ساخناً . . رأى وجوهاً كثير ممن عرفهم . . عدنان . . زيدون . . هاشم . . نصار . . صفوان . . وغيرهم بسرعة متتالية . . وحين اقترب من نهاية الطريق . . رأى أشواق فاتحة ذراعيها له . . همست :

– حبيبي . . هل أنت متعب؟ تعال بين ذراعيّ . . .

– لا أستطيع الراحة يا أشواق . . مازال بعنقي واجب أقضيه . .

ثم اقتحم الصورة فارس عملاق متشح بالسواد . . إنه شاكان . . فانتبه بتار من غفوته . . شعر بصدر الملك على ظهره ، فقال بجزع :

– مولاي . . هل أنت بخير ؟

أجابه النعمان بصوت هدّه التعب :

– لا يا بتار . . لست بخير . . هل اقتربنا من سيسيليا ؟

قال بتار :

– نعم يا مولاي . . خلف التلة سنرى أسوار المدينة . .

– ما الذي تتمناه الآن يا بتار ؟

– نجاتك بالطبع يا سيدي . .

– أما أنا فأتمنى أن أموت . . لقد أضعت مُلكاً تليداً حافظ عليه أجدادي ستمائة عام . . ضيعته أنا في أقل من عامين . .

ثم أردف بعد أن ابتلع غصة مريرة في حلقه :

– ملك مثلي . . لا يستحق الحياة . .

ونشج الملك . . انخرط في بكاء مرير . . لم يستطع حينها أن يواصل اعتمار قناع الكبرياء الثقيل الذي أرهق ملامحه . . ولم يستطع بتار إلا الصمت أمام نحيب الملك . . كان اليأس قد عمل فيه هو الآخر . . وصار معلقاً آماله كلها في استسلام يحفظ فيه حياة ملكه وحياة أسرته . .

مع أولى شهقات الصباح وصلا إلى سيسليا . . رآهما كل الذين تجمعوا الليل بطوله على الشرفات ينتظرون أخبار الجيش . . بكى الرجال . . انهارت النسوة . . كانت أنباء الهزيمة قد بلغتهم . . لكن السماع ليس كالمعاينة . .

استقبل الحاكم علام الموكب الجريح رفقة كبار رجال الدولة ، قادوهم إلى القصر الإمبراطوري حيث كانت الإمبراطورة نور في انتظارهم ، بكت كثيراً لمرأى زوجها محمولاً على محفة فوق أكتاف الرجال ، وهو في حالة لا يسمع فيها شيئاً ولا يرى أحداً . .

أمر علام الأطباء أن يولوا عناية فائقة بالإمبراطور وبقائد

الجيوش ، الذي ظل واقفاً على قدميه ، رغم الدم الغزير الذي نزفته جراحه ، وبعد أن أطمأن بتار على الإمبراطور التفت ليرى أحب الناس إلى قلبه واقفاً يرنو إليه بصمت . . كان حمزة . . يحدق في أبيه بوجه ممتعق ونظرة تمور بالذهول . . .

هل يُعقل أن يُهزم أبوه؟ لم يكن يصدق على الإطلاق أن يطال بوار الهزيمة هامة كهامة أبيه البطل قائد الجيوش المظفر . . المثل الأعلى الذي كان يسعى جهده لاقتفاء أثره والسير على خطواته . . لذلك عزّ عليه أن يراه وقد نشبت الهزيمة مخالبها في لحمه ودمه . .

نظر إليه بتار بحزن . . كان يدرك معنى تلك النظرات الذاهلة المطلة من عيني ابنه الصغير . . لم يكن يريد على الإطلاق أن يراه في هذه الحالة المزرية . . قائد فاشل قد أضاع إمبراطورية عريضة أُمر بحمايتها . .

لقد كانت نظرات ولده أشد ألماً من جراحه الكثيرة . . لقد تناساها جميعاً ووقف ساكناً كتمثال قدته أصابع الأحزان . . لم يدرِ كيف يبرر لابنه هزيمته . . كيف يقنعه بأن الحروب سجال . . وأنه لم يخسر أمام عدو غاز . . بل خسر أمام عدو خفيّ جبان . . لا يستطيع مواجهته كالرِّجال . . وإلا لمزقه إرباً لا تستسيغها حتى الضباع . .

أطرق حمزة لما أحرقت نظرات أبيه مشاعره . . كان يريد أن يرتمي في حضنه . . يقبل يديه وبين عينيه . . أن يحمد السماء على عودته حياً . . . لكنه لم يقدر . . أراد . . لكن لم يقدر . .

وتهاوى البنيان . . تهاوى الصرح . . تهاوى البطل العظيم . . تهاوى بتار أرضاً متأثراً بجراحه القاتلة . . دمٌ كثير قد أريق منه

حتى كاد أن يخرّ منذ زمن . . لكن كبرياءه منعه عن ذلك أمام أعين الحضور . . وخصوصاً ابنه حمزة . . لكن تلك النظرات فتكت بما تبقى من قوة تحمله . .

حينها انطلق الطفل من إهاب حمزة . . انطلق ليبتدر أباه قبل أن يسقط على الأرض . . وانسكبت دموعه . . وتعالى صياحه بالبكاء . . بكى البطل الأسطوري الذي هام بحبه وعلمه معنى الفروسية وقيمة الشرف وتعاليم الرجولة . . بكى أباه الحنون الذي رباه على يديه وجعل منه إنساناً بعد أن كان لحماً متغضناً . . بكى نفسه التي لم تكن قادرة أن تتقبل الهزيمة ولا تصفح عن مهزوم . . بكى لكل القهر المتراكب الذي تجيش به نفسه الفتية . .

تساقطت قطرات دموعه على وجه أبيه . . الذي رفع كفه بصعوبة . . ومسح وجنتي الغلام بأصابع مرتعشة قائلاً بصوت يفيض حناناً رغم النبرات الواهنة :

– لا تبكِ يا حمزة . . لا تبكِ يا بني . . الرجال لا يبكون . . الأبطال لا يبكون . . حتى عند الهزيمة لا ينحنون . . يتقبلونها بشرف وإباء . .

لكن بكاء حمزة اشتد . . انهمرت دموعه بغزارة . . علا نحيبه وتسارعت شهقاته . . واحتضن أباه بحرقة . . هتف بصوته المتهدج :

– لا تمت يا أبي . . لا تمت . . أنا بحاجة إليك . .

هزّ بتار رأسه نفياً ، وانتقلت يده من وجه حمزة إلى ذراعه اليمنى . . قائلاً :

– لم تعد بحاجة إليّ يا حمزة . . (وشد على الذراع) أنت بحاجة إلى هذه . .

ونقل يده إلى صدر حمزة وقال :

- وإلى هذا . . إلى القلب . . قلوب الرجال هي التي تصنع أعمالهم . . .

وسقط مغشياً عليه . . صاح حمزة بأعلى صوته طلباً للمساعدة . . فتهافت الرجال استجابة لندائه . . حملوا قائدهم الأسطوري إلى جناحه . . دعوا الأطباء ليعاينوا الجروح . .

كانت القلوب تنزّ بالفزع . . نعقت البوم في الأغصان . . حلقت الغربان في المحاجر . . وتربصت الضباع بالأسوار . . .

إمبراطور جريح . . وقائد يحتضر . . أي مصير أسود ينتظر الأمة . . ينتظر أركاديا . . .

***

# الفصل الرابع:
# أساطير الخلود تضع أجنحتها

قصت لي إحدى اللواتي شهدن وصول بتار والإمبراطور إلى سيسليا قصةً مريعةً . . قالت :

«وقع خبر انكسار الجيش أمام جحافل الغزاة وهزيمته على سكان المدينة وقع الصواعق والشهب . . كانت الهزيمة غولاً مستحيلاً لم نتصور إمكانية انقضاضه علينا بعد كل ذلك الاستعداد الذي استعدته الدولة ورجالها ، وكل الإنفاق والبذل الذي تسابق السكان لتقديمه راضين . . كنّا قد علّقنا آمالنا وأحلامنا بأذيال الجيش الكبير الذي خرج قبل أيام خمسة فقط على رأسه إمبراطور حكيم وقائد شجاع كانا أول العائدين للمدينة يشيّعهما نتن الهزيمة . . كان الغول خلفهما يقهقه بشماتة استعداداً للانقضاض بهوله علينا وإنشاب أنيابه ومخالبه فينا فتكاً وتدميراً . .

كنت وشقيقتي قد وقفنا الليل بطوله على مشارف الحصن - رفقة ثلة من الأهالي - نرتقب عودة رسول أو حتى جنود مبعثرين ننزل فيهم غضبنا وسخطنا . . كنت أحمل سلة تغص بالفاكهة الفاسدة والبيض استعداداً لرشق أول الفارّين من ميدان المعركة . .

ظللت الليل أصلي إلى الفجر رجاء أن يكون الخبر كذباً . . أو وشاية من العدو للحطّ من المعنويات والعبث بالمشاعر . . كنت أتمنى أن يعود الجيش رافع الهامات سائقاً الغنائم والأسرى . . يقدم لنا

البشرى الجميلة والأمل بانقشاع العدو عن أراضينا . . حتى نعود لارتشاف الأمان بارداً بعد أن جفت حلوقنا وتلمّظت شفاهنا من الخوف الرهيب . .

انتبهت من صلاتي على هتاف يقول :«فارس قادم» . . فتطاولت الأعناق لرؤية ذلك الفارس المحمّل باليقين . . كانت خطوات الجواد البطيئة أول صفعة تلقاها أملنا من كفٍّ الحقيقة . . كانت الدماء التي تلمع على درعه الصفعة الثانية التي أيقظتنا من أمانينا الدافئة . . الهتاف الآخر الذي تناهى إلى مسامعنا نسف باقات الأحلام التي أثثنا بها صدورنا . . . «إنه القائد بتار» . .

القائد بتار ؟!! قائد الجيش ؟!! البطل الصنديد الذي جندل مائة وخمسين جندياً بمفرده في غلوريا ؟!! ليت السماء وقعت علينا قبل أن نراه في تلك الصورة التي تندك الجبال لفظاعتها وتذبل الأشجار من هولها . . كيف يكون القائد أول جنوده انسحاباً وفراراً من سيوف الأعادي ؟!! كيف لا يبقى كالقبطان في مقدمة السفينة يتلقى بصدره العاري موجات العاصفة العاتية ؟!! كيف يفر بحياته ويترك أبناءنا وإخواننا ورجالنا يواجهون الموت دون قائد يوجههم ويضبط تحركاتهم ؟!!!

التقطنا الفاكهة النتنة من سلالنا استعداداً لرجمه فور وصوله إلى مدى قريب يتيح لنا إصابته . . كنا نريد أن نعبر عما تختلج به صدورنا سخطاً وخوفاً من مصير مدلهمّ خطتّه لنا أصابع القدر . . نحن اللواتي سيتسابق الغزاة لهتك أعراضنا واتخاذنا خليلات لتنتن أحشاؤنا بحمل أجنتهم الفاسدة . . كيف نكون أمهات للذين أذاقونا لظى الاستعباد ؟!!

رفعت يدي استعداداً لرميه لكن هاتفاً آخر أمعن في كيّ

قلوبنا . . «أرى معه رديفاً . . إنه الإمبراطور!! . . الإمبراطور النعمان رديف القائد البتار . . الإمبراطور جريح . . أدركوه يا رجال . . أدركوا الإمبراطور . .»

حينها سقطت الثمرة من يدِي وتهشمت على الأرض . . وبقيت يدي معلقة في السماء قد جمدها الذهول . . تدافع الرجال والنساء إلى بوابة الحصن لنجدة الإمبراطور وقائده . . لا أعلم شناعة أشد من رؤية الرمز الأعلى يهوي من علياء المثالية إلى مستنقع الواقعية التي لا ترحم الرموز . .

تعالى نشيج النساء . . أدركن الحقيقة المرّة . . كنا نحب الإمبراطور . . نعزوا الخير العميم الذي تتقلب فيه البلاد إلى السماء وإليه . . دثاره الفضفاض كان ملاذنا وحمانا . . صعب للغاية أن نرى ذيّاك الدثار مشققاً بمقاريض الهزيمة . .

رأيناه ضعيفاً تحمله أذرع الرجال . . وضعوه على محفة وأسرعوا به إلى القصر العالي . . الذي بدا لي حينها منكس الرأس . . يتبعهم الفارس العتيد بجواده الحزين الخطوات . .

بكيت دون أن أشعر . . شفقة على مظهره المريع . . ورحمة بنفسي . . وبفتيات سيسيليا . . اللواتي كن يقفن بجواري يراقبن المشهد الفظيع بعيون أغرقتها غلالات الدموع . .

لم يرعْني إلا صوت صرخة . . صرخة رهيبة . . صرخة لا أنساها ما بقيت . . صرخة أختي التي قفزت من أعلى الحصن إلى الصخور المحيطة بالمدينة . . فصرخت أنا الأخرى . . صرخت لما رأيتها مهشمة مبعثرة الأشلاء . . كدت ألحقها لولا الفتيات اللواتي منعنني . . ضربتُ ولطمتُ وأنشبتُ أظافري في وجوههن دون أن أشعر . . حتى كبّلني أحد الرجال الأشداء . . وصفعتني إحداهن

بقسوة لتوقظني من هول ما أصابني . . انخرطت حينها في البكاء . . وما زلت أبكي كلما تذكرت ذلك المنظر . . جمال أختي المتهشم على الصخور . . أختي التي آثرت الموت على حياة ذلٍ كانت غربان الهزيمة تحملها لنا في مناقيرها الخبيثة . . .»

انتهت القصة . . .

أنا أيضاً . . وبعد هذا العمر المديد . . تغرق عيني بالبكاء . . ويضيق صدري بالكآبة . . وتطفح ملامحي بالمرارة . . كلما تذكرت تلك الحكاية . . .

عاد قليل من الجنود إلى سيسيليا ، والبقية قضوا نحبهم أو وقعوا في الأسر . كان من العائدين غضنفر وهاشم ونصار وصفوان . اجتمعوا في حجرة بتار فاقد الوعي الذي يعاني حمى رهيبة إثر جراحه الكثيرة التي جعلت الأطباء جاحظي العيون من هولها ومن قدرة احتماله الرهيبة التي مكنته من العودة بها والبقاء حياً إلى هذا الوقت . فلو كان غيره لكان حتماً في عداد الأموات . .

كان الرجال ينتظرون استيقاظ قائدهم لبحث الوضع الحالي ، خصوصاً أن لكل واحد منهم رأي مختلف . فالغضنفر كان يقترح الثبات والقتال حتى آخر رجل ، وعدم تسليم المدينة على الإطلاق ، فبداخلها ما يكفي من المؤن والمياه ما يمكنهم من الصبر على حصار طويل لسنتين أو أكثر .

أما هاشم فكان يرى أن الحصار طال أو قصر سيُسقط المدينة ولا ريب ، فالاستسلام المشروط هو الحل .

نصار كان يرى أن يُسرَّب الإمبراطور وعائلته إلى سلطنة ناقار أو مملكة إقريشانيا ومنها إلى أي بلاد أخرى لا تطاله فيها أيدي الركساسيين . .

حمزة وعامر أيضاً كانا في الحجرة رغم اعتراضات الرجال . . كان ابن القائد متلفعاً بدثار أبيه الملطخ بدمائه ، يحتضن حربته الثقيلة التي يعجز عن حملها بعض الرجال . . كان واجماً حزيناً تجمدت على وجنتيه الدموع . . يراقب ارتجافات أبيه المهولة وهذيانه المتكرر . . كان البتار كثيراً ما يهذي باسم الإمبراطور وباسم عائلته . . يوجه أوامر لجنود وهميين بحماية الأسرة الإمبراطورية . . يتساءل عن سر تأخر قوتي الكمين . . ينادي حمزة . . يدعوه . . يوجه له النصائح . . قبل أن يسكن لبرهة ثم يعود جسده المثخن للارتجاف . .

صفوان الذي كان صامتاً أثناء نقاش القادة الثلاثة ، كان يروز حمزة بناظريه ، عرفه من تدثره بدثار بتار وباحتضانه للحربة المشرشرة ، وزاد من تأكيده أن سأله بصوته الجاف :

- أأنت حمزة أيها الغلام ؟

فأومأ برأسه إيجاباً ، فأشاح صفوان رأسه عنه ، وغادر الحجرة . .

الإمبراطور كان بوضع أفضل رغم فقدانه الوعي . بجواره كانت الإمبراطورة تسفح الدمع على زوجها ، وخوفاً على مصيرها ومصير ابنها ذي السنتين الذي كان يلعب في حجر الوصيفة شروق . . كان علام يحاول جهده التخفيف عن شقيقته بأن الأوضاع على ما يرام .

استأذن للدخول الأرغل حاكم ناناكروبا . تفقد الإمبراطور وواسى زوجته . أصر أن تتولى قوته القليلة التي جاءت في الأيام الماضية حماية الحصن هذه الليلة ، فهم أشد قوة وأكثر نشاطاً ، فوافق علام على ذلك شريطة أن يُعلم الأرغل هاشماً بالأمر .

ثريا لم تكن قادرة على رؤية شقيقها في تلك الحالة المزرية ، ظلت في جناحها مع وردة بنت البتار ، التي كانت تحاول زيارة أبيها لولا أن منعتها الأميرة خشية عليها من هول المنظر . .

ذلك كان حال المدينة وأهلها صبيحة انكسار الجيش . . قلوب مكسورة . . ودموع مسفوحة . . وأفكار كئيبة . . يجوسها التشاؤم . . .

***

بعد غروب الشمس استيقظ بتار من غيبوبته . . رأى حمزة غافياً على كرسي مقابل السرير محتضناً الحربة والدثار ، ورأى على يمينه هاشم وغضنفر يطلان من الشرفة على المدينة . . استعاد صفاءه الذهني وتذكر أحداث الصباح فهتف :

– منذ متى وأنا في السرير ؟!

انتبه حمزة من غفوته على هتاف أبيه ، فيما اقترب الفارسان من قائدهما قائلين :

– حمداً للسماء على سلامتك أيها القائد . .

كرر بتار هتافه بصرامة أكبر وهو يهم بالنهوض من الفراش ، فحاول غضنفر ثنيه عن القيام قائلاً :

– منذ الصباح فقط . . استرح أيها القائد فجراحك لم تندمل بعد . .

وقال هاشم :

– لقد أكد الأطباء على ضرورة بقائك في الفراش حتى تعود إليك صحتك . .

استوى جالساً في فراشه وهو يقول :

– ما هو الوضع الآن؟ ما الذي فاتني خلال نومي ؟

قال هاشم :

– لقد حاصر الركساسيون المدينة بالكامل ، وبدؤوا بنصب المجانيق استعداداً لقصف الأسوار .

وقال غضنفر :

– لم ينجُ من جنودنا إلا حوالي خمسمائة جندي نصفهم من الجرحى ، لكنهم مصرون على القتال حتى الموت .

– إذن لا يوجد رُماة على الأسوار ؟

– بل توجد كتيبة تابعة للأرغل حاكم ناناكروبا يبلغ تعدادها ألف جندي قاموا منذ الصباح بالانتشار على الأسوار والبوابات .

قطّب بتار حاجبيه وهو يقول :

– من الذي أمرهم بذلك ؟

– الأرغل هو الذي بادر يا سيدي .

– لست مرتاحاً له وللجنوبيين . . أؤمر أحد ضباطنا ليكون قائداً عليهم .

– أمرك سيدي . .

أرغم الدوار بتار على الاستلقاء . قال :

– كيف تُقيّمان وضع المدينة الآن ؟

أجابه غضنفر :

– جيش ركساس يحاصرنا بقوات تربو على الخمسين ألفاً ، ومجانيقهم قادرة على دكّ الأسوار ، حينها لن يمنعهم شيء من ذبح سكان المدينة واحداً تلو الآخر .

– إذن ماذا ترون ؟

قال هاشم :

– لا مناص من الاستسلام يا سيدي . .

سقط قلب حمزة بين قدميه وهو يستمع للفظة الاستسلام ، وتعلقت مسامعه وجوارحه وأحاسيسه بوالده الذي بدا واجماً ساهماً يقلب الأمر في رأسه . قال :

- وأنت يا أخي . . ماذا ترى ؟

- تستطيع أسوارنا الصمود عدة أسابيع قد تمكننا من الاستنجاد بقوات من سلطان ناقار أو ملك إقرشانيا . . .

قاطعه بتار :

- لن يدسّوا أيديهم في عش تغزوه دبابير ركساس . .

ثم أردف بأسى :

- ليت المستشار عدنان والوزير زيدون كانا هنا . . كم أنا بحاجة لمشورتهما!!

همّ بالقيام مستطرداً :

- قرار الاستسلام بيد الإمبراطور فقط . .

هبّ حمزة من مجلسه هاتفاً :

- أتريدنا أن نستسلم يا أبي ؟!!

التفت الثلاثة إليه بدهشة واستنكار ، قال غضنفر بحدّة :

- اسكت أيها الغلام . . من المعيب التحدث في حضرة الكبار . .

قال حمزة متحدياً :

- علّمني أبي أن أصدح برأيي إن كنت مقتنعاً بصوابه . .

همّ غضنفر بلطمه لولا أن قال بتار :

- أعيناني على الوقوف . .

أحس بتار بالدوار يكتنفه وهو يحاول الوقوف ، لكنه تجلّد وقال :

- كيف هو الإمبراطور؟

قال هاشم :

- هو بخير يا سيدي . . لقد عالج الأطباء جراحه ، وهو الآن في جناحه . .

- لابد أن أراه . . خذاني إليه . .

ثم نظر إلى ابنه الواقف قباله رافعاً الحربة متلفعاً بدثار القيادة ، فسطعت في عينيه صور متلألئة نسجها خياله من وحي المستقبل ، ثم تذكر الموقف الذي كان بينهما صباح اليوم ، فأحس بحنان دافق يغمر مشاعره ، لكنه تجاهله وهو يطلب الدثار منه ، فقدّمه له حمزة ودمعة تلمع في عينيه . قال بصوت يفيض بالرجاء :

- لا تستلم يا أبي . . أرجوك . . علمتني أن الفارس الحقيقي لا يستسلم ولا يفر من المعركة .

ارتدى بتار الدثار وسار مستنداً على هاشم وغضنفر صوب الباب ، حيث توقف وقال دون أن يلتفت إلى حمزة :

- عندما تصبح قائداً مثلي ستعلم لماذا يجب أن نستسلم .

وأغلق الباب خلفه ، لكن الباب المغلق لم يمنع هتاف حمزة من الوصول إلى أذنيه :

- لا يوجد سبب في الكون يبيح لفارس نبيل أن يستسلم .

تلك الجملة هو الذي كررها كثيراً أمام ابنه حتى حفظها عنه . . لذلك أحس بضيق هائل يجثم على صدره . .

كان الإمبراطور نائماً في فراشه الوثير ، تجلس إلى جواره جارية تمسح العرق عن وجهه المحمر من الحمى . وعلى يساره كانت الإمبراطورة وعلام يجلسان على مقعد طويل ، ونصّار يجلس على كرسي حذاء الباب . وقفوا جميعاً فور دخول قائد الجيوش الذي توجه مباشرة إلى سرير الإمبراطور وركع أمامه باحترام ، ثم التفت إلى الإمبراطورة ورفع للحظة عينيه إلى عينيها ، فاستشعر القلق العميم الذي يكدر زرقة الحدقتين الجميلتين . قال لها بصوت واهن :

- لا تقلقي يا مولاتي . . أسوار مدينتنا قادرة على صد الغزاة . .

لم يبدُ على ملامحها الشاحبة أدنى تأثر لمحاولة القائد الفاشلة في رفع معنوياتها . قالت :

- كيف هي جراحك أيها القائد؟ لقد حكى لي زوجي قبل نومه عن تفانيك في حمايته . .

أطرق بتار خجلاً وهو يقول :

- لم أقم بواجبي كما يجب . . وإني أستجدي صفحكِ وصفح مولاي الإمبراطور . .

- الإمبراطور يُقدّرك كثيراً يا بتار . . اذهب وتزود بالراحة ، فأنت مازلت قائد جيشنا وأمامك مسؤولية عظيمة في تخليص الأمة مما أصابها . .

أحس بمرارة في حلقه لكنه أدى التحية العسكرية وقال :

- أمركِ مولاتي . .

ثم أردف :

- هل لي أن أسأل جلالتكِ عن سمو ولي العهد ؟

- سموه في جناحي تحت عناية وصيفتي شروق .

أومأ برأسه وطلب الإذن بالمغادرة ، وقبل ذلك التفت إلى الإمبراطور ، وتذكر طرفاً مما جرى بينهما أثناء انسحابهما من المعركة ، فأدى التحية العسكرية ، وهمّ بالخروج لكنه تفاجأ باستيقاظ الملك من نومه ، فدنا منه قائلاً :

- مولاي . . حمداً للسماء على سلامتكم . .

مد الإمبراطور راحته صوب بتار قائلاً :

- بتار . . كم تسعدني رؤيتك واقفاً على قدميك! خشيت أن

تكون جراحك خطيرة فتحرم الإمبراطورية من قوتك . .

لم يكن الإمبراطور يدري كم يجاهد بتار للبقاء واقفاً على قدميه بسبب شدة آلامه وقوة الدوار الذي يعصف برأسه . التقط راحة الإمبراطور ولثمها وهو يجثو بمحاذاة السرير . قال الإمبراطور :

– يداك تلتهبان يا بتار . . هل أنت محموم ؟

– لا سيدي إنني على خير ما يرام . .

– جيد . .

ثم قال بوجه واجم :

– كيف هو وضعنا الآن أيها القائد ؟

– أرجو أن نبقى وحدنا يا سيدي . .

هز الإمبراطور رأسه بتفهم ، وأمر الجميع بالانصراف من الجناح إلا هاشم وغضنفر ونصار والحاكم علام . قال الإمبراطور :

– ها نحن وحدنا أيها القائد . . هات ما عندك .

شرح بتار الوضع للإمبراطور باقتضاب ثم لاذ بالصمت . قال الإمبراطور :

– هل تعني أن نستسلم ؟

– لا خيار أمامنا يا مولاي . . سأرسل من يتفاوض مع شاكان لتسليم سيسليا وبقية مدن البلاد مقابل سلامتك وسلامة أسرتكم . .

– أتظن أنه يوافق على ذلك ؟

ضغط بتار على حروفه ليخفي كذبه وهو يقول :

– نعم يا مولاي . . هذا الاستسلام سيوفر له الوقت والجهد والمال .

قال الإمبراطور :

- إن لم يوافق اعرض عليه أن نُنفى من البلاد .

- أمرك يا سيدي . .

قال الإمبراطور بمرارة :

- فإن أبى إلا موتنا فلا بأس . . المهم حياة السكان . .

أطرق بتار برأسه واستأذن بالانصراف . . لقد كان ذلك الموقف أكثر مواقف حياته إذلالاً ، لكنه قرار لابد من اتخاذه . .

حين همّ بفتح الباب فوجئ بدخول الإمبراطورة راكضة والدموع تتفجر من عينيها . تشبثت بتلابيبه وهي تصيح :

- أدركني أيها القائد . . أدركني . . لقد اختفى . . اختفى . .

أمسك بتار بذراعي الإمبراطورة هاتفاً :

- من هو يا مولاتي؟ من الذي اختفى ؟

جثت على ركبتيها وهي تبكي وتقول :

- ابني . . ابني العزيز . . اختفى هو وشروق . . لقد اختطفته اللعينة . . أرجوك جِده لي أيها القائد (وانحنت على قدميه) أقبل قدميك جده لي . .

أبعدها بتار بذراعيه برفق عن قدميه ، وساعدها على الوقوف قائلاً :

- سأجده يا مولاتي ولو كان في قرار الأرض . لا تخافي شيئاً . .

ثم قال :

- أيها الحاكم اصحب جلالة الإمبراطورة إلى جناحها لتستريح . نصار استعن بما تشاء من الجنود واقلب القصر والمدينة بحثاً عن سموه وعن الجارية شروق .

أدى نصار التحية وانطلق لتنفيذ الأمر .

والتفت ليرى الإمبراطور شاحب الوجه من هول ما سمع ، فقال :

- سأجده يا مولاي . . لا تقلق . .

فأومأ الإمبراطور برأسه ، وانصرف بتار رفقة هاشم وغضنفر .

في الممر المؤدي إلى حجرته قال لهما :

- هاشم . . اذهب فوراً إلى شاكان حاملاً راية الاستسلام ، اعرض له تسليم المدينة وبقية البلاد على أن تسلم الأسرة الإمبراطورية وسكان سيسليا ، فاوضه على ذلك ، وسلم له ما يشاء من طلبات مقابل سلامة الإمبراطور وعائلته .

قال هاشم :

- فإن أبى ؟

- فسنضطر لمواجهة مصيرنا المحتوم .

قال غضنفر بحدة :

- دعني أذهب أنا أيها القائد .

قال بتار :

- لا . . صرت أتشاءم منك يا غضنفر . كما أن حدة طبعك ورعونتك قد تؤدي إلى فشل المفاوضات . أنا بحاجة إلى مفاوض حكيم يستطيع ضبط أفكاره وتصرفاته ، ولولا إصاباتي لكنت أنا من يؤدي هذا الدور .

ثم أردف كي يُطيّب خاطر شقيقه :

- كما أني بحاجة إليك هنا يا أخي . . اذهب وكن قائداً على فرقة النانا كروبين . أريدكم أن تحموا المدينة بأرواحكم . .

ربت غضنفر على ذراع بتار قائلاً :

- أمرك أيها القائد . .

وانطلقا لينفذا ما أمرهما به بتار . . .

دوامة من الأفكار كانت تموج في دماغه . . أساه اللا متناهي يجثم على فؤاده كليل سرمدي لا يؤثر فيه الضياء . .

من الذي اختطف ولي العهد في هذه الظروف العصيبة؟ هل للجاسوس يد فيما يحصل؟ كيف يُقدم الأرغل على حماية مدينة تؤوي قاتل أخيه الحاكم السابق لناناكروبا؟ وكيف سيستقبل شاكان هاشماً مبعوث السلام؟

كان يعلم أن شاكان قد يرفض نجاة الإمبراطور ونجاة أسرته ، لكنها محاولة يائسة لابد من إتمامها . .

أيضاً كان يخشى انتقام شاكان من ابنه حمزة الذي أخذ عينه اليمنى . ذلك الأمر كان كافياً ليقض مضجعه وهو يتخيل مثوله وابنه أمام ولي عهد ركساس المنزوع الرحمة . لكنه كقائد لابد أن يقدم سلامة الإمبراطور على سلامته الشخصية وسلامة أسرته .

آلمه كثيراً موقف حمزة مما جرى له البارحة . . كان ينتظر من ابنه حكمة أكبر وعقلاً أكثر رجحاً . . صحيح أن للشباب اندفاع وحماس يتناقص كلما أوغلوا في أحراش الحياة وتكسّبوا من ثمار الحكمة ، لكنه ربّى حمزة تربية خاصة . . تربية مختلفة . علمه كثيراً ودربه أكثر . كان يريد أن يسقيه كل خبراته وقدراته ، ليكون في يوم من الأيام الفارس الذي لم يكنه . .

فكر في ابنته وردة ، تلك الزهرة اليافعة التي ستنمو في بستان مدجج بالأشواك ، كيف سيكون مصيرها ومصير غادة ـ ابنة فهد ـ ومصير بقية السكان؟ تضرع للسماء أن تسبغ عليهم سترها وتكتنفهم بلطفها . .

بلغ الجهد منه مبلغاً صار فيه المشي أشد عليه من الجري وأكثر

رهقاً ، فسار معتمداً على الجدار قاصداً حجرته لينعم ببعض الراحة ، عازماً الحديث مع حمزة ليشرح له كيف تكون الهزيمة أحياناً ضرورية لا مناص منها .

أحس بخطوات تقترب منه في ظلام الممر ، فأحس بصدره يختلج من أثر وقعها الرتيب . تساءل في خاطره : «هل للموت أقدام؟» . التفت إلى الخلف هاتفاً :

– من أنت؟ غضنفر ؟!

لكن صاحب الخطوات لم يرد ، فتحسس بتار موضع سيفه بشكل لا إرادي ، شعر بالحنق عندما لم يجده مكانه ، نسي أن يتمنطق به ساعة قصوده جناح الإمبراطور .

كان الدوار العاصف برأسه يزداد قوة مما أثر على حدة إبصاره فلم يتبين ملامح القادم المجهول . سمع صليل سيف يسحب من غمده ، فتيقن أن القادم المتشح بالظلام يريد به شراً ، أحس بالحنق يخنقه لعجزه الدفاع عن نفسه وهو الفارس المتمرس الذي يواجه الكتائب دون خوف أو وجل . ورغم ذلك لم يخطر بباله على الإطلاق أن يرفع عقيرته للاستنجاد بأحد . . كانت روح الفارس التي تملأ إهابه تأبى عليه ذلك . فاستند إلى الجدار بظهره وتجلّد ليموت واقفاً على أقدام العزة . .

توقف القادم على بعد خطوات منه . ضيّق بتار حدقتيه ليتبين ملامحه جيداً . كان يعتمر قناعاً يخفي معظم وجهه إلا عينيه . صوّب السيف إلى صدر بتار الذي ابتسم بصعوبة وهو يقول :

– ألن تمنحني شرف معرفة شخصية قاتلي ؟

قال الفارس بلهجة متهكمة :

– ألم تعرفني بعد يا قائد الجيوش ؟

فامتعق وجه بتار لما تعرّف صوت الفارس . . قال بذهول :

- مستحيل!! أنت ؟!! أنت هو الخائن ؟!! ولكن . . ولكن . .

ارتج عليـه . . أوهنت المفـاجـأة قـدرته على الكلام . . قـال بصعوبة :

- كيف استطعت العودة ؟!!

ألصق الخائن السيف بعنق بتار قائلاً :

- نعم يا قـائد الجـيـوش أنا هو . . أنا الجـاسـوس الذي سـرّب خططكم وأخباركم إلى الركساسيين . أنا الذي استطاع أن يلغي من الخرائط اسم إمبراطورية أركاديا اللعينة . .

اشتـدت آلام بتار وهو يسـتمع لكلام شـخص ما توقع يوماً أن يخون البـلاد . كان لتلك المعرفة وقعاً على نفسه أشد من الدوار الذي يهتك رأسه ومن جراحه التي تمتص عافيته . . قال بمرارة :

- ولكن لماذا ؟! لماذا ؟!!

انتزع الخائن دثار بتار بغلظة ، وارتداه على عجالة وهو يقول :

- لأسباب كثيرة لا يسعني ذكرها الآن يا بتـار . . سأقتلك ، وأقتل النعمان ثم أجعلهم يظنون أنك أنت الفاعل بسبب ارتدائي لدثارك ، وأنك أنت الجاسوس الذي تسبب في هزيمتهم المرّة .

- لن يصدق ذلك أحد أيها الوغد . .

- لا يهم . . مع الزمن سـتندرس مـآثرك وترسخ لدى الناس فكرة أنك أنت القاتل الخائن .

أحس بتـار بالألم . . أدرك حقـيقـة المؤامـرة القـذرة التي يسـعى الخائن مع الركساسيين لتلطيخه بعفنها . . سيفقد الناس أي رغبة في مقاومة الاحـتلال إذا علمـوا أن قـائد جيشـهم خلال السـنتين الماضيتين كان هو الخائن الذي سلّم مفاتيح البلاد ونواصي العباد

للمحتل ، كما أن فناء الأسرة الإمبراطورية سيعني انتقال الحكم من سلالتهم إلى سلالة المنتصر ، وبذلك ستنتهي أركاديا للأبد وتذوب في كيان مملكة ركساس . . يا لشناعة العجز البغيض حين يتلبس جناحي باشق عملاق فيعجز عن تحويل مساره المتجه قسراً نحو صخور ناتئة مدببة الرؤوس . .

تعالت أصوات جلبة وصرخات خوف وصهيل خيل وطنين سهام . قال الخائن :

– هل تسمع هذه الأصوات يا قائد الجيوش؟ إنهم جنود ركساس يقتحمون المدينة بعد أن فتحنا لهم البوابات . لقد كان الأرغل توّاقاً للانتقام . .

أنصت بتار للأصوات المتعالية بأسى وهو يرى كل ما بناه من أحلام وسقاه بدمه وجهوده يهوي في مستنقع الخيانة . لم يكن يكره ويحتقر في حياته أموراً أكثر من الخيانة وبيع الذمم واغتيال الضمير . . لذلك استجمع قوته كلها وركل السيف من يد الخائن هاتفاً :

– على جثتي . .

واشتبك معه في قتال غير متكافئ ألبتة . . الدماء النازفة . . الدوار العنيف . . الجسد الممزق . . الفكر المشوش . . القلب المكلوم . . الأحزان التي تصهر الحديد . . أمور كانت كضباع تكالبت على أسد جريح أشاخه توالي الفجائع . .

كانت ضربات الخائن تقض من قوته . . تستنزف روحه الوقادة . . تدك كيانه الشاهق . . تقلع بنيانه حجراً حجراً . .

سقط أرضاً . . هم بالقيام كما اعتاد أن يفعل في معاركه الكثيرة . . لكنه لم يستطع . . حتى أجساد الأبطال خلقت من فخار تشطبه كثرة الطرقات . . لقد نضبت قوة التحمل التي ميزت

بتار عن أقرانه من الفرسان . . ورغم ذلك أبى الموتَ إلا مقاتلاً . . أطبق بما تبقى من عنفوانه على حنجرة الجاسوس . . اعتصرها بأصابع قد نضب وقودها . . خبا لهيبها وبقي من البركان اسمه وشكله . . انهال الخائن على الأسد الجريح بلكمات ثقيلة فجرت الدماء من فمه وأنفه ، وجعلت قبضة بتار التي قصمت باغين كثر ترفض الانصياع لإرادته الحديدية ، وتخر مرغمة إلى جوار جسده المدعوك بالمواجع . .

كان يتلقى الضربات بجسده فقط . . أما روحه التي قلّت أواصرها بجسده المثخن فحلقت بعيداً في سماء الذكريات . . تنقلت بسرعة توارد الخواطر بين مراحل العمر الطويل . ووضعت أجنحتها الهلامية في نيروديس حيث طافت حول كوخهم القديم وسط حقل القمح الذهبي ، وتوقفت عند اللحظة التي وضع فيها بتار رحله على جواده استعداداً للانطلاق إلى غلوريا من أجل أن يلتحق بالفرسان . . وقفت والدته تغالب دمع الفراق المتدافع في حدقتيها . . قالت له :

– سترحل ؟!

قال الرجل المتقوقع في جلد الغلام :

– أجل يا أمي . . لكل ما زرعتموه في قلبي وعقلي . . سأرحل إلى حين . .

قالت من وراء قلبها :

– صُن الحليب الذي أرضعته لك يا بني . . .

وقالت كلاماً نسيه تحت وطأة الضربات . . كان الرضا يملأ قلبه . . لقد صان الحليب . . وأدى ما عليه من وفاء . . لم يعد بعدها إلى نيروديس . . ولم يرَ والدته ولم يقف على قبر والده . .

ظل يتنقل من جبهة إلى أخرى . . ها هو الآن يسلم الروح في معركته الأخيرة . . تمنى لو تمكن من العودة إلى أمه ليروي لها ماذا حقق حليبها من إنجازات . .

كان الخائن يضرب ويبرر لبتار أسباب الخيانة . . كان يلعن الإمبراطور ، ويلعن أركاديا وسكانها ، فخوراً أن كان سبباً في انهيارها وسقوطها في براثن الاحتلال . . يلوم بتار على إخلاصه وتفانيه . .

في الحقيقة لم يكن ثمة عذر يبيح الخيانة في قاموس بتار . . كان الخائن يعلم ذلك وينقمه عليه . . لذلك بالغ في كيل الضربات تشفياً من القائد العنيد . .

تناهى صوت من آخر الممر . . كان صوت حمزة ينادي أباه . . لا يدري أحقيقة أم من نسج الخيال . . لكن صدره انشرح لسماع صوت ابنه لآخر مرة في حياته . . تدفق الحنان في شرايينه وروى أوردته وغمر قلبه وكيانه . . خشي أن يأتي فيقتله الخائن . . لكن روحه عاودت التحليق . . هذه المرة خالفت الاتجاه . . طارت صوب المستقبل . . كانت أرواح السماء تأخذ بأجنحتها عكس التيار الأزلي . . فرأى مشاهد كثيرة جعلت أغصان الأمل تورق في داخله وحاتّت أشواك التشاؤم . . افترت شفتاه عن ابتسامة سعادة براقة . . وأطلت من حدقتيه نظرة رضا وحبور . .

أحس بخفة تعتري جسده المرهق . . رأى القاتل من علوٍ كنملة ضئيلة . . رأى المدينة المعجونة بالشقاء تئنُّ بالموت والنكال . . رأى استفاقة الأرض على الفجائع . . رأى وشاح الشفق كثيفاً على كتف السماء حداداً على ما تشهده من فظائع . . سمع تهويمات الأرواح الجارية بين السحاب . . رأى وجوهاً كثيرة عرفها ذات يوم . .

رأى أباه أكثر شباباً متكئاً على مسحاته يستقبله بنظرات الفخر . . وهناك خلفه . . عند بوابة الشمس . . كانت حورية جميلة جالسة على مربض الريح . . تغسل قدميها في قوس قزح الذي يمر من تحتها . . كانت زوجته أشواق . . ألفاها تغزل تاجاً من أوراق الغار بيديها المكللة بالذهب والياقوت . . فابتسم . . وابتسمت . . وضعت التاج على رأسه . . وتلاقت أعينهم بحنين . . همس لها : «الآن أستطيع الراحة» . . واندمجا في عناق حميم . . .

قام الخائن من فوقه بعد أن أعياه الضرب المتواصل . . ذهب ليلتقط سيفه الملقى قرب الجدار . . اقترب من بتار بخطوات رفرفت لوقعها خفافيش الغدر وغربان الخيانة . . نظر مطولاً في عينيه المضيئتين بالسعادة . . ظل يروزها وهو يغرس النصل في صدره ببطء شديد . . أساءه عدم ظهور أي أثر للألم في عيني قتيله . . سحب النصل وأغمده مجدداً في مكان آخر . . فلم يحدث الأثر الذي كان يرجوه . . طعنه بجنون حتى مزق صدره وتلطخ بدمائه . . كانت الروح قد فارقت جسد بتار قبل أن يطعنه الجاسوس . .

ثم وقف . . نظر للمرة الأخيرة لأطلال البطل . . حبس دمعة كادت أن تفر من عينيه . . كان يعلم أن تلك النظرات الناضحة بالسعادة المزدانة بالابتسامة ستلاحقه في الليالي الحالكات لتحرمه رفاهية النوم بأحلام هادئة . . .

«أبي . . » جاء صوت حمزة من نهاية الممر مبللاً بالقلق . انقبض قلبه فجأة وشعر بتيارات أقامته من مجلسه . مشى يجر الحربة الثقيلة خلفه صوب حجرة الإمبراطور . . لم يرعه إلا أن رأى جسداً مسجى على الأرض يسبح في الدماء . ألقى الغلام الحربة وركض نحو الجثة . . لكن ركضه انقطع حين رأى وجه صاحبها . . .

« أبي . . » خرجت من حلق الغلام كفراشة أصاب الوهج جناحيها بالحرق وقد كانت تستجدي منه الدفء والأمان . . مادت به الأرض . . صارت رخوة كالصلصال . . انكب على الجسد يحركه عسى أن يجد فيه رمقاً للحياة . .

« أبي . . » مجدداً خرج النداء عقيماً كجناحي فرخ سقط من علوٍ وهو لا يتقن الطيران . . تأمل العينين المفتوحتين على القدر . . كم نهل من معينها لكنه لم يصل للارتواء . . ما زال عطشه منحوتاً في صدره كوشم متلظٍ والبيدر أمامه قد باغته الجفاف . .

«أبي . .» صرخها بصوت قد شاخت نبراته وتكسرت خلجاته وشقق الجفاف المفاجئ أديمه الذي كان يعج بالحياة . .

«أبي . .» نفذت الصرخة الأخيرة من صدره بركاناً فتياً لم يناهز الهيجان ولم يعرف كيف يصرف الحمم المحتدمة في مشاعره المرهفة الحديثة على بشاعة الواقع وعنفوان الأقدار . .

لم يمت أبوه . . بل مات عالمه كله . . مات معلمه ومدربه وقائده ومثله الأعلى . . مات فجأة ليقصم رغبات كانت تجيش في صدر الفتى يريد أن يبوح بها لأبيه . .

سمع خطوات تقترب . . فارس ممشوق متشح بالظلام . . توقع أن يكون القاتل قد أعاده صوت نحيبه . . ركض لحربة أبيه إرثه المادي الوحيد ، وبقية التركة تجري في دمائه . . رفع نصلها وبقي العقب على الأرض . . توقفت خطوات الفارس أمام جثة بتار لبرهة قبل أن يلتفت إلى حمزة بوجه ستره قناع وبقايا الظلام . . اندفع الغلام نحوه بالحربة مطلقاً صرخة هجومية عنيفة . . لكن الفارس تفاداه بسهولة ، وكال ضربة لحمزة أسقطته مغشياً عليه . . حمله الفارس بيد وبيد أخرى حمل الحربة المشرشرة وتوارى في ظلام الممر . . .

في المدينة غصت الشوارع والأزقة بجيش ركساس العرمرم . على عكس دخولهم الدموي في غلوريا كانوا هادئين ؛ فلقد كفتهم كتيبة الأرغل عناء الفتك بما تبقى من مظاهر المقاومة . .

سار شاكان على حصانه الأدهم وسط كبار فرسانه متجهاً إلى القصر الإمبراطوري ليتسلم مقاليد البلاد . استقبله الأرغل على البوابة رفقة بعض الجنود النانا كروبين . ترجل شاكان وجنوده من مطاياهم ، فقام الأرغل بعناقه مهنئاً إياه تمام جهادهم ضد طغاة أركاديا . .

سارا جنباً إلى جنب في ردهات القصر تشعيهم نظرات الوجل المطلة من محاجر الخدم والعمال .

ارتقوا الدرج إلى الطابق الثاني حيث جناح الأسرة الإمبراطورية ، وجناح الحاكم علام ، وغرفة بتار . عندما مروا بجثته نظر إليها شاكان ملياً . جذبه من تلابيب قميصه الممزق بالطعنات وتأمل ملامح وجهه وكأنه يتأمل وجه شخص حي . أدخل إصبعه في عينه اليمنى واقتلعها من مكانها وقام بسحقها بقدمه . ألقاه أرضاً وأخذ حربته (الأسد الذهبي) وثبتها على عنق الجثة ، وبقدمه ضغط على النصل حتى انفصل الرأس عنها . حمل الرأس من الشعر والدم يتقاطر من العنق المبتور . ناوله بعض الجنود قائلاً :

- خذوا رأسه ورأس النعمان وطوفوا بهما البلاد ليعرفوا مصير من يقاوم جيوشنا المجيدة .

قال تيهاد وزير شاكان :

- وماذا عن جثتيهما يا مولاي ؟

- اصلبوهما على بوابة المدينة .

وواصلوا المسير إلى الجناح الإمبراطوري ، حيث كان الجميع

موجوداً ، الإمبراطورة المنكبة بكاء ونواحاً على جثة زوجها الجاحظ العينين المنحور الرقبة . وثريا المنهارة على المقعد شاحبة الوجه المنخرطة في النحيب ، تجلس وردة بنت البتار إلى جوارها تواسيها بالتربيت على كفيها . الجارية التي كانت تطبب الإمبراطور تقف إلى الجدار مذهولة النظرات يرتجف جسدها النحيل من رأسها إلى أخمص قدميها . علام واقف قرب السرير ينظر بخضوع إلى شاكان وجنوده . وبالقرب منه نصار يجز على أسنانه غيظاً وحنقاً . ما أن رأى شاكان يدلف من الباب حتى انقض عليه ، لكن الحرس أوسعوه ضرباً وركلاً حتى سقط أرضاً خائر القوة ، فجردوه من سيفه وأوثقوه بالأغلال . .

قال شاكان ببرود ملكي :

– من قتل الإمبراطور يا علام ؟

أجابه :

– لا أدري يا مولاي . كنت في جناح الإمبراطورة حين دخلت عليّ الجارية تصيح بالخبر .

اقترب شاكان من الجارية بخطواته المهيبة ، سألها ذات السؤال فكادت أن تخر مغشياً عليها من الخوف . أجابت :

– القائد بتار يا مولاي . . دخل مرتدياً قناعاً ، ونحر جلالته بسيفه .

– إن كان يرتدي قناعاً كما تقولين ؛ فكيف عرفتِ أنه هو ؟

– من دثاره يا مولاي . . . ولأنه قال وهو يغادر الحجرة : «سيتحدث التاريخ أن بتار قتل الإمبراطور النعمان» . ذلك ما حصل وأقسم بالسماء . .

التفت شاكان إلى علام قائلاً :

- إذن كان قائد جيوشكم خائناً يا علام . .

أطرق علام برأسه ولم يحر جواباً ، لكن وردة بنت البتار هتفت :

- أبي ليس خائناً أيها المجرم .

نظر إليها الجميع بدهشة واستنكار . تقدم منها شاكان فاحتضنتها ثريا وكأنها تريد حمايتها . كانت الفتاة اليافعة تتطلع في عيني شاكان بتحدي لا يتناسب مع كيانها الرقيق . جذبها من شعرها بعنف . وصفعها صفعة قوية نثرت الدماء من شفتيها . . قال شاكان :

- أهي ابنة بتار ؟

لم يرد عليه أحد ، فكرر السؤال بحدة أكبر موجهاً إياه إلى علام الذي أجاب :

- نعم يا مولاي . .

احتضنت ثريا وردة وهي تهتف :

- الرحمة يا مولاي . . لم تقصد ما قالته . . اندفاع طيش سببه حزنها على موت أبيها . .

وظلت تستجدي رحمته على الفتاة الصغيرة ، لكنه التفت إلى رجاله قائلاً :

- اقطعوا لسان هذه الفتاة ثم خذوها إلى ركساس لتكون خادماً لأمي الملكة . .

فانتزعوها بكل قسوة من ذراعي ثريا التي سقطت أرضاً محاولة التشبث بوردة ، التي أخذها الجنود بكل قسوة لتنفيذ أوامر قائدهم ، تُردد الجدران الكئيبة صدى صرخاتها العاجزة . .

اقترب شاكان من الإمبراطورة وجذب شعرها ليجبرها على

النظر إلى وجهه ، تفرس ملامحها التي لم يستطع الحزن أن يقلل من ملاحتها وجمالها .

ترك شعرها الذهبي ومسحه بحنان وهو يقول لها بنبرة أكثر رقة :

- قلبي معكِ أيتها الإمبراطورة . . لم أكن أريد أن أقتل النعمان . . كنت سأعزله فحسب . . لكن ذلك الخائن اللعين بتار قام بفعلة شنيعة تندك لها الجبال الشامخات . .

نظرت إليه برعب نشأ من التغير العجيب في موقفه ، فيما استطرد هو :

- لا أجد لجلالتك مواساة أكبر من أن أبدلك زوجاً في مثل مكانته . .

والتفت إلى رجاله مبتسماً بخبث :

- أو أفضل بكثير . .

أُلجم لسانها وهي ترى في الأفق ما يصبو إليه الأمير الذي قال :

- سأتخذك زوجة لي أيتها الإمبراطورة . . سأصنع منكِ ملكة تتحدث ملكات الأرض عن مكانتها ومنزلتها الرفيعة . . ما رأيكِ؟

لم تستطع الرد على سؤال ليس له إلا جواب واحد لا يمكن أن تجريه على لسانها ، فعاد شاكان ليسألها مجدداً بنبرات مجردة من الرقة :

- موافقة ؟

فهزت رأسها بالموافقة قبل أن تنهار بالبكاء . قهقه شاكان بصوته الأجش ، ثم اقترب من علام قائلاً :

- ها قد أصبحنا أصهاراً يا علام ، ولا يمكن لمثلي أن يقتل أو يسجن صهره . أليس كذلك ؟

قال مطرقاً :

- منكم تتعلم الأخلاق يا مولاي . .

- سأعتقك يا علام وأكرمك . . على شرط واحد . .

- وما هو يا مولاي ؟

- أن تركع أمامي الآن وتقسم على الولاء لي ولملك ركساس . . افعل ذلك وسأعتقك وأكرمك ، وأفك إسار شقيقك زيدون . .

بكل صعوبة ركع علام بركبة واحدة بين يدي شاكان وبدون أن يرفع رأسه قال وكأنه يبصق الكلمات :

- أقسم على الولاء لك أيها الأمير ولجلالة ملك ركساس . .

ربت شاكان على كتفيه قائلاً :

- أحسنت يا صهري . . سأبالغ بإكرامك كما ينبغي الكرم للأصهار . . سأنصبك والياً لي على سيسليا . . وسأزوجك الأميرة ثريا . .

امتعقت وجوه الحاضرين دهشة وخصوصاً علام وثريا . . قال الأول :

- اعفني يا مولاي من الولاية . . أما الزواج فإن وافقت الأميرة فلا بأس . .

قال شاكان حاسماً الموضوع :

- إما أن تقبل فتكون لك زوجة حرة ، أو أهبك إياها جارية ملكاً ليمينك ، الخيار لكما . . أما الولاية فلن أجد أفضل منك يا صهري . .

وسار خطوات صوب نصار المطروح أرضاً ووضع قدمه على

رأسه قبل أن يقول :

- أما هذا . . .

قاطعته الإمبراطورة هاتفة :

- أرجو أن يكون صفحك عنه مهري يا مولاي . .

قلب شاكان الفكرة في رأسه قبل أن يقول :

- من أجلك أصفح عنه يا زوجتي القادمة . . على نفس الشرط الذي اشترطته للعفو عن عمه علام . .

قال نصار وكأنه يبصق :

- على جثتي . .

قهقه شاكان عالياً وقال :

- عنيد كأبيه . . ألقوه في السجن عسى أن تُلين رطوبة الجدران عناده . .

وألقى عدة أوامر تكفل سلامة زوجته المقبلة وأخيها علام وعروسه ثريا ، ثم انطلق مع رجاله ليعود إلى المدينة . . قال في طريقه لتيهاد :

- ألم تجدوه ؟

- بعد يا مولاي . .

- فتشوا البيوت بيتاً بيتاً . . المهم أن تجدوه قبل أن يختفي هو والجارية اللعينة . .

- أمرك يا مولاي . .

سار برهة ثم قال بغلّ واضح :

- والغلام ؟!

- اختفى أيضاً يا مولاي . . لكننا جندنا كتيبة كاملة للبحث عنه حول المدينة . .

تحسس العصابة على عينه اليمنى وهو يقول :

- جرحي ما زال يؤلمني يا تيهاد . . لم يشفِ غليلي ما فعلته بأبيه وأخته . . أريد رأسه لأجعله كأساً لشرابي . .

- أين سيفلت منا يا مولاي؟ سيحضره الفرسان ولا ريب . هي مسألة وقت فقط . .

- أيها الأرغل .

تقدم الأرغل من شاكان قائلاً :

- أمر مولاي . .

- أنا كلمتي من ذهب . . ستحظى بدولة كاملة أقصى الجنوب الغربي كما هو متفق تتكفل ركساس بحمايتها لقاء خمس خراجها سنوياً .

- كنت أطمع بثريا زوجة لي أيضاً يا مولاي . .

ضحك شاكان وهو يقول :

- لا تكن طماعاً يا أرغل . . اختر لنفسك ما تشاء من حسناوات سيسليا ولا تتدخل في ترتيباتي . .

- أمرك يا مولاي . .

- تيهاد . .

- مولاي . .

- أريد أن ينتشر في الأرض بأسرها أن البتار قائد الجيوش الأركادية خان الأمة وقتل الإمبراطور ونال جزاءه على ذلك ، وظّف الشعراء والقصاصين لنقل هذه الأخبار . . لا أريد أن تنجلي هذه السنة وأحد يذكره بخير . .

- أمرك يا مولاي . .

- أمر أخير . . أرسل الأخبار إلى أبي في بلاط ركساس . .

- أمرك . .

توقف شاكان مع رجاله على بوابة القصر المشرفة على المدينة الحزينة يتأملونها وهي تنسلخ من جلدها القديم لترتدي جلداً جديداً قد لا يناسب مقاسها . .

كانت أركاديا قد انتهت بسقوط سيسليا وموت الإمبراطور . . تلك هي الحقيقة التي أدركها السكان الذين أثقل الذل جفونهم وأحنى ظهورهم ورؤوسهم . .

لقد وضعت الأساطير أجنحتها عند بوابة التاريخ إجلالاً للفارس الذي ترجل عن صهوة المجد وتبوأ مقعده بين النجوم ليدفئ السماء بوهج بطولاته المضيئة . .

***

# القسم الثاني

# الفطام

# الفصل الأول:
# العنقاء تستجم تحت الرماد

لو قيل لكم : إن المياه فقدت قدرتها على الإرواء . . فقدت المشاعل قدرتها على الضياء والإدفاء . . تجمدت الأنفاس في عروق الرياح . . أُجهض المطر في رحم الغيوم . . تشققت السماء وسقطت شظاياها خلف الجبال . . القمح نما تحمل سنابله ثماراً سامة بشعة كرؤوس الأفاعي . . .

بمثل هول تلك الأمور ـ إن حصلت ـ وقع خبر موت الإمبراطور النعمان على سكان البلاد . . كان الأمر بالنسبة لهم نعياً لإمبراطورية دام ملكها ستمائة عام . . كانوا مثل كواكب مجرة انطفأت شمسها فجأة ، فصاروا عالة على المجرات يشحذون الدفء والنور .

كان النعمان أكثر من حاكم مَلك قلوب شعبه عشرين عاماً بطيبته وعدله وحسن سياسته ؛ كان الرمز الذي يقاتلون من أجله ويصطفون تحت لوائه ، وبقيادته سيسعون لاستعادة البلاد وطرد الغزاة المحتلين . .

لكن موته اغتال الأحلام قبل أن تولد ، وأد الأماني ودفن الآمال واجتث الإيمان من جذوره العميقة . . دخل رأسه المقطوع إلى المدن كطاعون أسود فتك ببقايا التفاؤل في القلوب . . جسده الذي صُلب على مدخل سيسليا شهوراً قبل أن يتعفن ويُلقى

للوحوش الهائمة كان بمثابة النصل الذي ينحر الرغبة حتى في المقاومة . .

كان العرافون والكهان قد تنبؤوا بسقوط أركاديا واضمحلال حكم ملوكها يوم انخسف القمر قبل أيام من ولادة العزيز بن النعمان . لكنهم لم يتصوروا سرعة ذلك السقوط ، أو أن يكون بمثل هذه القسوة ، وأن يبلغ تعداد الضحايا ما بلغ . .

لم يتصور أحد على الإطلاق أن يكون الخائن هو القائد بتار الذي تغنت البلاد بأمجاده طويلاً . لكن رأسه المسافر كغراب بين المدن كان يشهد على ذلك . الأشعار والقصص التي نُسجت بإيعاز من تيهاد وزير شاكان أقنعت كثيراً من السكان . .

حين وصل رأسه قريتنا رفقة فرسان ركساس ، سألت أبي عن حقيقة القصة فقال :

- أكثر ما يسعى إليه الغازي - إن أراد التمكين - أن يدنس صورة ألدّ خصومه . .

نعم . . بتار كان فارساً لم تشهد البلاد مثله نبلاً وشجاعة ووفاءً للإمبراطورية وللإمبراطور . لذلك سعى الركساسيون جهدهم أن يزجّوا بمآثره في كُنف الخيانة . . أن يجعلوه سواءً بسواء مع المجرمين والخونة الأنجاس الذين يبيعون تراب أراضيهم نظير أي شيء . . فالقذر يبقى قذراً ولو غلفه الذهب . .

اختفى ولي العهد العزيز بن النعمان . . هربت به شروق بعد أن شعرت بالخطر المحدق به ، في الحقيقة لم تكن لتهرب لولا أن أقنعتها بذلك الأميرة ثريا التي شعرت بدنو أجل شقيقها ، فخشيت أن تسقط البلاد ويقتل الغزاة العزيز فتندثر السلالة الإمبراطورية ولا يعود أحد للمطالبة بحقهم في حكم البلاد .

لذلك أعطتها صرة من الذهب وأوزعت إليها الهرب غرباً إلى أي ملاذ آمن لا تطاله فيها سيوف الطلب ، وأوصتها بتنشئة العزيز على الفروسية والرجولة ليقود الأمة يوماً ما في جهادها لاستعادة كيانها . .

شاكان كان حريصاً على صهر الأركاديين في الكيان الركساسي . عين على المدن السليبة ولاة مقتدرين من أصل أركادي ، كما اتخذ منهم وزراء ومستشارين قربهم من بلاطه ، ضم الراغبين من فلول الجيش الأركادي في الجيش الركساسي ، وعفا عن المعتذرين ووهبهم أراضي صالحة للزراعة .

أما كبار القادة من الناجين فألقى بهم في سراديب السجون . كان منهم زيدون وعدنان وهاشم وغضنفر ، زيدون أخرجه ليشهد الزواج الأسطوري الذي سأحدثكم عنه وقربه منه ليكون وزيره كما كان وزيراً للنعمان . .

عدنان أيضاً وافق بعد إلحاح من زيدون وهاشم على قبول منصب حاكم مدينة راهوا في شمال شرق النهر الأبيض .

أما هاشم وغضنفر فخيرهما شاكان بين الولاء له أو أن يرسلهم إلى ركساس حيث يباعون في سوق الرقيق ، فأقسما على الولاء بشرفهما ، هاشم أرسله شاكان للانضمام إلى كتيبة في الشرق ، وغضنفر صار جندياً في الحرس الإمبراطوري بالعاصمة غلوريا .

أما نصار فأبى الولاء لمن قتل إمبراطوره رغم شفاعات أبيه المتتالية ، لذلك ظل في سجن فرايدن ـ غرب سيسليا ـ مدة طويلة جداً . .

أقام شاكان له ولعروسه الإمبراطورة السابقة نور زفافاً باذخاً يليق بولي عهد الإمبراطورية ، تزينت غلوريا شهراً بأكمله استعداداً

لاستقبال العروسين الملكيين . رُصفت الشوارع بالزهور ، وتعلقت الزينات على الجدران ، وتسربلت الأشجار بالقناديل الملونة ، وصدحت المعازف بألحان الأفراح ، ووزعت الولائم على الأهالي ، ودُعي أفراد الشعب للحضور من كل المدن ليحصلوا على الهبات التي رصدها شاكان للحاضرين .

حضر الزفاف ملك ركساس الذي أصبح إمبراطوراً بسيطرته على أركاديا . كان الإمبراطور طاعناً في السن ، يبدو العنفوان في وجهه ويطل من عينيه ، ولم تحضر زوجته الإمبراطورة خشية أن يفاقم السفر مرضها المزمن .

حضر أيضاً سلطان ناقار وملك إقرشانيا وأمير إقليم ناناكروبا الأرغل ، كان الثلاثة يشتركون في الخوف من بطش شاكان ودفع الجزية لإمبراطورية ركساس خشية الإغارة عليهم . فأركاديا كانت الدولة الوحيدة القادرة على حفظ توازن القوى في المنطقة سقطت تحت جحافل الركساسين ، فما الذي سيحصل لهذه الدويلات الصغيرة إن تطاولت بأعناقها ؟

كان زفافاً رهيباً بحق ، نُصبت في باحة القصر الإمبراطوري مقصورة عالية تحمل كرسيين موشيين بالزينة والتهاويل ليجلس عليه العروسان ، يقود إليها درج طويل مفروش بالجوخ الأحمر نثرت عليه ورود مختلفة الألوان ، تقف على جانبيه صبيات متشحات بالبياض يحملن شموعاً وأزهاراً لرميها على العروسين حال وصولهما .

جلس كبار المدعوين على موائد تزخر بما لذ وطاب ، يطوف عليهم الساقة بأجود نبيذ كان مخزناً في القِباء الملكية . أما العامة فنصبت لهم مدرجات تشرف على الباحة الإمبراطورية ينظم

جلوسهم ودخولهم الحرس الإمبراطوري . كُتب لي يومها أن أكون معهم رفقة أبي .

جُلبت أفضل الفرق الموسيقية من أنحاء ركساس لعزف أفضل الوصلات ، كما قامت فرقة من الجواري باستعراضات راقصة أبهرت الحضور . وأدت فرقة مسرحية مشاهد تمثل اغتيال بتار للنعمان وسقوط البلاد وصعود نجم ركساس . وصدحت أصوات القِيان بأجمل الأشعار التي تتغنى بفروسية شاكان وقوته ، وتتغزل بجمال الأميرة نور . .

وبعد ذلك أعلن المقدم عن وصول الأميرة ريفالا زوج الأمير شاكان الأولى ، فعزفت الفرقة الإمبراطورية لحناً عذباً لاستقبالها ، وقام الحضور إجلالاً لها وتبجيلاً . . فجاءت تخطر على الممر بين القصر والمكان المخصص لها بين كبار المدعوين . .

كانت ريفالا آية في الجمال . . شعر أصهب عُقصت جدائله ككرتين على مؤخرة رأسها ، وعيون خضراء كجبال أركاديا ، ووجه أبيض مشوب بحمرة الورود ، كانت ترفل في فستان حريري خمريّ اللون . . حقيقة خطفت بأبهتها أعين الحاضرين .

حين تبوأت مكانها في المقصورة توافد المدعوون لتقبيل يدها ، وتهنئتها على زواج صاحب السمو . .

بعد ذلك عزفت الفرقة لحن الزفاف ، واشرأبت الأعناق لرؤية العروسين الملكيين ، خرجا من بوابة القصر تسبقهما فرقة راقصة ، كانت الأميرة مرتدية ثوباً أبيض موشّى بخطوط ذهبية ، عليها طرحة شفافة أخفت كثيراً من شحوب وجهها رغم مساحيق الزينة التي أثقلت بشرتها . أفقد الحزن الأميرة كثيراً من وزنها حتى بدا الفستان فضفاضاً عليها . .

سار الزوجان تكللهما الموسيقى والتصفيق وعبارات الإعجاب وزهرات الياسمين التي ألقتها كفوف الصبيات .

اتخذ العروسان مكانهما في المقصورة ففرقعت الألعاب النارية ، وراحت الفرقة تعزف أجمل مقطوعاتها . ورقص الرجال والنساء ابتهاجاً بالعرس ، كل الأعراس مبهجة ، حتى تلك التي تخرج من رحم الفجائع ، الناس دائماً متعطشون للفرح . .

لا أدري كيف نسي أولئك المبتهجون أن تلك العروس التي يرقصون في عرسها كانت قبل ستة أشهر فقط زوجة إمبراطورهم؟ أدركت الأمر عندما بكت امرأة على مبعدة من مجلسي ، فسألتها جارتها عن السبب فأجابت :

- تذكرت الإمبراطور .

فوكزتها الجارة ونهرتها عن تكرار مثل هذا الكلام حتى لا يطالهما العقاب . .

نعم ليس كل رقص نتاج فرحٍ وبهجة ، هناك طقس من الرقص تهتز الأجساد فيه من الألم أحياناً . . ومن الخوف أحياناً أخرى . .

بعد انتهاء المراسم قام كبار المدعوين بتهنئة الزوجين الجديدين ، كان في طليعتهم إمبراطور ركساس ، لثم شاكان يده ، وكذلك فعلت نور .

وحين صعد زيدون وعلام وعدنان المنصة وهنؤوا العروسين أدرك الجميع أن الكيانين انصهرا في كيان جديد . . لم تكن تهنئة أبداً تلك التي تمتموا بها إلى الأميرة . . بل كانت نعياً . . نعي زوجها الراحل الذي لم تدفن بعد ذكراه في قلبها . . ونعي التراب . . تراب أركاديا . . .

أبى والدي أن نطعم من لحم الولائم التي انتشرت في باحات

المدينة ، كان يرى النهش من تلك الموائد مثل النهش في لحوم الشهداء . . غادرنا المدينة في أول عربة مغادرة نحو قريتنا ، قلت لأبي في الطريق :

– هل هذه نهاية أركاديا؟ هل يعقل أن تنتهي دولة دامت ستمائة سنة في غضون سنتين ؟

قال :

– بل هو مخاض رهيب عانته البلاد وانتهى . نتجت عنه شمس صغيرة تدب على الثرى . ما أن تتم رضاعتها وتستوي على سوقها حتى تُبدد الظلمة عن آكام البلاد وتعود الروح إلى كيان أركاديا . . .

حينها لم أفهم ما عناه أبي . . وظننت أنه متفائل كعادته . . لكن بعد سنوات خمس أبصرت حقيقة مراده . . رأيت شمساً ليست ككل الشموس . . شمس بزغت من كُمّ الغروب . .

الأركاديون بطبعهم يحبون السلام . . يركنون إلى الدعة والراحة حين يجدون اليد الحانية التي تهدهدهم . . لذلك استكانوا ـ تقريباً ـ للاحتلال الركساسي بعد أن تزوج شاكان أرملة مليكهم ، وعيّن عليهم بعضاً من بقايا حاشيته ، وترك لهم حرية الديانة ، وأمّنهم على دورهم وأملاكهم ، وأصدر المراسيم التي ـ ظاهراً ـ تبقي لهم شيئا من كرامتهم واستقلاليتهم عن الكيان الركساسي . . لكن عقولهم البسيطة لم تفطن إلى خبث ما ذهب إليه شاكان . .

لقد كان شاكان داهية حقاً . . حاول جاهداً أن يسلخ أركاديا من نفوس شعبها وهم يبتسمون رضا وحبوراً ، بل ويستجدونه لمواصلة ذلك السلخ إن توقف أو تباطأ . .

ذاك ما كان يصبو إليه شاكان ويخطط له بمعية أعوانه ووزرائه ،

أن يجعل الأركاديين يدينون له بالولاء الشديد . حتى يكونوا هم أول ترس يتترّس به أمام أي محاولة للثورة أو غزو لأركاديا . .

في الحقيقة ما كان لينجح لولا أن وجد في نفوس الأركاديين الاستعداد الفطري للاحتلال ، فولاؤهم كان على الدوام للإمبراطور ، وما كان لحظة لدين أو أرض أو رمز لا يتبدل بتبدل الملوك . . لذلك استغلّ شاكان هذا الأمر جيداً ، ونصّب نفسه رمزاً جديداً للشعب المكلوم ، فاحتل - على مهل - مكانة مليكهم الراحل . . حتى أنه كان جلياً أن ولاء الأركاديين كان لشاكان أكثر من ولائهم لوالده إمبراطور ركساس . . وسيظهر أثر هذا التفريق في الأحداث القادمة . .

أعجب ما مرّ عليّ بعد سقوط سيسليا ، هو تصديق الشعب لفرية أن بتار الفارس العظيم ، قائد جيوش الإمبراطورية كان هو الخائن الذي سلم مفاتيح البلاد للركساسيين ، وأنه هو قاتل مليكهم السابق ، وأنه هو المسؤول الأول والأخير عن كل قطرة دم أهريقت في الحرب المستعرة التي دامت سنتين كاملتين . .

بتلك الفرى استطاع شاكان وجنوده أن يدمروا أسطورة بتار -القائد العظيم- ويقتلوا في المهد حقيقة أن للملك ولد ضائع ، قد يعود يوماً للمطالبة بحقه السليب . . فمن سيرضى بملك ابن زنا ؟

إشاعة علاقة نور مع بتار في البدء أغضبت شاكان أن تتلطخ سمعة زوجته بجريمة لم ترتكبها ، لكن وزيره تيهاد أقنعه بجدوى انتشار الإشاعة ، إذ ستبقى إشاعة لا ترقى لأن تكون واقعاً ملموساً ، وستنهي كل أمل في عودة العزيز طالباً للحكم ، إذ باءت كل المحاولات الركساسية للعثور عليه بالفشل . .

فما هي إلا أشهر قليلة ويُنعى جهاد بتار الطويل الذي دام

خمسة أعوام ، قاتل فيها أعداء الإمبراطورية من جبهة إلى أخرى ، وصد كل محاولة طاغية لاحتلال البلاد ، لكن مشكلة بتار أنه لم يكن يرى العدو الكامن في صفوف أركاديا ، ذاك هو العدو الوحيد الذي استطاع اختراق دفاعات الفارس المنيع . لو تفطن له بتار لربما تمتعت به البلاد طويلاً ، ولربما تأخر ذلك الدمار عن البلاد دهوراً مديدة . . لكن للسماء تصاريف لا تخطر على بال أحد . .

كان مآل رجال النعمان بعده إلى تبوؤ مناصب راقية في البلاط الركساسي ، توافقاً مع خطة شاكان في صهر الكيان الأركادي في الكيان الركساسي ، فقرب منه زيدون وجعله أحد أقرب وزرائه ، ونصّب علام حاكماً على سيسيليا ، متمتعاً برغد العيش في حضن الأميرة ثريا ، وعين عدنان حاكماً على مقاطعة راهوا شرق البلاد ، وكوّن كتيبة من فلول الجيش الأركادي وأوكل قيادتها إلى هاشم بن عدنان ، أما غضنفر شقيق بتار فعينه قائداً في الحرس الإمبراطوري الخاص بشاكان تحت إمرة قائد شاب اسمه ليون هو الشقيق الأصغر له .

بقية القادة الشجعان كان مصيرهم السجن حتى يعترفوا بأحقية الركساس في الحكم ، ويقسمون على الولاء لهم ، فينالون منحة أرض وجُعلاً يكفل لهم حياة كريمة . أما أولئك القلة ، الذين قادوا فرقاً للمقاومة ، فقد دمرهم الجيش الركساسي شر تدمير ، وبالغ قادته في تعذيبهم وتقتيلهم ، ولم يقبلوا منهم اعتذاراً أو استسلاماً ، بل جمعوا جماجمهم ، ونقشوا عليها أسماءهم ، وطوفوا بها أنحاء البلاد . ولم يكتفوا بذلك ؛ بل نكلوا بعائلاتهم وكل من له علاقة بهم ، ليكونوا عبرة للمعتبرين . .

من أولئك الذين أبوا الخروج من السجن نصار بن زيدون . .

زاره والده مرات كثيرة في السجن محاولاً ثنيه عن إصراره العقيم، لكن الفارس الشاب كان يرفض حتى الكلام مع والده، رامياً إياه بالخيانة لأرض أركاديا ولدماء الشهداء ولصديقه القديم الإمبراطور النعمان، فحدثني بعض الحراس أن زيدون كان يغادر السجن ودمعته معلقة على خده.

أما ذلك الفتى الصغير.. الذي كُلم في والده.. فاقئ عين الأمير شاكان.. حمزة بن البتار.. فكان له شأن مختلف.. شأن سيكون له أثر كبير في سير الأحداث التالية، وتشكيل أبرز معالمها..

***

مع غروب الشمس في راهوا اشتعلت الأضواء . . كل أهل بيت نصبوا على أسطحتهم وأفنيتهم وأبوابهم سرجاً ملونة ، وأضاءت المدينة شوارعها وزيّنت طرقاتها ، وألبس الأهالي صغارهم أجمل الملابس ، ورفلت الفتيات في أبهى الحلل ، وخرجوا جماعات إلى الساحة الكبرى في منتصف المدينة ، فازدحمت الشوارع المؤدية إليها بالعربات والخيل ، وعلى الجنبات اصطفت موائد الباعة بما لذ وطاب من المأكولات والأشربة والتُحف والمطرزات والأعلام والقبعات والأقمصة التي تحمل شعار الإمبراطورية .

الساحة الكبرى كانت واقعة بين عدد من المباني ، شاسعة وفسيحة ، أرضها مفروشة بالنجيل ، وممراتها مرصوفة بالرخام ، قامت الحكومة بتوزيع شتلات الورد على الممرات والأركان ، وصف المقاعد بترتيب ملائم كي يتسنى للحضور متابعة العرض المعد بهذه المناسبة ، وقاموا بعمل شبكة كبيرة من القناديل الملونة ، علقوها بين الشجر خلف المنصة ، وبين المباني التي تحدها من الجهات الأخرى ، مما جعل المنصة تفيض نوراً ، وتأتلق بالأضواء والألوان . .

والمنصة الواقعة غرب الساحة ، اصطفت فوقها فرقة موسيقية راحت تعزف منذ الأصيل أجمل الألحان يرقص على أنغامها فريق من الراقصين المحترفين . . .

في الصفوف الأولى أمام الساحة وُضعت مقاعد وثيرة لكبار

رجال المدينة ، وخلفهم وضع حاجز يفصل الواقفين عن العامة ، حيث احتشد مئات من سكان المدينة وسكان القرى المجاورة لها احتفالاً بمرور خمس سنوات على اتحاد الإمبراطوريتين العتيقتين . فتزاحم الناس وغصت بهم الأماكن ، وجاء كبار موظفي وأعيان المدينة واتخذوا أماكنهم على المقاعد .

ثم توقفت الموسيقى برهة إيذاناً بقدوم أكبر شخصية في المدينة . . الحاكم عدنان . . كان ـ رغم تقدمه في السن ـ منتصب القامة ، شامخ الرأس ، يرتدي حلة بيضاء من الحرير الصافي الموشى بالخيوط الذهبية ، وعلى ظهره دثار قرمزي مرسوم عليه أسد فاغر الشدقين باللون الذهبي ـ شعار إمبراطورية ركساس ـ ، وعلى رأسه قبعة فاخرة تجمع الألوان الثلاثة في أناقة واتساق . .

توجهت له الأنظار وهو يسير بين الجموع في معية مرافقيه ، ووقف الجالسون من الحضور إجلالاً له وتعظيماً ، وتطاول الواقفون ليحظوا برؤية حاكمهم الحبيب ، وراحت مجموعة منهم يهتفون باسمه ، وهو يشير إليهم بيديه بحركات لا تخلو من كبرياء ، وراحت صبيات صغيرات قد تم صفهن على جنبات الممر المفروش بالجوخ الأحمر يُلقين عليه الياسمين ، في حين قامت الفرقة بعزف لحن ترحيبيّ بمعاليه . . حتى اتخذ مجلسه في منتصف الساحة فجلس الجميع ، وساد الهدوء أرجاء الساحة . .

صعد على المسرح رجل ممتلئ تسلطت عليه الأضواء والأنظار . . سحب نفساً عميقاً من صدره ، ثم قال بصوت جهوري عالٍ :

– بسم سيروس الإله العظيم . . وبركات إمبراطور ركساس المجيد . . وكرامات الأمير شاكان العتيد . . نبدأ الليلة . . حفلنا السعيد . .

فانطلق الجميع تصفيقاً وهتافاً ، ثم عزفت الفرقة اللحن الإمبراطوري ، فوقف الجميع بما فيهم الحاكم عدنان ، وراحوا بصوت واحد يرددون كلمات الأغنية والاحترام والإجلال ، حتى انتهى اللحن ، فجلس الحضور وعاد المقدم ليقول :

- ها هي الأيام تجري تباعاً . . والنجوم العالية تذوي سراعاً . . والشموس المحرقة تذوب في لجة البحور . . والجبال الشامخة تتفتت عبر الدهور . . الغيوم المتراكبة تتحلل مطراً . . والشلالات الهادرة تتبدد هدراً . . كل شيء ماضٍ إلى انتهاء . . إلا مُلك جلالة إمبراطورنا . . إمبراطور ركساس الشمّاء . .

فانطلقت عاصفة من التصفيق والتهليل لذكر إمبراطور ركساس ، فانتظر المقدم حتى هدأت ثم واصل الحديث :

- في مثل هذا اليوم قبل سنين ، كان الإخوة متفرقين ، وكان الشعب يعاني الانقسام ، وأديم الأرض يرجو الالتئام ، فأرسلت السماء سمو الأمير شاكان . . .

فقاطعته موجة أخرى من التصفيق والهتاف ، تخللتها دعوات بصوت مرتفع لتحفظ السماء الأمير شاكان . .

- فأرسلت السماء سمو الأمير شاكان . . ليعيد الوداد بين الجيران . . دماء كثيرة سُكبت . . وأرواح عديدة فُقدت . . لكن النتيجة هي . .

ورفع صوته ما أمكن له ذلك :

- هي الأمن والأمان . . والراحة والاستقرار . . والمجد والازدهار . . فلتحفظ السماء الأمير شاكان . .

فردد الحضور دعوة المقدم مراراً ، فقال بعد أن هدأوا :

- بحضور معالي الحاكم عدنان . . وبحضوركم أنتم أيها

الشعب الطيب سنحتفل الليلة بهذه المناسبة الغالية علينا . . سننثر الورود على الغيمات . . ونبعث الألحان مع النسمات . . ونسكب الأفراح في أفواه الأنهار . . ونُطيل الليل بأغانينا . . ونرقص حتى ينبلج النهار . . . فليبدأ الاحتفال . . .

وانطلقت الموسيقى تعزف لحناً صاخباً ، واعتلت المسرح راقصة تضع على وجهها نقاباً يظهر عينيها الكحيلتين ، راحت تتمايل على ألحانها ، وراح الحاضرون يرقصون ويصفقون تفاعلاً مع الألحان والرقصات ، وكان عدنان جالساً جلسته المكللة بالهيبة جامد الملامح يراقب العرض بعينيه ذات النظرات الحادة . .

ومن أعلى مبنى يشرف على الساحة من الجهة الشمالية ، كان شاب ملثم يراقب العرض بعيون تقدح شرراً ، يراقب العرض من بدايته متسمراً لا يتحرك منه شيء إلا شعره الطويل الذي يبلغ نصف ظهره إثر هبة نسيم بين الحين والآخر . . أخرج من طيات ثيابه نبلة ذات حبل طويل شديد المرونة ملفوف عليها . . ثم عاد ليتابع العرض . . .

وبعد انتهاء الوصلة الراقصة ، عاد المقدم لخشبة المسرح ، طالباً من الجمهور تحية الفرقة الموسيقية والراقصة الحسناء (شهد البراري) ، ثم بعد أن هدأ التصفيق قدم المغنية الجديدة (زهرة الدراق) ، فإذا بشابة حسناء ترتقي المسرح حاملة العود ، فتلقاها الجمهور بموجة تصفيق ، ثم بدأت بالعزف والغناء بصوت رقراق يفيض عذوبة ورقة ، والراقصة الملثمة تتمايل على ضربات عودها . .

وأعلى الشرفة الجنوبية ، ظهر شاب آخر ملثم الوجه ، جلس على الحافة بلا مبالاة ، وكأنه يستمتع بمشاهدة العرض ، حانت منه

التفاتة إلى الحبل الغليظ المثبت بإحكام إلى طرف الشرفة ، وعاينه جيداً ، قبل أن يعود لمتابعة الغناء . .

كان الغناء عذباً مؤثراً حتى أن الهدوء قد لفّ الحضور كلهم ، واستدرّ الشجنُ الدموعَ من بعض الحاضرات . . حتى أنهم أصروا على زهرة الدراق أن تعاود الغناء ، فغنت ثلاث أغنيات متتالية قبل أن يعتلي المقدم المسرح لينهي العرض ويقدم بعده عرضاً مسرحياً تقدمه أفضل فرقة مسرحية في البلاد . .

في أقصى الساحة من الجهة الشرقية ظهر رجل عملاق ، يبرز جذعه الطويل فوق رؤوس الجموع ، كان داكن البشرة حاد النظرات كثيف الحواجب ، يغطي هو الآخر معظم وجهه بلثام . كان يحمل على عاتقه جراباً كبيراً يبدو عليه الثقل ، لكنه كان يمسكه بيسراه بمنتهى البساطة . ثيابه رثة يعلوها غبار السفر .

راح العملاق يقلب ناظريه يمنة يسرة وكأنه يبحث عن شيء معين ، غير عابئٍ بمظاهر الاحتفال المبثوثة حوله ، حتى لمح الشاب الواقف أعلى الشرفة الشمالية ، والتف إلى الجهة المقابلة حيث كان الشاب الآخر يدلي قدميه ويهزهما طرباً ، فصدرت منه زمجرة غاضبة ، وهز رأسه أسفاً ، ثم توارى في أزقة المدينة . .

بدأت أحداث المسرحية بامرأة جميلة ترتدي ثياباً فاخرة ، تبكي وتشكو تزوجيها قسراً من رجل يفوقها عمراً ، وخادمها تهون عليها وتحاول ذِكر شيء من حسناته التي ذكرت من ضمنها الطِيبة والغِنى وحسن العِشرة ، وختمتها بأنه ملك!!

لكن الجميلَة رفضت ذلك كله ، وأكدت بإصرار أن شعرة تسقط من رمش حبيبها خير من قبيلة من أمثال هذا الزوج العنّين ، وانداحت تتغزل في محاسن الحبيب ، الذي وصفته بأنه ولي عهد

المملكة المجاورة واسمه (خاقان) ، ساردة شيئاً من بطولاته ومآثره . .

ثم دخل ممثل ضخم دميم يرفل في ثياب الجند نادته باسم (جسار) قائد الجيش . شكت الجميلة للفارس معاناتها ، وطفقا يحاولان إيجاد حل لمشكلتهما المشتركة ، فما كان منه إلا أن اقترح فكرة الإطاحة بالملك بالاستعانة بالأمير العادل خاقان ، على أن يسهل له جسار مهمة اجتياح البلاد .

وأسدل الستار على نهاية الفصل الأول من المسرحية . .

كان من بين الواقفين ، امرأة تضع على رأسها خماراً يواري ملامح وجهها ، يقف إلى جوارها صبي في السابعة من العمر ، يمسك بها بيد ، وبالأخرى يأكل كِسرة خبز جافة ، كان الصبي أبيض البشرة ، أشقر الشعر ، أخضر العينين ، وإن كان الفقر قد ألقى على وجهه مسحة كآبة ؛ إلا أنه لم ينل كثيراً من جمال محياه . .

ظلت المرأة تراقب الفصل الأول بصمت حتى تمتمت بعد انتهاء الفصل الأول :

- يا للكذب!!

التفتت إليها امرأة جوارها باستنكار ، فدفعت الصبي أمامها قائلة :

- هيا يا بني . . لنمضِ من هنا . .

وذابت معه في الزحام . . .

رُفع الستار معلناً بداية الفصل الثاني من المسرحية ، حيث يظهر شاب وسيم أشقر الشعر ، يرتدي ثياباً زاهية الألوان ، يتحدث عن وجده وحزنه لزواج محبوبته في مملكة (أدكاريا) من الملك العجوز ، وبينما هو على ذلك ؛ دخل عليه رجل يظهر الاحترام الشديد له ، خاطبه الوسيم بلقب الوزير ، قال بوقار إن لديه أخباراً

سارة ستجمع بينه وبين محبوبته ملكة أدكاريا ، فسأله الوسيم بلهفة عن الخطة ، فأخرج من جيبه رقعة وهو يقول إن قائد جيش أدكاريا قد أرسل له خطاباً سرياً يعرض عليه صفقة تذليل احتلال البلاد على أن يمنحه الأمير خاقان مقاطعة صغيرة يحكمها . . فسُر بذلك الوسيم ، وأمر الوزير بإعداد الجيش وأنه سيقود الحملة بنفسه . . ثم سُدل الستار معلناً نهاية الفصل الثاني . .

في تلك الأثناء ، حلّ الشاب الواقف في الشرفة الشمالية حبل النبلة الطويل ، وجذبه عدة مرات ليتأكد من مرونته وصلاحه ، وأخرج من أحد جيوبه حجراً متوسط الحجم ، وعاد ليتابع الفصل الثالث من المسرحية ، في حين أخرج الشاب من الجهة المقابلة خنجراً صغيراً راح يشحذ نصله بهدوء وهو يتابع العرض . .

بدأ الفصل برفع الستار ، حيث تظهر الملكة في مخدعها تجلس أمام المرآة ، فيدخل عليها جسار ويعلمها أنه قد أرسل الخطاب إلى الأمير خاقان ، وأنه رد بالموافقة منوهاً أنهما قد اتفقا على خطة دقيقة تتيح اجتياح البلاد في غضون سنة أو تزيد قليلاً ، فأكدت الملكة على أهمية الحفاظ على حياة الأهالي وعدم جرهم إلى بؤرة القتال ، كان جسار ينظر إليها ويداعب لحيته الطويلة ، أشارت له الملكة بالانصراف ، لكن الفارس اقترب منها قائلاً إنه يرغب في قبض ثمنه مقدماً ، فتوجست الملكة منه خوفاً سائلة إياه عن مقصوده ، فأشار إلى سريرها وهو يأمرها بأن تتبعه إلى هناك ، فهددته بالصراخ وطلب الحراس ، لكنه قهقه سخرية وقال أنه قد صرف كل الحراس ، ولم يبقَ في الطابق كله سواهما ، وهمّ بالانقضاض عليها . . .

حينها . . ألقم الشاب في الشرفة النبلة حجراً ، وشد الحبل ما أمكن ، وأطلق الحجر يشق الهواء ليصيب عين الممثل اليمنى ، فسقط أرضاً وهو يصرخ بأعلى صوته ، وعينه تثغب دماً ، فالتفت الجميع إلى الشرفة ليروا الشاب يلوح بنبلته ويهتف بصوت قوي النبرات :

– هذا جزاء من تسوّل له نفسه تدنيس سمعة القائد بتار . . .

ووقف الحاكم عدنان يُحدق بعينيه الحادتين صوب الشرفة هاتفاً بصوته الجهوري :

– اقبضوا عليه . .

لكن الشاب ضرب الحبل بخنجر استله من طيات ثيابه ، فهوت الحبال حاملة القناديل المشتعلة على رؤوس الحاضرين ، وبعدها بقليل سقطت الحبال من الجهتين الشرقية والجنوبية ، واشتعلت النيران في الأعلام والأقمشة وثياب الحاضرين ، فساد الهرج والمرج الحضور ، وتراكضوا في كل صوب ، في حين ارتقى عدنان المسرح وسأل عن حالة الممثل الطريح ، فقال له المسعفون :

– لقد فُقئت عينه اليمنى يا سيدي . .

فجحظت عينا عدنان وسطعت في رأسه ذكرى ليلة سقوط غلوريا ، فتمتم :

– يا للسماء!! أيكون هو ؟!!

فقام مسرعاً وهو يهتف :

– أحضروه بأي ثمن . .

لكن أحد الضباط قال له :

– لقد اختفى يا سيدي . . لم نجد له أثراً في الشرفة ، والنيران تعيق عملنا ، كما أن الأهالي بحاجة لمساعدتنا . . ما هو توجيهكم؟

فجز الحاكم على أسنانه ومضى دون أن يجيب . .

أما الراقصة فكانت متسمرة هي الأخرى في مكانها، متسعة العينين، يدوي صوت الفتى في أذنيها.. فاقتربت منها المغنية وقالت لها:

- ما بكِ يا غادة؟ لنذهب هيا بنا..

قالت:

- إنه هو يا فريال.. إنه ابن عمي.. إنه حمزة...

سألتها فريال بدهشة:

- حمزة ؟! هل يعقل ذلك يا غادة ؟!!

قالت غادة بإصرار:

- إنه هو.. لا يمكن أن أخطئه..

وركضت صوب الشارع الذي ابتلع الشاب وغص بالمطاردين هاتفة:

- لا بد أن ألحق به..

وركضت خلفها فريال وهي تنادي باسمها...

وفي أحد أزقة المدينة، فوجئت المرأة مع صبيها بحالة الهرج والمرج التي سادت الطرقات، فانتحت جانباً تضم ابنها وقاية له من الحشود المندفعة، لكن عربة مندفعة أصابتها، فارتطم رأسها بالجدار، وسقطت أرضاً ورأسها ينزف دماً..

في تلك الأثناء وصلت غادة، فتوقفت لـمّا رأت المرأة طريحة الأرض ورأسها يثغب دماً، ولا يوجد من يحيط بها إلا الصبي الصغير لا يملك حولاً لإنقاذها ولا قوة، والناس يركضون في كل الاتجاهات غير عابئين بها. لذا اقتربت منها، ورفعت رأسها على ركبتها وهي تسألها:

- هل أنت بخير ؟

فتأوهت المرأة قبل أن تقول :

- بخير . . لكن رأسي يدور بشدة . .

قالت لها غادة :

- هل تستطيعين الوقوف؟ منزلي على مقربة من هنا ، سنجد فيه ما نضمد به جراحك . .

- أشكرك يا سيدتي . . أشكرك من أعماق قلبي . .

حينها وصلت فريال ، فتساعدت مع غادة لإيصالها إلى المنزل في نهاية الطريق ، أوصدت فريال الباب بإحكام ، واستلقت المرأة على فراش قرب الجدار ، وإلى جوارها جلس الصبي يجوس المكان ببصره بحذر ، فيما جلبت غادة قطعة قماش نظيفة مبللة بالماء ، ووعاء حوى كمية من البُن ، فمسحت رأس المرأة بقطعة القماش ، ثم وضعت عليه البن ، وضمدت رأسها بعناية وإحكام . .

همت المرأة بشكر الفتاتين ، لكن غادة أعادتها للفراش ، فيما قالت فريال معرفة بنفسيهما :

- هذه شقيقتي شهد البراري ، وأنا زهرة الدراق ، ونحن من سيسليا ، نتجول في البلاد طلباً للرزق . . ما اسمك يا سيدتي ؟

قالت المرأة وهي ترسم ابتسامة شاحبة على وجنتيها :

- اسمي ضحى . . وهذا ابني ليث . . ونحن من إحدى قرى طولونيا . . تُوفي والد ليث في السهل الأبيض قبل خمس سنوات ، ومن حينها وأنا أعمل في خدمة البيوت . . لكن من يقبل بخادم تجر طفلها معها ؟

- لابد أنكما جائعين ، سأبحث عن شيء أقدمه لكما . .

وقامت فريال بحثاً عن طعام ، فيما كانت غادة تروز الصبي بناظريها . . قالت :

- ابنك جميل يا ضحى . . لا يشبهك . . هل أنت أمه بالفعل؟!

قالت ضحى باستنكار :

- أي قول هذا يا سيدتي ؟! إنه ابني ولا شك ؟!!

- لا تنفعلي هكذا . . قصدت أنه يشبه والده ولا بد . . ليس أكثر . .

اعتدلت ضحى في جلستها وهي تقول بحدة :

- لابد أني أثقل عليكما . . سننصرف الآن . . شكراً لكما على ما قدمتا لنا . .

فجاءت فريال على صوتها تحمل صحفة طعام فيها خبز وزيت وخضرة ، وضعتها أمام ضحى وهي تقول :

- اعذري أختي يا سيدتي فلسانها أحد من نصال السيوف ، لكن قلبها شديد الطيبة ، وهي لا تقصد إهانتك على الإطلاق ، فاستريحي ولا ترعي لها بالاً . .

التقطت غادة كسرة خبز وناولتها ليث وهي تقول :

- خذ أيها الوسيم . . تبدو جائعاً . .

فالتقط ليث الكسرة والتهمها في نهم ، فقالت فريال بحنان :

- المسكين . . لتحفظه السماء من كل مكروه . . كلي يا سيدتي . .

فمدت ضحى يدها وهي ترمق غادة بطرف عينيها . .

وراحوا يأكلون سوياً ، وبعد برهة تساءلت غادة :

- أتساءل : هل استطاع حمزة الهرب منهم ؟

قالت ضحى بدهشة :

- حمزة بن البتار ؟!! هل كان ذلك الشاب حمزة بن البتار ؟!!

التفتت الفتاتان إليها باستغراب ، وقالت غادة بريبة :

– أتوقع ذلك . . هل تعرفين حمزة ؟

قالت ضحى بارتباك :

– ومن الذي لا يعرف الفتى الذي فقأ عين الأمير شاكان ؟!

قالت غادة بحدة :

– لا أحد!! لقد تم التكتيم على القصة بعد الاحتلال لتبدو كحادث وقع للأمير في إحدى المعارك ، أما قبل الاحتلال ، فحرص القائد بتار على تخفيتها لأن لا يصيب الغرور حمزة وهو بعد صبي صغير . . فكيف عرفت أنت ؟

بدا الارتباك على ضحى ، فقالت فريال :

– كفى يا شهد . . ما هكذا تعلمنا معاملة الأضياف . هي تعرف القصة بطريقة ما لا نرغب بمعرفتها . . دعيها تأكل وتستريح ، وإن شاءت أن تخبرنا فلها ذلك ، وإن لم تشأ فلن نجبرها . أليس كذلك يا أختي ؟

نفضت غادة يدها عن الطعام وقامت دون أن تنبس بكلمة . في حين أردفت فريال لتلطف الجو :

– دعكِ منها يا سيدتي ، قلبها أبيض للغاية ، والحدة التي في طباعها مردها للظروف الصعبة التي لحقت بنا . .

قالت ضحى :

– أي ظروف ؟

– بعد سقوط سيسليا ، استولى الركساسيون على حانة أبي وطردونا منها دون أن يعطونا تعويضاً مناسباً ، فلم يحتمل أبي الصدمة وسقط مشلولاً ، فعملت أمي في خدمة بيوت الركساسيين ، واضطررنا أنا وشهد للعمل في الغناء والرقص لنسد

حاجتنا ونكف أنفسنا عن المسألة .كما أن هناك سرّ سأخبرك به إن وعدتني ألا تخبري به أحداً . .

– أعدكِ . .

– شهد ليست شقيقتي . . هي ابنة قائد سابق في جيش أركاديا قُتل هو الآخر في السهل الأبيض . . وكان متعلقاً بها وهي متعلقة به ، فلما علمت خبر موته هدها الحزن هداً .

هزت ضحى رأسها تفهماً ، قبل أن تسألها فريال :

– ما الذي تنوين فعله الآن يا سيدتي ؟

– أريد البحث عن عمل . .

– ابن عم شهد جندي في أنجيليا ، وهو قريب جداً من قائد الدرك هناك ، سنكتب له خطاب توصية عله يهتم بكما . . ولكن توخي الحذر في الطريق ، فهناك عصابة قطاع طرق في غاية الخطورة . . لا بد أنك قد سمعتِ بهم ؟

– لم أسمع . . سأكون ممنونة لك جداً يا سيدتي إن أسديت لي هذه الخدمة . .

– من دواعي سروري يا سيدتي . . من دواعي سروري . .

في تلك الأثناء ، كان ظلان يركضان بين أشجار الغابة شمال المدينة ، ينزلقان بخفة وسرعة رغم اشتداد الظلام وطغيان العتمة ، وإذ هما يركضان فإذ بنصل سيف يلمع فجأة بينهما ، فتفرقا سراعاً تفادياً لضربته ، وتباعدا بخفة وأحاطا حامل السيف ، وقد استل كل واحد منهما خنجره استعداداً للانقضاض ، انقض الأول بخفة وسكون ، لكن حامل السيف تفاداه بخفة ، وبضربة سريعة جرده من خنجره ، وانقض الآخر تباعاً فلم يظفر بأكثر مما ظفر به الأول ، بل إن حامل السيف قد أسر الأخير ووضع النصل

على رقبته ، وقال المأسور بصوت مخنوق إثر وطأة ذراع العملاق :

- صفوان ؟!

أفلته العملاق ، وأعاد سيفه إلى غمده ، وجلس على جذع شجرة طريح بالجوار قائلاً بصوته الخشن وبلهجة ناناكروبا :

- أيها الحمقان . . هذا الطيش لن يصنع منكم رجالاً . . ألم يأمركما السمهري بعدم إثارة الفوضى ؟! ماذا سيقول الشيخ إن علم بما حصل ؟!

التقط الشابان خنجريهما التي تنثارا إثر ضربات صفوان ، واقتربوا ليجلسوا بالقرب منه . . قال أحدهم :

- الوضع مزر جداً يا صفوان . . تاريخنا يشوه بهذه الإدعاءات الكاذبة . . ما كانَ بتار خائناً ولا زنيماً . . الرجال الحقيقون لا يسكتون عن ضيم تاريخهم . . تشويه التاريخ يا صفوان يعني نهاية أمة واندثار حضارة . .

قال صفوان :

- التاريخ يكتبه المنتصر يا أسامة . . والتشغيب لن يزيد الوضع إلا تأزماً . .

قال :

- ما الحل إذن يا صفوان ؟! هذا الضيم قد غدا غضة في حلوقنا . . لم نعد قادرين على التنفس ونحن نرى بلادنا تنسلخ عن هويتها أمامنا ونحن صامتون . . لابد من فعل شيء ، وإلا لوجدنا هوياتنا خيالات تهيم في أحراش النسيان . .

- الجواب لدى حمزة يا أسامة . . دعه يتحدث . .

التفتا إلى حمزة . . الذي كان مطرقاً يجمع قبضيته دون كلام . . قال صفوان يستحثه للحديث :

- ما رأي الحكيم يا حمزة؟

ازدرد حمزة ريقه قائلاً :

- يقول الحكيم إن التسرع سبيل التخبط . . وأن الإعداد وانتظار اللحظة المناسبة هما سبيل النصر والتمكين . .

فقام صفوان وحمل الكيس من خلف الشجرة ، وقال :

- إذن لا تبددا الجهود بطيش لحظة . . هيا بنا قبل أن يدركنا الطلب . .

في المدينة كانت غادة قد ارتقت سطح المنزل ، وجلست محتبية ترقب النجوم وتحتلب الذكريات . . ذكريات طفولتها مع حمزة بن عمها . . لا تدري لماذا خفق قلبها بشدة عندما رأته واقفاً فوق سطح البيت الشارف على الساحة كالجبل الأشم . . أسعدها ـ ولا ريب ـ أن يدافع عن ذكرى عمها الذي شوهه الطغاة رغبة منهم في دحر المقاومة الأركادية حتى في حنايا الصدور وتلافيف العقول . . سرّها أن ينتقم لسمعة أسرتهم التي طالها التدنيس إفكاً وزوراً ، حتى أنها في أحايين كثيرة تحت وطأة سيف الحياة ، كانت ترقص على أنغام أغانٍ تهجو الفارس العتيد ، فكانت تتمايل ألماً وحزناً ، ويفر دمعها وهي تستمع لتصفيق الجماهير وهتافات الإعجاب . . إعجابهم برقصتها على جثة سمعة عمها وسمعة أسرتها . .

لم تكن علاقتها قوية ببتار وذلك لكثرة تنقلاته بين الجبهات وثكنات التدريب ، لكن يكفي أنها تعلم الآن من كان عمها . . يكفي أن تعلم أنه كان فارساً مخلصاً للإمبراطورية . . لم يسلمها إلا على جثته . . صحيح أنه هُزم في السهل الأبيض . . لكنه لم يفر نجاة بحياته كما فعل الآخرون . . بل انسحب حماية لرمز

الإمبراطورية . . جلالة الإمبراطور بنفسه . .

لذلك لم تقنع يوماً أن بتار هو الخائن ، وهي تعلم أن الجميع يعلمون هذه الحقيقة . . لكن الخوف من اندثار هذا اليقين بموت الذين يحملونه ، وتنشأ أجيال تلعن بتار . . وتلعن أركاديا . . وتهتف بمجد ركساس . . وحياة شاكان . . إخلاصاً وصدقاً . . لا كهؤلاء الذين يهتفون خوفاً وذعراً أن تنالهم سياط العقاب . .

كانت تدرك أن حمزة قد اختفى ، وأنه لم يُقتل كما أشيع يوم سقوط سيسليا . . كان ذلك جلياً في إجراءات الجنود وتدابيرهم الأمنية ، وتوزيعهم صفات حمزة على حرس كل مدينة في أرجاء البلاد المترامية الأطراف . لذلك نما في نفسها الأمل . . أمل لقاء ابن عمها الذي طالما شاطرته اللعب والمشاكسات والذكريات . . ولترتمي في ذلك الحضن الدافئ . . حضن الأسرة . .

كانت بحاجة ماسة للانتماء . . فلقد مات أبوها في معركة السهل الأبيض ، ومات عمها بتار في احتلال سيسليا ، وزُجّ عمها غضنفر في السجن مدةً قبل أن يخرج وينخرط في صفوف الحرس الإمبراطوري ، فأبت نفسها أن تعود إليه وهو يتلقى رزقه من كفوف ما تزال رطبة بدم أسرتها . . أما عامر . . فقد رافقها وفريال مدة قبل أن يتركهما للانضمام لصفوف الجيش بعد أن وجد عرضاً مغرياً . . يومها بصقت في وجهه ، وانهالت عليه سباً وشتماً ، وتنصلت من قرابته ، واتهمته بخيانة الدم . . لكن الشاب الطموح قال لها وبشدة :

– استفيقي يا غادة . . لقد انتهت أركاديا وحان عهد جديد لا بد أن نلحق به وإلا فاتنا الركب وعلانا النقع والغبار . .

فردت عليه بحدة :

- إن كنت نائمة ؛ فأنت ميت يا عامر . . الدماء التي تسري في عروقك ستظل شاهدة على انتمائك لأركاديا لا لركساس . . إن كنت تحسب أن الخيانة تقدمٌ ولحاقٌ بالمقدمة ؛ فالقبر أحب إلي من خيانة دمي ولحمي ومعتقداتي . . .

ومن بعدها لم تقابل عامر على الإطلاق ، وإن كانا يتراسلان بين الحين والآخر . .

ثمة أمل آخر كان يحدوها للقاء حمزة . . هو أمل استرداد الأرض . . أمل قيام مقاومة حقيقية . . تزيح المحتل البغيض الجاثم على مقدرات البلاد ككابوس طويل يأبى الانقشاع . .

هي وحدها تعلم كيف نشأ حمزة . . وكيف رباه أبوه . . وكيف دربه وأعده ليكون فارساً حقيقياً ينتصر للحق وللمظلوم ، ويقتص من الباغي ويحمي حوزة الحق . .

كان أملها قد خاب في كل فارس شريف من فرسان أركاديا الذين قاتلوا تحت راية النعمان وقيادة بتار . . كلهم قد آثر رغد الحياة وداهن واستسلم ، واجتث من صدره الانتماء لأرض أركاديا ، وزرع محله انتماءً خبيثاً فاسداً . . قد أفسد صدره ونفسه ، وجعله عطناً كريه الرائحة . .

إلا حمزة . . هو الوحيد الذي جرؤ على عقاب من حاول تدنيس سمعة والده المظلوم تحت سمع وبصر حاكم المدينة وحراسها ودركها ورجالها أجمعين ، ثم لاذ فراراً لا يقدرون أن يقبضوا عليه . . هو ذاك الأمل الذي بدأ يعلو في سمائها . .

هو الوحيد الذي جرؤ على كسر هالة الخوف التي حاول الركساسيون تكليل حكمهم بها على أركاديا . . فجاء هذا الشاب على صهوة حجر ليعيد الأسطورة . . وليذكر الأركاديين أن الذي

أفقد شاكان عينه على قيد النضال . .

هو الوحيد الذي قفز فوق قيود الرهبة التي أوثق بها المحتل نفوس المحتلين . . وجعلهم يتيهون في بيداء الخوف من القبضة الفولاذية التي تمسك نواصيهم وتجبرها لتمرغ في تراب الذل . .

تسعدها الساعة للغاية سماعها لتخبط رجال الدرك في الشوارع والأزقة بحثاً عنه دون جدوى . . «هل وجدتموه؟» . . «ليس بعد» . . كان وقعها على أذنيها أجمل من لحن أغنية يطرب لها فؤادها . . ولذلك سهرت الليل بطوله حتى تخضب الليل بقبلات الصباح . . ورأت الطيور تشدو ربما انتشاءً واحتفاءً بالأسد الذي شبّ عن الطوق . . واستعد لتسيد الغابات . .

للعنقاء العملاقة التي تستجم تحت الرماد . . وتوشك أن تغطي الأفق بعظمة جوانحها . .

***

# الفصل الثاني:
# العنقاء ترضع ضياء الشمس

« . . . في ذلك اليوم الكئيب خرجت من القصر الإمبراطوري رغبة مني في تفقد إجراءات الحراسة في المدينة المصدومة بالفاجعة . .

كنت أعلم أن الكتيبة الوحيدة الباقية على أهبة الاستعداد هي كتيبتنا ، فقصدت منزل الحاكم لأسأله عن التفاصيل ، لكنني فوجئت بعدم تواجده ، لذلك ذهبت أبحث عنه بين الجنود .

استغربت حركة الجنود وانتشارهم في أرجاء المدينة وسيطرتهم على مداخلها وأسوارها ، وأنا أعلم أن القائد بتار طريح الفراش ، فمن الذي أعطى هذه الأوامر ؟

استوقفت جندياً وسألته عن سبب هذه الإجراءات ، فقال لي بدهشة :

– ألم تعلم أن الحاكم قد أمرنا بتنفيذ الخطة ؟!

قلت بدهشة أكبر من دهشته :

– أية خطة ؟!!

فنظر إليّ ملياً قبل أن يستل سيفه ويهاجمني ، لكنني كنت أسرع منه ، فاختطفت السيف من يده ووضعته على رقبته آمراً إياه أن يفصح عن مكنون الخطة . .

ذهلت عندما أخبرني أن الأرغل قد اتفق مع الركساسيين على

الخيانة . . عصف الغضب بي فدحرجت رأسه . . سرت مغضباً في طرقات المدينة أبحث عن الخائن أنوي نحره كالنعاج . . لكن الخطة بدأت . . وراح أبناء قريتي ناناكروبا يهاجمون البقية الباقية من جنود المدينة وحراسها ، فانطلقت قافلاً إلى القصر علّي أخبر بتار بما جرى . . فننقذ الإمبراطور أو نجد حلاً لهذه الفاجعة الأخرى التي توشك أن تحيق بالمدينة . .

هاجمني بعض السيسيليين ظناً منهم أني من الخونة ، فاضطررت لقتل بعضهم دفاعاً عن نفسي ، ثم ارتديت قناعاً حتى لا يخلط أحد بيني وبين بني جلدتي ، فلم أكن أريد أن يعطلني شيء عن هدفي ومرادي . .

وحين وصلت إلى الطابق الثاني حيث حجرة القائد بتار ؛ استوقفتني الجثة في منتصف الممر . . هالني منظرها . . ممزقة الصدر . . مشوهة الوجه . . غارقة في الدماء . . لكنني متأكد أن شفتيه كانتا تشكلان ابتسامة . . وثمة ضوء يلوح في نظرته . .

هاجمني حينها حمزة . . ربما ظنّ أنني قاتل أبيه . . رأيت الدموع في عينيه . . والارتعاش في أطرافه . . لم يكن الوقت يسمح لأن أشرح له . . فأفقدته الوعي . . وحملته معي . . آخذاً عهداً على نفسي أمام جثة أبيه أن أحميه بحياتي . . كفارة لذنب الخيانة التي ارتكبته قريتي . . . »

سألته :

– لماذا لم تعد إلى ناناكروبا؟ وكيف التقيتما بالشيخ ؟

قال :

«– لقد عِفت أن أعيش بين قوم باعوا كلمتهم وعهدهم نظير بناء مُلك وحيازة إمارة . . لقد كنت في السابق أمقت النعمان

وألعن البتار . . لكن العهد الذي قطعناه له يوم جاءنا طلباً للإعانة كان ملزماً لنا . . وأعترف أنني أحببته كثيراً . . لا أستطيع أن أجزم أكان حباً أم احتراماً فقط . . لكنني لم أرَ مثله قط . . ولا أظنه يتكرر في الزمان أبداً . .

وثمة أمر آخر . . هو خوفي على حمزة . . كنت أدرك أن الركساسيين يريدون رأسه لقاء ما فعل بأميرهم ليلة سقوط جلوريا . . وقد كان كسير النفس . . محطم الشخصية . . بالكاد يغمض له جفن ليلاً . . وقليلاً ما يهدأ دمعه نهاراً . . كان حزيناً كئيباً كما ينبغي لغلام خسر أباً وأختاً ووطناً . . حتى أنا كان يعاملني بادئ الأمر بعدوانية . . ظناً منه أنني قاتل أبيه . . وبجهد أقنعته بسخافة تفكيره . . حاول قتلي عدة مرات وأنا نائم . . لكن السماء كانت تنقذني ربما لعلمها سلامة نيتي تجاهه . .

ورغم كل شيء كدت أن أتركه أكثر من مرة لنفاد صبري على أفعاله . . لكن العهد الذي اتخذته على نفسي عشية مقتل أبيه كان يمنعني من ذلك . . حتى ذلك اليوم الذي تركته في أطراف قرية دخلتها التماساً للطعام ، وفي طريق عودتي فوجئت بامرأة تبكي وتنتحب وبجوارها رجل طريح قد تلقى ضرباً مبرحاً حتى اختفت أكثر معالم وجهه ، سألتها عن المعتدي ، فقالت إن شاباً قد اعتدى عليها وعلى زوجها لمجرد أنهما كانا يترنمان بقصيدة فيها إساءة للقائد بتار .

انطلقت إليه وأنا أتميّز غضباً . . كنت أنوي أن أهرس رأسه العنيد هذه المرة . . فلقد حذرته مراراً من الانسياق خلف غضبه دون جدوى . . وحين وصلت إليه وجدته مستلقياً تحت ظل شجرة ، فاقتربت منه وصرخت فيه ليقف ، لكنه لم يرد عليّ . . ركلته بقوة وأنا أسبه وأشتمه بأقذع الألفاظ . . لكنه أيضاً لم يستجب . .

كشفت الغطاء عنه لأفاجأ بوجهه شديد الاحتقان غزير العرق .. تحسست رأسه فإذا هو ساخن جداً .. سألته عن ما جرى له ، فأشار بوهن إلى ساقه ، فإذا بها أثر لدغة أفعى شديد الالتهاب ..

حاولت إسعافه ما استطعت .. لكن حالته أخذت في التردي .. فحملته على ظهري وهُرعت به إلى القرية .. سألت عن طبيب أو كاهن أو أي أحد يقدر على علاجه .. فدلوني على امرأة تسكن في الغابة المجاورة .. فأسرعت إليها لا ألوي على شيء .. حتى وصلت كوخها .. طلبت منها علاج حمزة لقاء ما تشاء من أجر .. وبعد أن تفحصته قالت إن حالته شديدة الخطورة ، والأمل في نجاته ضئيل للغاية ، لكنها ستفعل ما بوسعها ..

نظفت جرحه وضمدته ببعض المساحيق ، وسقته شيئاً من العقاقير ، مضى أسبوع وهو على حاله لا يتغير ، والعجوز تسقيه من أدويتها ..

بعد عدة أيام أتتني العجوز وأنا جالس خارج الكوخ ، أخبرتني أنها قد استفرغت وسعها في علاج حمزة ، لكنه لم يستجب لأدويتها .

قلت لها بقلق :

– وما هو الحل أيتها العجوز ؟

قالت وهي تناولني رقعة جلدية مختومة :

– يوجد حكيم يسكن في جبل كوبي على مسيرة ثلاث أسابيع شمالاً من هنا .. اذهب إليه وأعطه هذه الرسالة فلقد شرحت له فيها حالة الغلام ..

قلت لها مدفوعاً بالأمل :

– هل آمنك على الغلام يا سيدتي ؟

قالت بابتسامة عريضة :

- تأمنني على من ؟! أنا لا أؤوي أحـداً ، ولم يزرني مـريض منذ سنين عديدة . .

فـانطلقت من فـوري إلى جـبـال كـوبي أصل الليل بالنهـار يحدوني الأمل أن أجد العلاج عند الحكيم لحالة حمزة . . ولم أكن أعلم أنني سأجد لديه أكثر من ذلك . .

وصلت الكوخ الذي وصفوه لي . . طرقت الباب ففتحت لي صبية صغيرة ، قلت لها إنني أحمل رسالة إلى الحكيم ، أخذت مني الرسالة ودخلت مغلقة الباب في وجهي ، وبعد برهة عادت تحمل صرة صغيرة . قالت لي :

- الحكيم يقول لك : علاج صاحبك في هذه الصرة ، سلمه للطبيبة وهي ستعرف كيف تتعامل معه . .

وأغلقتِ البابَ تاركة إياي في قمة الدهشة والاستغراب من هذه المعاملة الفظة . .

عدت أدراجي إلى كوخ الطبيبة ، حيث وجدت حمزة في حالة يرثى لها ضعفاً ونحولاً . فضت المرأة الصرة وباشرت علاجه ، وما هي إلا أيام قليلة وتحسنت حالته وخفّت حرارته .

سألتها عن الحكيم . . قالت لي :

- ألا تعرفه ؟! إنه الحكيم توفيق كبير كهنة معبد السماء في العاصمة جلوريا أيام الإمبراطور النعمان ، ترك منصبه واعتزل في كوخه أعلى جبال كوبي قبل سنوات عديدة .

ظللت ليلتي تلك كلها أفكر في شأن هذا الحكيم غريب الأطوار . وما استفقت صباحاً إلا وفكرة مجنونة قد تلبستني وتملّكت جوارحي . .

سألت المرأة عن الحكيم أكثر ، قالت لي إنها لم تسمع على

الإطلاق برجل في مثل حنكته وخبرته وحكمته وذكائه . وعندما سألتها عن علاقته بركساس قالت إن الرجل مخلص تماماً لأركاديا ، ولم تسمع على الإطلاق أنه قد بايع الركساسيين . .

فقمت من فوري وانطلقت إلى جبال كوبي مجدداً . . طرقت باب الحكيم كما فعلت في المرة الأولى . . فتحت الصغيرة الباب وأدهشتني أن ذكرتني ، قالت :

– لا تقل لي أنك لم تُجد استخدام العلاج ؟

قلت لها :

– بلى يا صغيرتي . . جئت هذه المرة لأشكر الشيخ . .

أغلقت الباب وهي تقول :

– سأبلغه شكرك . . وداعاً . .

كدت هذه المرة أن أكسر الباب لفرط حنقي من هذه المعاملة الفظة ، لكنني خشيت مغبة تصرف أرعن من قبلي ينسف كل ما خططت له وفكرت . .

طرقت الباب مرة أخرى . . فتحت الصبية وهي تقول بملل :

– أنت مرة أخرى ؟! ماذا تريد ؟!!

قلت بخشونة :

– أبلغي الشيخ أنني أريد مقابلته . .

قالت وهي تهم بإغلاق الباب :

– الشيخ لا يقابل أحداً . .

منعت الباب بيدي أن يغلق وقلت برجاء :

– أرجو أن تبلغيه أنني لن أغادر حتى أقابله . .

نظرت إليّ ملياً قبل أن تغلق الباب . وظللت واقفاً أنتظر أن يقابلني الشيخ . . مرت دقائق وساعات . خيّم الليل وأنا واقف

مكاني أحاول جاهداً كبح نفسي عن اقتحام المنزل والفتك بأهله أجمعين . . لكنني كنت أوقن أن مرادي موجود داخل هذا الكوخ الذي يحول بيني وبين من فيه سُورٌ من الفظاظة . . اتجهت إلى جذع شجرة مقابل الكوخ وتكومت أسفله استعداداً لقضاء الليلة وربما الليالي التي تليها . .

وعند الصباح فُتح الباب . . خرجت منه الصبية تحمل قلة على رأسها . . نظرت ناحيتي مبتسمة بسخرية ومضت في طريقها صوب النهر . . وعندما عادت توسلت إليها مجدداً كي أقابل الشيخ . .

وبقيت على هذه الحالة ثلاثة أيام . . حتى ضاقت عليّ نفسي . . وكدت أن أفقد الأمل في ملاقاة الشيخ . وراودني الندم على إضاعة كل هذا الوقت مقابل فكرة غبية قد لا أجد لها القبول عند هذا الرجل . .

حينها فتحت الفتاة الباب ودعتني للدخول فالشيخ قد وافق على مقابلتي . .

دخلت الكوخ الذي كان مرتباً ونظيفاً للغاية ، تفوح منه رائحة العود المحروق ، أرضية الغرفة مفروشة بالحصير ، وعلى الجدران أرفف قد غصت بالكتب .

دعتني الفتاة للجلوس قرب شرفة تطل على واد أخضر جميل ، ووضعت أمامي على الطاولة قدحاً من الشاي ، وأخبرتني أن الشيخ سيحضر بعد قليل ، وما هي إلا رشفتان ودخل الشيخ . .

كان طويلاً نحيلاً منصوب الجذع ، أبيض البشرة والشعر ، لحيته كثة طويلة ناعمة الخصلات ، أما عيناه فكانتا زرقاوين تطل منها نظرة ثاقبة شعرت بها تجوس في صدري ، له هيبة لم أرَ مثيلها

على الإطلاق ، حتى أنني شعرت برهبة شديدة تجاهه رغم تقدمه في السن . .

قال لي بصوت قوي النبرات :

- لأي شيء أردت مقابلتي أيها الناناكروبي ؟

عجبت له كيف عرف نسبتي دون أن يسمع لهجتي ، أما لون بشرتي فكان كثيرٌ من أبناء المناطق الأخرى يشاركوننا شيئاً منها . .

نثرت له كنانتي كلها . . أخبرته بحقيقة شخصيتي ، وحكيت لهِ كل ما جرى لي ولحمزة من ساعة سقوط سيسليا ، ثم قلت له السبب الحقيقي من زيارتي :

- جئتك يا سيدي لتكفل حمزة . . أريدك أن تهيئه ليكون القائد الذي يستطيع استعادة البلاد بعد حين . . هو يمتلك الموهبة . . نشأه أبوه على الفروسية . . يحمل في جسده الصغير طاقة إن لم توجه بالطريقة الصحيحة أخشى أن تقضي عليه . . لذا أرجوك . . أرجوك يا سيدي أن توافق على طلبي . . لقد جرُح قلبه الفتي جرحاً بليغاً أشد من الجرح الذي ساعدت في شفائه . . بيدك أنت وحدك يا سيدي شفاء ذلك الجرح . .

فأطرق ملياً . . أشاح بوجهه صوب الوادي . . داعب لحيته الطويلة . . تجمعت جبهته واكفهرت ملامحه . . بدت عليه أمارات التفكير العميق . . طلب مني أن أمهله إلى صباح الغد . . وعرض علي النوم في العليّة . .

بت تلك الليلة أدعو السماء أن تكلل سعيي بالنجاح ، فإني لن أجد مأوى لحمزة خيراً من كنف هذا الحكيم . .

في الصباح قال لي :

- لدي شرط واحد يا صفوان . .

قلت منتشياً :

- هو لك يا سيدي . .

قال بصوته العميق :

- أن تسمعا وتطيعا دون جدال أو سؤال . .

قلت وأنا غير مدرك عِظم الشرط :

- لك ما اشترطت يا سيدي . .

أشار إلى الخارج قائلاً :

- إذن اذهب وأحضره ، فسيكون لدينا عمل كثير . .

فهممت بتقبيل يده لولا أن منعني . . وانطلقت راكضاً إلى كوخ المرأة العجوز لإحضار حمزة . . سمعت عندما أغلقت الباب الشيخ يقول للفتاة :

- ها هو الأمل يا ابنتي يوشك على الانبلاج في ليل أركاديا البهيم . .»

تلك هي قصة حمزة بن البتار بعد هروبه من سيسليا والتقائه بالحكيم توفيق كما سمعتها من فم منقذه صفوان . . ذلك اللقاء الذي كان له الفضل في تغيير قدر أركاديا السائر نحو الفناء . .

***

قرية تتمطى في جوف الوادي . . تبدو ككف مخضبة بقوس قزح . . أو كزهرة ملونة تنمو على ضفاف نهر مطرد ينهمر شلاله من أعلى الجبل . . هدوء يكتنف جوها المفعم بأنسام تميل إلى البرودة . . يتخلله صوت الأجراس المنبعثة من رقاب قطعان الماعز المتصاعدة نحو المراعي . . وصهيل حاد يشي بالحالة المعنوية لخيل المنطقة المعروفة بأصالة جيادها . . والباعة تجمعوا في السوق يعرضون بضائعهم من مشغولات يدوية وأطعمة ودواجن ، وأصحاب الحرف قد أشرعوا حوانيتهم طلباً للرزق ، من بينهم كان حداد أشيب الشعر ، ضخم الجثة داكن البشرة ، يطرق على الحديد الساخن بمطرقة ضخمة ، طرقاته ثابتة ثقيلة يهتز من وطأتها حديد السندان . .

دخل صفوان ومن معه إلى الحانوت مسلمين ، فأكمل عمله دون التفات وكأنه لم يشعر بهم ، حتى انتهى من قطعة الحديد وأودعها برميل ماء ليبردها ، ووضعها جانباً وقال بصوت قاسي النبرات :

– لقد تأخرتم . .

قال صفوان :

– كان تأخرنا لازماً نظراً للظروف التي حدثت . .

سأل الحداد باهتمام :

– أي ظروف ؟!

شعر الشابان بالقلق ، وبدا جلياً في ملامح أسامة ، وقد أدرك الحداد ذلك فقال :

- أخبرتك مرارا يا أسامة أن تضبط مشاعرك . .

ازدرد أسامة ريقه وقال مكابراً :

- أنا أضبطها جيداً يا سمهري . .

فتبسم السمهري هازئاً قبل أن يوجه الحديث إلى حمزة :

- ماذا حدث بالحفل ؟

لم يجب حمزة ولاذ بالصمت . . فعبس السمهري وهم بالحديث ، لولا أن صفوان سبقه قائلاً وهو يضع الكيس بالقرب من السندان :

- هذا ما طلبه الشيخ . . هل سيفي بالغرض؟

تفحص السمهري ما بداخل الكيس بعناية قبل أن يقول :

- إلى حد ما . . سأبذل قصارى جهدي . . ولعل هاذين الغلامين يتركان العناد ويساعداني بالعمل . . أذرعهم الرقيقة بحاجة لمزيد من القوة . .

ووجه حديثه لأسامة :

- هيا اخلع هذه الثياب وهلم لمساعدتي . .

قال الغلام متبرماً :

- أنا مجهد بعد السفر الطويل . . ألا تسمح لي بعض الراحة يا سمهري ؟

فألقى السمهري المطرقة إليه قائلاً :

- اسكت . . وأرني عملك . .

ثم أردف ملتفتاً إلى حمزة :

- مُرّ بدكان خولة في طريقك إلى الجبل ، ثمة أشياء تريدك أن توصلها إلى الشيخ .

فأومأ حمزة برأسه والتفت إلى أسامة وتبادل معه ابتسامة

مشفقة قبل أن يكمل مع صفوان مسيرهما خلال أزقة القرية الضيقة ، الرطبة بندى الصباح وبقايا المطر وعبق البساتين وألق الحقول ، وكلما اقتربا من السوق تناهت إليهما أصوات الباعة بيعاً وشراءً ، وكل يعرض بضاعته بالأسلوب الذي يراه أقرب لذائقة المشتري ، ولم تكن البضائع على قدر كبير من التنوع لصغر القربية وانعزالها عن المدن ، لكن السوق يحوي معظم احتياجات القرويين اليومية ، من منتوجات ومحاصيل وملابس محلية وأطعمة ، وقليل جداً من المستوردات يأتي بها التجار القليلون من أهل القرية ، وإلا فإن معظهم قد هاجروا واستقروا بالمدن المجاورة ، لعلمهم بأن سكان هذه القرية لا يفضلون شراء شيء لا تنتجه أيديهم ، ويفضلون المقايضة على التعامل بالنقد .

وصلا إلى الحانوت الصغير الذي تعمل فيه خولة ، تلك الشابة التي تلوح ملامحها بلون القمح ، تعصب رأسها بقطعة من القماش الأحمر ، وتعمل في بيع مشتقات الحليب والبيض والثياب المغزولة من صوف الخراف وجلدها ، تساعدها في ذلك جارية سمراء تدعى حياة ،كانت تعمل إلى جانبها في تؤدة ولطف .

انتبهت لوصول الشابين فحييتها وقدمت لهما كوبين من الحليب داعية إياهما للجلوس والاستراحة بعد السفر الطويل ، وبعد تبادل حديث قصير طلبت من حمزة أن يلحق بها إلى داخل منزلها الواقع خلف الحانوت .

كان المنزل ضيقاً مضمخاً بمزيج عجيب من نكهة تخثر الحليب والسمن ورائحة الدجاج المنبعثة من الفناء الصغير وسط الدار ، حيث كان هناك قن صغير للدجاجات السبع الهائمات مع صغيرها في الفناء التقاطاً للحبوب المتناثر وبقايا ما ألقته الرياح . .

حملت خولة سلة من المطبخ الصغير ودلفت إلى القن تبحث عن بيض وهي تسائل حمزة فيما بدا أنه تسرية للوقت :

- حدثني يا حمزة عن الاحتفال . . كيف كان العرض ؟! تقول النسوة أن ثمة راقصة جديدة ومغنية بارعة أثرين الحفل باستعراضاتهن المبهرة . . أليس كذلك ؟

فارتبك حمزة وهو يجيب :

- في الحقيقة لم أنتبه كثيراً لفقرات العرض ، كنا مشغولين بالبحث عما طلبه السمهري . . وكما تعلمين فإن تعليمات الشيخ كانت واضحة ضرورة تجنب الحشود وإثارة الشغب والانتباه . .

فابتسمت خولة ابتسامة خفية ، وتابعت الحديث متجاهلة الرد على حمزة . وبعد فراغها من جمع ما وجدته من بيض ، قدمت السلة إلى حمزة بعد أن أضافت إليها قليلاً من الجبن والعسل والخبز وأوصته بإيصالها إلى الحكيم . .

وحين استعد حمزة للمسير رفقة صفوان قالت خولة بصوت يقطر تهكماً :

- علمه يا صفوان أن يهتم بالفتيات أكثر . . لقد غدا رجلاً وليس له أي شغف بهن . .

فضحك صفوان واشتاط حمزة غيظاً . .

وتابعا المسير صوب الجبل ، يمران بحقول القمح ودوار الشمس ، مخلفين القرية في ظهرهم وهما يتصاعدان في الطريق المشقوقة صوب السفوح . .

ومع بلوغ الشمس محطة الضحى وصل صفوان وحمزة إلى كوخ الحكيم ، كان حمزة يسير خلف صفوان مطرق الرأس ، يفكر فيما سيلقاه من الحكيم عندما يعلم الحكيم بما فعله مع أسامة في الحفل .

طرقا الباب ففتحت شيهانة حفيدة الشيخ لابنته والتي تقضي معه غالب النهار لانشغال والدها السمهري في دكان الحدادة ، ووالدتها خولة في السوق تبيع الحليب والأجبان . كان وجهها أبيض مشوب بحمرة ، شعرها كستنائي وعيناها لوزيتان ، في الرابعة عشرة من العمر .

سألها صفوان عن الشيخ ، فقالت إنه يحتسي الشاي في الشرفة ، فتوجه صفوان إليه في جلال وهيبة ، فيما توقف حمزة في الحجرة مطرق الرأس يبدو القلق على ملامحه . كان يتوقع من شيهانة سؤالاً فضولياً عن الحفل كعادتها كلما غادرا إلى المدينة ، لكنه تفاجأ بها تبتسم بهدوء وتقوم بأعمالها المنزلية المعتادة رفقة جاريتهم حياة .

استأذن صفوان على الحكيم الذي كان جالساً في ضوء الشمس أمام منظر الوادي المستفيق على الجمال . دعاه الحكيم ليصب لنفسه كوباً من الشاي ويستمتع معه بهذا الصباح البهيج ، لكن صفوان اعتذر بلباقة ، فسأله الحكيم بصوته العميق :

- هل وجدت ما طلبه منك السمهري يا صفوان ؟

اقترب صفوان قائلاً بصوت خفيض :

- لم أجد عين ما طلب ، لكنني انتقيت نوعية جيدة للغاية ستفي بالغرض .

أومأ الحكيم برأسه متفهماً وهو يقول :

- لا بأس . . اذهب الآن . .

هم صفوان بالانصراف لولا أن الشيخ استوقفه بقوله :

- هل حصل شيء في الاحتفال يا صفوان ؟

بلغ السؤال مسامع حمزة فخفق قلبه انتظاراً لجواب صفوان الذي قال بهدوء :

- أبداً أيها الشيخ . . كل شيء على ما يرام .

فتنفس حمزة الصعداء ، وابتسم الشيخ ابتسامة صفراء وعاد للتلذذ بالشاي ، فيما غادر صفوان الكوخ .

شيعه حمزة بنظرة امتنان ، وهم بالخروج من الكوخ دفعاً للارتباك الذي يشعر به ، إلا أن صوت الحكيم باغته يدعوه إلى الشرفة . فسحب حمزة أقداماً ثقيلة وجلس أمام الشيخ ينظر إلى منبع النهر القادم من بين الجبال الشامخة المكسوة بالخضرة . قال له الشيخ :

- هل حصل شيء في الحفل يا حمزة ؟

هز حمزة رأسه نفياً وهو يتمتم :

- لا يا سيدي . .

نظر الحكيم تجاهه قائلاً :

- هل أنت متأكد ؟

فأومأ حمزة برأسه تأكيداً . أشاح الحكيم رأسه عنه وقال :

- رأيت مناماً غريباً يا حمزة . .

سأله حمزة بشيء من الاهتمام :

- خيراً رأيت يا سيدي . .

- رأيت أن مطرباً قد فقئت عينه في الحفل . .

عاد قلب حمزة للارتجاف . . وواصل الحكيم :

- لا أدري أهو مطرب أم ممثل ، لكن يبدو أن شاباً مستهتراً قد أصابه برمية حجر أو بنبلة أو بشيء من هذا القبيل . .

ثم مال نحو حمزة وهو يقول :

- كيف تؤول هذا الحلم يا حمزة ؟

أدرك حمزة أن ما جرى منه البارحة قد بلغ الحكيم بطريقة أو

بأخرى ، وأن الحكيم يسعى لاستنطاقه بطريقته الخاصة ، فأجاب بصوت حاول جهده أن يواري التوتر في نبراته :

- لعل هذا المطرب كان مستحقاً لما حصل له يا سيدي . .

تراجع الحكيم في مجلسه مبتسماً لدهاء حمزة . سأله :

- كيف ذلك يا ابن البتار ؟

قال :

- عندما يقوم شخص بتشويه تاريخ أمة أو شخص أو حتى ذكرى معينة وهو يعلم يقيناً أنه يفعل ذلك ، لابد أن ينال عقاباً رادعاً تكون فيه عبرة له ولكل من تسوّل نفسه تكرار هذا الجرم .

ابتسم الحكيم . . كان يعجب من منطق حمزة في تفسير الأشياء وتبسيطها ، سأله :

- ألا تعتقد أن السلطة هي الوحيدة التي من حقها معاقبة المجرمين ؟

قال حمزة بحماس :

- السلطة ملومة أحياناً في إنتاج هؤلاء المجرمين .

فقال الشيخ :

- هل الفتى بحجارته قادر على مجابهة السلطة ؟

أطرق حينها حمزة . . كان يعرف مقدار عجزه . . يعرف أن الشيخ منذ خمسة أعوام وهو يحاول أن يوصل له هذه الحقيقة . . أن حماسه المفرط سيُفسد أكثر من أن يُصلح . . لكن الطاقة التي تمور في جسده لا ترحمه . . تكاد أن تنفجر وتجرف كل ما يقف في طريقها . .

كان يلوم الشيخ . . ويلوم صفوان . . على بقائهم خمسة أعوام دون محاولة جدية لإنشاء جيش لمقاومة الركساسيين . . سمع عن عصابات حاولت المقاومة ودحرت بكل بساطة ، فارضة مزيداً من

الخناق والتضييق على سكان البلاد من الأركاديين . . كان الشيخ على الدوام يذكره أنه لا يقل عن أولئك في شيء ، وأنه سيندحر مثلهم بالضبط . . لكنه كان غير مقتنع بحديث الشيخ . . الذي قال له بهدوء :

– لم تجبني ؟

أجابه :

– لعل الشاب ذو الحجارة قادر على ما لم يقدر عليه القادة الآخرون .

فاصطنع الشيخ الدهشة قائلاً :

– أنت تحاول تهشيم الصخور بحفنات من بيض يا حمزة . . هل ذلك ممكن ؟!

تفكر حمزة قبل أن يقول :

– ليس بالضرورة أن يكونوا هم الصخور . . وليس بالضرورة أن أكون أنا البيض . .

– أحسنت . .

تفاجأ حمزة تماماً حينما تمتم الحكيم بهذه العبارة ، وظن لوهلة أنه قد كسب الحوار ، لو لا أن قال :

– السؤال هنا . . من سيحدد ؟!

سكت حمزة لا يجد جواباً ، فأكمل الحكيم حديثه :

– كل القادة الذين حملوا السلاح في وجه ركساس كانوا يتصورون أنهم الصخور وأن الجيش الركساسي هش كبيض العصافير . . لكن النتائج أوقعتهم في فخ الذهول . .

نظر حمزة إلى الحكيم وفي نظرته حيرة وألم ، في حين أردف الحكيم :

- أتعلم متى تكون صخراً تنفلق على ناصيته رعود السماء ؟!

تمتم حمزة في استسلام :

- حين يأذن لي معلمي . .

- أحسنت . .

كانت تلك أول معلومة حصل عليها من الحكيم يوم جاءه رفقة صفوان . قال حينها للحكيم بحماسة رغم يفاعة سنه وهزال بنيته إثر المرض :

- متى نستعد للقتال يا سيدي ؟

فقطع الحكيم أشرعة حماسه بقوله :

- حين أخبرك أنا .

ومن يومها وهو يتلقى التعليم على يدي الشيخ بطرق لم يستسغها أو يقتنع بجدواها ، كان يقرأ كتباً متنوعة على الشيخ ، منها ما يتحدث عن جغرافية البلاد ، ومنها ما يتحدث عن تاريخ الممالك ، وأخرى عن الطب ، بالإضافة إلى حكايات وأخبار وقصص وأشعار ملأت حياته مللاً وسأماً ، أما القتال فكان يتدرب عليه مع صفوان ، الذي راح يصقل مواهبه في الرمي والمبارزة والركض والسباحة ، ولتعلم الركوب كان يذهب مع صفوان مرتين في الأسبوع إلى مزرعة خيل يمتلكها صديق للحكيم ، يقوم فيها الفتى رفقة صفوان وأسامة بالعمل في التنظيف والعناية بالخيل مقابل أن يسمح له المالك بالتدرب على امتطائها وترويضها .

وقد كان الفتى بارعاً حقاً ، قد تلقى تدريباً مكثفاً من والده في الماضي ، مما سهل من مهمة صفوان ، وجعله يركز على تدريبه على مهارات فائقة ، قلّ أن يجيدها أحد في مثل سنه ، مثل الرماية بالسهام والحجارة والمبارزة والجواد يركض بأقصى سرعته . . والفتى

يثبت فعلاً أن موهبته نادرة جداً . .

قال الشيخ له :

– الماشية لم ترعَ منذ ثلاثة أيام يا حمزة .

قام حمزة من مقعده قائلاً :

– الآن أسوقها يا سيدي . .

وانطلق تاركاً الشيخ يرتشف الشاي وعلى شفتيه ابتسامة رضا وحبور تفاؤلاً . .

في المرعى كان حمزة يراقب شمس الأصيل المنزلقة نحو التلال الخضراء ، تذكر اللحظات الأولى حين وصوله منزل الحكيم ، كيف كان يلح عليه ليسمح له بالخروج وقتال الركساسيين بدل أن يبقى متوارياً كالجبناء في الجبال ، حينها فتح الحكيم الباب له قائلاً :

– اذهب . . هيا حرر البلاد من الركساسيين . .

فهب حمزة واقفاً وقال :

– نعم سأذهب . . هيا يا صفوان . .

لكن العملاق الناناكروبي لم يتحرك ظل جالساً في كوخ الحكيم ، فأخذت العزة حمزة وانطلق على وجهه ، لكنه لم يبلغ السفح حتى عاد مستسلماً . . حينها قال له الحكيم :

– هل أنت مستعد لتلقي الدروس ؟

فأومأ برأسه باستسلام . .

تنهد بأسى لما مر بخاطره والده الحبيب ، الذي قضى نحبه في ردهات قصر الحكم في سيسيليا ، لم يتخيل على الإطلاق أن يموت والده هكذا غِيلة في مقر قيادته ، وسط الجنود والحراس ، على بعد خطوات من حجرته التي كان هو ـ حمزة ـ فيها حاملاً حربته القاطعة . .

أن يموت قائد في أرض المعركة ذلك شرف يود كل من حمل

السلاح أن يحظاه . . لكن أن يموت في مقر القيادة على يدي خائن زنيم لا يعرف حتى الآن . . كانت ميتة شنيعة . .

كان الأسى يملأ قلبه الذي ثُلم مرتين بفأس واحدة . . المرة الأولى موت والده ومثله الأعلى . . والمرة الثانية حين جاءه أبوه تُشيعه غربان الهزيمة . .

لقد تربى على النصر ولا شيء إلا الانتصار . . لم يكن في اللغة التي تلقاها من أبيه ذكر لكلمة الهزيمة .

لذلك لم يستطع ـ إلى الآن ـ أن يستوعب كيف فكر أبوه بالاستسلام عشية هزيمة السهل الأبيض ، ولا كيف قبل على نفسه أن يفكر في سوق الإمبراطور مكبلاً بالأغلال إلى سيوف شاكان ورجاله .

كان متحرقاً للقتال . . ثأراً لأبيه أولاً . . ورغبة في استعادة البلاد وطرد الغزاة منها وإعادة الحق لأصحابه .

لا يستسيغ الشيخ ولا تعاليمه . . يشعر أنه أغلال ضخمة تقيد مسيرته نحو جبهات المعارك . . ويعجب لصفوان المقاتل الصنديد كيف يتحكم به الحكيم وكأنه طفل صغير . .

لم يستوعب على الإطلاق أهمية ما يعلمه الشيخ من علوم لا تمت بصلة إلى الإستراتجية وفنون القتال . . لم يعلمه أبوه شيئاً منها ولم يظهر حتى أي اهتمام بها . .

لكنه كان يتشرب كل ما يصبه الحكيم في أذنيه ، معللاً نفسه بفرج قريب وشمس تذيب الجليد المتراكم على كتفيه . .

«- ماذا تفعل؟»

باغته صوت شيهانة في لجج أفكاره وذكرياته ، فالتفت إليها قائلاً باستنكار :

- أنت ؟! ألم أنهكِ عن مباغتتي بهذه الطريقة ؟!!

قالت له بسخرية :

- ولماذا أنصاع لأوامرك؟ أنا أفعل ما أشاء . . لا أحد يستطيع أن يفرض عليّ شيئاً لست مقتنعة به .

بوده لو هشّم رأسها المحشو بالغرور ، كثيراً ما كانت تشاكسه الفتاة وتثير أعصابه بأسئلتها الفضولية ، واقتحاماتها المتكررة لخصوصيته ، وما تشي به إلى الحكيم من تصرفاته التي ترى أنها خاطئة ، لذا كان حمزة يمقت الجلوس أو الحديث معها ، رغم التصاقها الشديد به ومحاولاتها المستمرة للتقرب منه .

جلست إلى جواره في ظل الشجرة دون أن تنتظر دعوته قائلةً :

- إصابتك كانت دقيقة في الحفل . .

نظر إليها بدهشة ، قبل أن يسألها بحنق :

- هل أنتِ من أعلم الشيخ بما حصل ؟!!

ابتسمت ابتسامة عريضة ، كانت جميلة بلا تكلف أو تزويق ، لكنه لم يكن يرى فيها إلا المثالب والمعايب . . كان يراها لساناً سليطاً وعقلاً مغرياً بالتحطيم .

- كنت أراقبك من بعيد متوقعة ما ستقدم عليه من حماقة . .

من تجاربه أيقن عدم جدوى النقاش معها ، فهي لا تستمع إلا ما يمليه عليها جدها الشيخ ، أما ما يقوله حمزة فهو خطأ محض لا يحتمل الصواب ، ورغم ذلك لم يكن بمقدوره مقاومة الانسياق معها خلف جدال عقيم . .

قال :

- الدفاع عن سمعة أبي ليست حماقة . .

- لم ننهك عن هذا ، لكن الوقت المناسب لم يحن بعد . .

يمقت بشدة محاولاتها المتكررة لضم نفسها في قائمة معلميه رغم أنها تصغره بعدد من السنوات ، وعبثاً حاول ثنيها عن هذا التعالي . .

أشاح بوجهه ليراقب قطيعه المكون من بعض الخراف ، فيما حلّت هي صرة جاءت بها كانت تحوي خبزاً وجبناً ، قالت له :

- أتيت لأشاركك الغداء . . هيا تفضل . .

قال بصلافة :

- لست جائعاً . .

قالت :

- كيف لست جائعاً ؟! لقد قَدِمْتَ من سفر طويل لم تذق فيه إلا القليل ولم تطعم إفطاراً هذا الصباح ، هيا كُل وكف عنك هذا العناد الطفولي . .

نفخ في حنق ، لم يمنعه في يوم من الأيام من ضربها إلا خوف الملامة من الشيخ وصفوان ، فلقد ضربها مرة واحدة قبل ثلاثة أعوام لقيامها بإخفاء نبلته التي صنعها بيده ، فغضب منه صفوان غضباً شديداً حتى كاد أن يفتك به ، وظل الشيخ شهراً لا يكلمه إلا بما يتعلق بالدرس . . وبعد أن اعتذر منه مراراً وتكراراً قال له كلمة نقشت في قلبه :

- القائد الحقيقي هو الذي يستطيع ضبط أعصابه يا حمزة . . والرجل الحقيقي لا يمد يده على فتاة . .

فأقسم حينها للشيخ ألا يضرب امرأة ما طالت به الحياة . .

لذا هو يحاول جاهداً ضبط أعصابه معها إبراراً لقسمه ، واحتراماً للشيخ الذي آواه في منزله كابن له أو أكثر . .

«- ألا ترد عليّ ؟! لا تتركني أتحدث وحدي هكذا كأنني أخاطب جداراً . . »

فنفخ ثانية . . وقام يصطنع الاهتمام بالماشية ، وقامت هي تتبعه تروي تفاصيل زيارتها لراهوا وأسبابها ، منوهة بكل شاردة وواردة عاينتها في طريق الذهاب والإياب ، وعن البضائع التي رأتها في السوق ، وكيف أن الاحتفال لم يكن شفيعاً لدى التجار في خفض الأسعار . . .

وحمزة صامت واجم يحاول جهده أن يبعد أفكاره عن الفتاة الثرثارة التي تتعلق بعرقوبه كداء عضال لا رجاء لبرئه . .

لوهلة ذكر شقيقته وردة ، تلك الصغيرة التي ظن مدة أنها قتلت انتقاماً من أبيها ، لكن الشيخ أخبره بحقيقة ما جرى لها ، فازداد إصراراً على الانتقام من شاكان . .

كان يقارن بين أخته وبين شيهانة . . أخته كانت فصيحة اللسان ، جريئة الجنان ، لكنها لم تكن يوماً من الأيام سليطة اللسان ، أو واشية تنقل إلى أبيها أفعال أخيها ، بل كانت تشاركه اللعب رغم فارق السن الذي بينهما . .

ود لو كانت شيهانة مثل أخته علّه يعوض بها ما فقده من أسرة . . لكنها كانت على العكس تماماً ، وكأن أحداً قد سخرها للنكاية به والعبث بأعصابه . .

في المساء عادا إلى الكوخ ، ليجدا خولة والسمهري وحياة قد وصلا ، حيث كانت حياة قد أعدت لهم طعام العشاء المكون من الخبز والجبن والعسل والبيض والزيتون والحليب . أكلوا جميعاً حول مائدة مستديرة والسمهري يتحدث عن بعض الأحداث الجديدة في غلوريا :

- لقد غادر شاكان البارحة إلى ركساس رفقة زوجته ريفالا ، وترك شقيقه ليون نائباً عنه . .

قال صفوان :

- تركه دمية يتصرف فيها تيهاد كما يشاء . .

قالت شيهانة :

- يبدو أن الخلاف بينه وبين أبيه الإمبراطور آخذ في الاتساع . أليس كذلك يا جدي ؟

- هذا أمر طبيعي يا بنيتي ؛ فشاكان يحكم أركاديا وكأنه هو الإمبراطور لا ولي عهد فقط . .

قال حمزة بأمل :

- هل يمكن أن نتنبأ بانفصال وشيك ؟

فأشاح السمهري بيده قائلاً :

- لا أظن يا حمزة . . شاكان يدرك أن والده طاعن في السن لم يبق له في الحياة إلا القليل . . لذلك هو صابر على نزق والده حتى يرث مُلكه العميم . .

أضافت خولة :

- ثم إنه يخشى من منافسة ليون له على الحكم . .

عارضها زوجها بحدة :

- ليون ضعيف لن يصمد أمام سطوة شاكان الذي يدين الجيش له بالولاء ربما أكثر من الإمبراطور نفسه . . إن كان من خوف هو من اندلاع ثورة شعبية في ركساس وأركاديا . . حينها سيقع العالم في فوضى عارمة يصعب التنبؤ بنتائجها . .

قالت شيهانة :

- هل تعيين شاكان لأمراء أركاديين على بعض المدن والأقاليم

هو جزء من خطته لضمان ولاء أركاديا؟

فأجابها الحكيم :

– أصبت يا شيهانة . . شاكان لا يثق في حسن إدارة وسياسية الركساسيين ، فهم شعب همجي يعيش في جبال قاسية ، ومناخ شديد البرودة ، لا يجيدون الحكم إلا بالقوة . .

تساءل حمزة باستغراب :

– إذن لماذا وادع شاكان الأركاديين ولم يأخذهم بالقسوة كما فعل في بداية الاجتياح ؟

– قماشة شاكان مختلفة عن بقية شعبه ، فهو داهية يعرف كيف ينال ما يريد بأقصر الطرق وأسلمها . . كان يريد اجتياح هذه البلاد لا ليزيد من مُلك والده وثرائه . . بل ليزيد ملكه هو وثراءه . . العدوانية والشراسة التي أظهرها في اجتياح الشمال كانت استعراضاً للقوة . . ليجعل الضحايا عبرة للمعتبرين . . ليزعزع الثقة في قلوب المقاومين . . وبعدما حقق ما خطط له ، أظهر الهوادة حتى يسترق قلوب الشعب عليه فيحكمهم كما يشاء . .

قالت شيهانة مخاطبة حمزة تأكيداً لكلام جدها :

– ولذلك لم يقتل كبار أعوان النعمان بعد سقوط سيسليا . .

يعلم حمزة أن جُلّ كلامها هو ترديد لما تسمعه من جدها ، وأنها فقط تريد أن تبرهن له تفوقها عليه فهماً وإدراكاً . .

أقامت حياة المائدة وقدمت لهم الشاي ليحتسوه قبل النوم ، في حين قال الحكيم :

– أحضر رقعة الشطرنج يا حمزة . . حان موعد لعبتك مع شيهانة .

فقام حمزة من فوره ونصب الرقعة على الطاولة قرب الشرفة ،

ورصت شيهانة الأحجار عليها ، في حين اتخذ الجميع أماكنهم حولها لتتاح لهم المتابعة ، فيما قربت حياة المصباح حتى تتسنى رؤية الأحجار . . قالت شيهانة بلهجة ساخرة :

- ابدأ أنت يا حمزة . . لعلك تستطيع هزيمتي هذه المرة . .

بعد شهر واحد من وصوله إليهم سأله الحكيم إن كان يحسن لعب الشطرنج ، فأكد بحماس أن والده قد علمه لعب الشطرنج منذ حداثة سنه ، فغدا بارعاً فيها قد هزم والده عدة ومرات وكذلك عميه ووالدته وكل من لعب معه اللعبة . لكن الحكيم ابتسم له قائلاً :

- كان أبوك يتساهل معك يا حمزة .

فغضب جداً وقال بتحد :

- أنا مستعد لأهزمك أنت أيضاً أيها الحكيم . .

فضحك الحكيم ، وقال :

- أنا لن ألعب معك . . حتى تهزم شيهانة . .

فقال حمزة بتهكم :

- أتتوقع أن تنتصر عليّ هذه الطفلة أيها الشيخ ؟!! لقد ظننتك حكيماً كما يقولون . .

قال الحكيم :

- هيا أرني قدراتك يا ابن البتار . .

حينها وضعوا الرقعة ، وبدأت اللعبة ، وبعد نقلتين فقط ، قامت شيهانة قائلة :

- كِش . . مات!!

تاركة إياه متخبطاً في أغوار الدهشة أن تمكنت هذه الفتاة الصغيرة من هزيمته دون أن يخسر حجراً واحداً على الإطلاق . . حينها قال له الحكيم :

- الغرور . . يُسقط الصقور من السماء . .

بدأ حمزة اللعب بتحريك أحد حصانيه ، مما دعا شيهانة لتعلق ساخرة :

- تبدو مندفعاً هذه المرة يا حمزة . . ينبغي عليك تحريك البيادق أولاً لتتيح لجنودك فرصة لاحتلال الأرض والتمركز السليم ، هكذا ستمنح خصمك الأسبقية لاختيار المواقع الموائمة للدفاع والهجوم . .

فتبسمت والدتها عندما لاح لها ظل الحنق على ملامح حمزة . . في حين قامت شيهانة بتقديم أحد البيادق ، واحتدمت اللعبة بينهما واستمرت طويلاً ، كان حمزة يحرك فيه قطعه بعد تفكير طويل ، وشيهانة تسفعه بعباراتها الساخرة ، ولربما قامت من مجلسها لغرض معين ثم عادت ، ولربما استلقت أرضاً ، أو خاضت حديثاً مع والدتها عن شؤون السوق وهذر النساء ، تفعل كل ذلك إمعاناً في النيل من أعصابه ، مما حدا به للاندفاع بأحجاره إلى الأمام متوثباً نحو مراكز الهجوم ، فراح يضغط بكل قوته ، مهدداً أحجارها بالأسر ، لكنها كانت داهية بحق ، قد حصنت دفاعاتها بشكل جيد جداً ، جاعلة لكل قطعة من قطعها حماية أو أكثر .

تصبب الشاب عرقاً من فرط الصعوبة التي يجدها في اقتحام تحصينات الفتاة التي يكرها للغاية ، يحرك بصره بسرعة رهيبة بين المربعات والقطع بحثاً عن ثغرة يثب بها خلف خطوط العدو ، ليزعزع ذلك الكبرياء المتراسف في رأسها الصغير ، لكنه كلما رام تحريك حجر إلى مربع اكتشف فخاً تحوكه له الداهية الصغيرة .

كانت تتحدث مع نفسها أثناء تفكيره ، تقرأ بصوت عالٍ أفكاره ، وكان يغيظه أنها كانت تصيب دائماً .

- هيا العب (صاحت بعلو صوتها) . . لا أريد أن أشيخ وأنا ألعب معك هذه اللعبة .

فحانت منه التفاتة عصبية إلى صفوان الذي كان يداعب لحيته متفكراً في أمر اللعبة المحتدمة بين الصبيين الموهوبين . .

وبكل عصبيته حرّك إحدى قطعه إلى مربع خالي في الأمام ، فاعتدلت شيهانة في جلستها هاتفة :

- أخيراً وقعت في المصيدة . .

وبسرعة رهيبة راحت تلتهم أحجاره نقلة تلو النقلة ، والعرق يتصبب على وجهه ، مدركاً حقيقة الفخ الذي استدرجته للوقوع فيه ، يرفض الرضوخ لليأس المتنامي في نفسه ، وهو يحاول جهده إصلاح الغلطة الوحيدة التي ارتكبها في هذه اللعبة التي ناهزت الساعتين عمراً ، لكن الفتاة راحت تكتسح مربعاته ، مقلصة عدد أحجاره إلى أربعة أحجار فقط ، وقالت بسخريتها المعهودة :

- أستطيع أن أقتنص ملكك كجرذ أجرب في أي لحظة ، لكني سأبقيه وحيداً ثم أقتله .

فاستعرت نفسه بالغضب من كلماتها ، وهمّ أن يضرب الأحجار والرقعة ويقوم من مجلسه سخطةً عليها وعلى أسلوبها المستفز ، وتنفيساً لحنقه المضطرم من هزيمته الوشيكة .

لكنه كان مصراً على الصمود إلى آخر لحظة ، بل فكر جدياً في هجوم مباغت ينال به من فرحتها بانتصار سهل ، فدفع بعض الحجارة إلى الأمام ، لكنها تنبأت بحركته ، فاقتنصت الحجر ضاحكة ، وأحكمت الخناق على الملك المعزول ، وقالت العبارة القاتلة ضاخّةً أكبر قدر من التهكم في نبراتها :

- كش . . مات . .

فاغتصب ابتسامة ، وقام من مجلسه مؤدياً التحية للحكيم ، وارتقى سلم العلية وهو يداري دمعة حنق ساخنة . . في حين تمتم السمهري :

- أعصابه هشة كالطين الجاف . .

في الصباح كما اعتاد منذ خمس سنوات كان يشارك صفوان التدريب ، يتبارزان بسيفين خشبيين ، ويركضان في التلال القريبة ، ويسبحان في النهر ، ويتسابقان تسلقاً لأحد التلال .

كان حمزة يحمل على صفوان حملات متهورة ، يدفعه حنقه الذي تمور به نفسه ، لم يكن يكره شيئاً في الحياة مثل الهزيمة ، ولطالما جرعته شيهانة من صِبْرِها المرير ، ولطالما جلد نفسه على تلك الهزائم المتتالية منها ، الحيلة كانت تعوزه ، يدرك - نظرياً - أن فقدان الأعصاب هو الإسفين الأول في نعش الهزيمة ، لكن - عملياً - لم يكن يستطيع تطبيق الأمر على الواقع .

تلك الفتاة كانت تستفزه . . تثيره . . تسكب الزيت على أجيج أعصابه . . والأدهى أن لم يكن ثمة رادع لكبريائها المتمارد ، إلا في حالات نادرة كانت تجاوز فيها الحد ، فتجد الشيخ ينهرها بلطفه المعهود .

أدرك صفوان تردي مزاج حمزة ، فتلقى حملاته بهدوء ، قبل أن يحمل هو عليه ، ويجرده من سيفه .

قال له :

- قاتل خصمك وأنت مشتت الذهن ، وستتناثر أشلاءك في أرض المعركة .

أطرق حمزة برأسه ، وسار ليجلس حذاء الجدول الجاري ، رنا إلى الشمس البازغة في الأفق محرقةً بكل عنفوانها الأثير المتكدس عبر الأزمان . .

قال بأسى :

- لم تكن الأمور بهذه الصعوبة يا صفوان أيام أبي . .

جلس صفوان على صخرة قريبة وغمس قدميه في الماء وقال :

- يزداد العمق كلما أوغلنا في مياه البحر .

- لا أظنني قادر على مواصلة السباحة . .

- بل ستكون حوتاً يبتلع بقية الأسماك . .

رنا إليه بلهفة قائلاً :

- هل تظن ذلك يا صفوان ؟

قال العملاق ببساطة :

- لولا يقيني من ذلك ما صبرت عليك كل هذه المدة .

لمح حمزة ضفدعاً يقفز فوق الصخور المتطاولة وسط الجدول ، سمع صفوان يستطرد :

- البارحة كنت تلعب جيداً ، كانت أفضل مباراة لعبتها مع شيهانة .

- تلك الشيطانة . . غلطة واحدة كلفتني المعركة . .

قال صفوان بظفر :

- بالضبط . . هذا الذي يريد الشيخ أن تتعلمه يا حمزة . .

تساءل :

- كيف ؟

من خلفهما جاءهما صوت الشيخ يقول :

- أنا أخبرك يا حمزة . .

وقفا إجلالاً له ، جلس بينهما ودعاهما للجلوس ، جمع عليه رداءه واشتكى الشتاءَ الزاحف في الأجواء ، قال بنبرات مفعمة بالوقار :

- لطالما أجبرتك على لعب الشطرنج لأثبت أنها لعبة سيئة لا تصلح لك . .

اندهش حمزة، وابتسم صفوان خفية .. سأل الأول :

- الشطرنج ؟!! إنها لعبة القادة والحكماء!!

ضحك الحكيم وقال :

- هل تعتبره حكيماً من يفني جنوده وعساكره وجيوشه وكل ما على رقعة الشطرنج لحماية شخص واحد ؟! مهما علا شأنه أو نقص ؟!

سكت الغلام .. صعقته الحقيقة الجليّة المتدثرة بسحائب كثيفة من العادات .. في حين قال الحكيم :

- معركة السهل الأبيض .. تلك المعركة الفاصلة في تاريخ دولة ضربت جذروها عميقاً في التاريخ .. أتعلمان كيف انتهت ؟

أشاح صفوان برأسه وكأنما أراد أن ينفض ركام الذكرى من رأسه، أما حمزة فقد تماثلت أمام عينيه ذكريات اللحظات الأليمة حين رأى والده مضرجاً بدماء الهزيمة ..

أردف الشيخ :

- المعركة بها جانب بطولي لا ينكره منصف .. وهو الشجاعة المفرطة التي أبداها القائد بتار .. إذ استطاع ببسالة نادرة أن ينسلّ من بين كماشات العدو المطبقة بالإمبراطور النعمان، ويعود به سالماً إلى سيسيليا .. تلك بطولة حقيقة يحق لها أن تتبوأ مكانها في علياء البطولات .. لكن ...

التفت الشابان إلى الحكيم وكأنهما يستحثانه لإكمال حديثه .. فاستنشق نسمة من الهواء، وقال كلمة عبّر فيها عن سخطه للبرودة المتدفقة في الأجواء ثم أكمل :

- لقد فني جيش أركاديا تماماً بانسحاب قائده لحماية شخص واحد فقط .. شخص يساوي في نظر والدك يا حمزة أربعين ألف

رجل . . وأضعافهم ممن يسكنون مدن الإمبراطورية نساء ورجالاً . . ضحّى والدك بهم جميعاً ليحافظ على حياته . .

تدفقت دماء الغضب إلى رأس حمزة فقال :

- أليس هذا واجب الجندي أيها الشيخ؟ أن يحمي . . .

قاطعه الحكيم :

- أن يحمي وطنه . . لا أن يحمي شخصاً مهما سمت ذاته البشرية . . .

أُلجم لسان الغلام وعجز عن إيجاد رد يقدح به كلام الشيخ ، فرغم خفته إلا أنه كان ثقيلاً كشعاع شمس الظهيرة . .

قال الحكيم :

- الملوك يا حمزة يكتسبون القداسة من تراب أرضهم . . فكلما شيدوا مجده زاد حبهم وسما شأنهم . . أما أن يتسولوا السؤدد بألقابهم فذاك صنيع العجزة . .

بدوره كان صفوان ينصت بقلب يفيض فرحاً . . ذات الكلام كان يرغب بقوله لبتار عشية المعركة لكنه لم يكن يحسن صياغته في حروف وكلمات كما يفعل الحكيم الآن . .

راز حمزة بعينيه ليقيس أثر الكلام عليه . . كان واجماً صامتاً . . يحدق في الأفق بعينين يكاد لحظهما الحاد أن يجرح الفراغ . . في الحقيقة . . كانت معركة حقيقة تحتدم داخله . . أبوه . . أم الحكيم؟ لم يحتمل ذلك الصراع فآثر أن ينسحب ليعيد ترتيب أفكاره . . وثب واقفاً وركض مجتازاً الجدول لينأى بنفسه ، وهمّ صفوان باللحاق به لو لا أن استوقفه الحكيم بقوله :

- دعه يا صفوان . . لقد اقترب موعد فطامه . .

***

## الفصل الثالث:
## نواصي الأسود تطل من العرين

عندما يولد الإنسان أول ما يتسلل إلى صدره تلك النسمات الدافئة . . نسمات الوطن . . ينتقل إلى الرئتين . .

الوطن هو الحضن الوثير الذي يتلقى بؤس الإنسان ساعة سقوطه طفلاً من رحم السماء ، فيغدق عليه بالحنان والأمان ، ويروي أطرافه الغضة حتى يعلوها الخضار . .

أن تموت لأجل الوطن تلك هي الحياة الحقيقة . .

لا يولد المرء الحر لنفسه . . هو يولد لوطنه . . فالوطن لا يكون شيئاً دون أبناء أوفياء . . يسندونه إن عاثت به عواصف الدهور . . ويحملونه على العواتق إن تكالبت عليه خناجر الأعادي . .

لا يُعد الوطن وطناً إن أقام الاحتلال عليه المعسكرات . . وأبناء الوطن يتفرجون . . ولفرط ذلهم يقدمون القرابين إلى محتليهم . . يطوفون عليهم بالكؤوس والقوارير . . وينسجون لهم الأسرة والنمارق . . ويحملون . . ويلدون . . ويربون . . ثم يقدمون لهم العبيد والجواري . . . والوطن البئيس يذوي . . يضمحل خلف قضبان السجون . . ولا يبقى منه إلا ذكرى تنوس في سماء الذاكرة . .

الوطن . . هو النجم السامي الوحيد الذي يحق للإنسان الحر أن يريق دمه قرباناً لمرضاته . . أن يرقع أديمه المشقوق بلحمه الذي تحت

جلده . . أن يعلق عيونه على سمائه . . أن يحتويه بصدره الصغير إن أحس منه يتماً أو جزعاً أو خوفاً من فورات الزلازل . .

الوطن . . هو تلك الحدود الشاسعة التي تشعر نحوها بالحب . . بالدفء . . بالراحة والاستجمام . . هو ذلك الحيز الصغير الذي إن نُزعت منه وزرعت في بساتين وقصور وجنان فسيحة كالكون . . تمل الحياة فيها . . وتتوق لذلك الحيز . .

الوطن . . هو الأم الرؤوم . . التي تحنو عليك ساعة ضعفك . . وتسقيك حرية ساعة قيدك . . وتكلل أحلامك الرانية بسلسبيل الخلود . .

الوطن . . هو النعيم الذي تسعى لإبقائه مفتوحاً على كل الأقطاب ليلوذ بها كل ملسوع من سياط الجوع وأغلال الفقر . .

الوطن . . عروس شابة لها في كل قرية عرس وفرح . . تضع على هامتها تاج السلام . . وتتحلى بزينة الأمان . . فبدونهما . . لا زينة . . ولا احتفال . . ولا شباب . .

الوطن هو السماد الطاهر الذي تسكبه الطبيعة في أضلاعنا . . فتزهر شراييننا آمالاً خضراء . .

الوطن لا يكون وطناً ما لم تُبذل له الدماء . . وتُصلب لأجله المهج . .

بمثل تلك الكلمات كان الحكيم يتسلل مواربأ إلى تلافيف عقل الغلام . . يقتلع حجارة ويبني قلاعاً . . يزيل أحراشاً ويغرس سنابلاً . . يُطيّر خفافيش ويُسكن حمائم . . يطمر حفراً ويجري أنهاراً . .

والغلام اللاهث خلف أذيال النصر المتفشية في الكون يثمل بظلال الأمل . . يترع العلوم ويسكر بالحِكَم . . يشعر بعضلاتٍ تنمو في رأسه وتترعرع في صدره . .

ما يزال أثر كف أبيه المخضبة بالدماء على صدره وشماً براقاً . . شرّع له نوافذَ مضيئة تُطل على قلبه وتنفذ إلى روحه . .

« قلوب الرجال تصنع أعمالهم » . . وقلبه لا يزال مسترضعاً في حوزة الشموس . . وعما قريب سيشرق على الأرض عنقاءَ متوهجةً يحرق لظى أجنحتها ركام العتمة المنتشر في الآفاق . .

رغم أن حمزة لم يكن مقتنعاً بادئ الأمر بجدوى المكوث عند الحكيم ، إلا أن عناده سرعان ما أخذ بالانهيار . شعر بحقيقة حجمه . . وأن الهالة الهائلة التي أحاط نفسه بها وأحاطه الناس بها ما هي إلا كومة ريش زاهية الألوان تبددها نفحة هواء . .

كان يظن أن الحروب تدار بالسيوف والسواعد . . لكن الشيخ أقنعه أن السيوف والسواعد ما هي إلا دمى يحركها العقل كيف يشاء . .

كانت شيهانة نحيلة وحساسة للغاية . . ترتدي في الشتاء أكواماً من الصوف حتى لا يحيق بها المرض . . كلمة جارحة من فمه . . أو صفعة هائجة من يده كفيلة بتحطيم غرورها . . لكن عقلها كان زوبعةً تبعثر خرائطه وتعيد تشكيل تضاريسها . .

بها أراد الحكيم أن يعلمه . . أن يؤدبه . . أن يعيد تركيب مفاهيمه . . أن يذيبه ويسكبه في قالب جديد أكثر اتساقاً مع الظروف الراهنة . . أن يجعل منه رجلاً على الأرض . . لا ملكاً في السماء . .

لكن الانسلاخ من جوانح الملائكة والانصباب في جلد البشر ، والاقتلاع من السحب والانغراس في الطين لم يكن هيناً على الغلام . . لذلك احتاج صبراً وحكمةً وبصيرة من لدن الشيخ الطاعن في الحكمة . .

أن تهدم جبلاً وتعيد تشكيله أهون من هدم قناعات الرجال وإعادة تكوينها . .

لذلك حفر بتار . . وزرع صفوان . . وهذّب السمهري . . وحصد توفيق . .

كنت قد حدثتكم عن وجود خلاف بين شاكان ووالده الإمبراطور ، وفي الواقع فإن هذا الخلاف له قصة طويلة . .

تزوج الإمبراطور من زوجته أيام كان ولياً للعهد . . أجبره والده الملك السابق على الزواج رغماً عن إرادته رغبة منه ليكبح جماح الفتى المهرول خلف متعه وشهواته ، والحقيقة أنه كان يهوى غانية لعوب من عامة الشعب رفض والده وبشدة أن تقترن الدماء الملكية الجارية في عروقه بماء العُهر الجاري في جسدها . .

فتم الزواج الملكي بين ولي العهد وأميرة من قريبات الملك . . لذلك لم يكن والد شاكان سعيداً بزواجه . . كان يقضي أغلب أوقاته في الشرب واللهو ضارباً عش الزوجية عرض الحائط . .

وامتد هذا الصدود بين الملك والملكة حتى بعد إنجاب ولي عهده الأمير شاكان . . الذي نشأ يشاهد الدمع مدراراً على خديّ والدته الكسيرة . . كان يراها تتلقى التعنيف والضرب والشتم من الملك السكّير بسبب أو بدون سبب . . وحين أخذ يكبر هو الآخر لاقى نصيبه أيضاً من مزاج والده الشديد . . فراح يحاول جاهداً أن يثبت لوالده أنه أهل لثقته ومستحق لبركاته ، إلا أن الوالد كان يستهين بكل مهارة يبديها الغلام . . فيحط من قدره ومن شأنه في كل مناسبة . .

لذلك لا غرابة أن يكبر الغلام حاملاً في سويدائه حقداً دفيناً ورغبة مستعرة لاثبات النفس وتحقيق استقلالية تامة عن أبيه . .

وقد نجح شاكان في كثير من ذلك . . فهو فارس صنديد لم ترَ

ركساس مثيلاً له على الإطلاق ، وحاكم ذكي يجيد فن إدارة العباد والبلاد . . ذو رؤية مستقلة وأمل عظيم وعمل دؤوب لتحقيق ما يريد . .

في رحلته تلك - التي دامت عاماً - إلى عاصمة ركساس ، اصطحب فيها زوجته ريفالا بناء على إلحاحها ، كما اصطحب في معية حاشيته الوزير زيدون . أراد شاكان بهذه الصحبة أن يمعن في تحدي والده ، ليريه كيف أن وزير امبراطور أركاديا السابق قد غدا وزيره هو ، يحمل له من الولاء ما يفوق ولاءه لسيده السابق . .

ولم يألُ الإمبراطور جهداً لإظهار امتعاضه من دخول أركادي إلى بلاطه يحمل صفة كريمة ورتبة عليّة ، فقام بطرده من القاعة رافضاً حتى أن يصافحه ، مما حدا بشاكان ليغادر القاعة مغضباً ، رافضاً أن يمثل بين يدي والده إلا في حضور حاشيته بأكملهم . .

ولكم أن تتخيلوا مقدار الكبرياء اللازم ذوبانه ليعاد شمل الوالد وولده . .

في تلك الرحلة قابل زيدون وردة بنت البتار . . رآها لأول مرة منذ سقوط سيسليا حين سيقت جارية إلى مخدع امبراطورة ركساس . . قدمت له الشراب عندما مثل مع الأمير شاكان بين يدي الملكة . . فلفت انتباهه جمالها المبهر ، لم يتعرفها أول الأمر لولا أن سأل شاكان والدته عن ابنة بتار فأشارت إليها الإمبراطورة وأطنبت لها الثناء . .

هناك نظر إليها الوزير يفتش عما فعلته فيها معاول الأيام . . كانت تروزه بنظرات حارقة . . سمعها - في رأسه - تلعنه وتصمه بالخائن . . أراد أن يختلي بها ليسألها عن حالها ويبدي لها حناناً . . لكنها لم تتح له المجال . .

في الحقيقة كانت وردة قد تشعبت حقداً على كل خائن سلمها وسلّم أركاديا لأفواه العدو . كانت قد وصلت إلى البلاط الركساسي بعد رحلة استغرقت ستة أشهر عاث الجنود فيها بكل شبر من جسدها . . فدخلت على الإمبراطورة في حالة مزرية تعلوها آثار الضرب والجراح ، مما حدا بالإمبراطورة لإنزال العقاب على الحامية التي أوصلت الفتاة . .

وما هي إلا أسابيع قليلة ويظهر أثر الحمل على وردة ، لكنها ـ لحسن الحظ ـ خسرت حملها بسبب ضعفها ومعاناتها إبان الرحلة العصيبة ، فأكرمت الإمبراطورة وفادتها ، وأحسنت إليها ، وراحت تعاملها معاملة خاصة ، ورقتها لتصبح وصيفتها الخاصة رغم اعتراض الإمبراطور المتكرر مداراة لغدر قد يصدر من قبل الفتاة الثكلى . لكن وردة كانت على قدر كبير من الجاذبية الفطرية ، مما جعلها تتسلل إلى قلوب كل من رآها وجالسها رغم أنها لم تكن تتحدث إلا بالإشارات والإيماءات التي حذقتها سريعاً . .

ريفالا أظهرت الحزن العميم في العاصمة ، اشتكت إلى الإمبراطورة من ابنها شاكان ، كيف أنه لم يعد يهتم بها ، وأنه صرف جل اهتمامه بزوجته الجديدة نور ، تلك القبيحة ـ كما وصفتها ـ سليلة أرض أركاديا القذرة ، كما أنه يحابي الأركاديين بشكل مبالغ فيه ، وكأنهم هم السادة والركاسيون هم الرعاع المستضعفون . .

الأميرة الجميلة كانت ابنة ملك إقرشانيا ، خطبها والد شاكان لابنه في لعبة سياسية غرضها الشراكة والتحالف بين البلدين ، وبذلك تأمن المملكة الركساسية من شر إقرشانيا وتكسبهم كحليف استراتيجي في حربها ضد أركاديا . .

فلا غرابة أن تكون ريفالا عزيزة النفس شأنها شأن فتاة تربت منذ صغرها في كنف حرائر الخدور الملكية ، كان شنيعاً عليها أن تقبل بالدون ، لا سيما حين يتعلق الأمر بها كأنثى ، تأتي امرأة وضيعة فتنافسها في رجلها الوحيد . .

ليون شقيق شاكان قد كان تولى الحكم نيابة عن شقيقه في غلوريا . . هو شاب صغير لم يتجاوز العشرين ، يختلف جذرياً عن شقيقه الأكبر ، فهو أميل إلى النحالة والنعومة ، واستحباب رغد العيش على غليظه ، يهتم بالفن والغناء وإقامة الحفلات والجلوس إلى النساء أكثر من الرجال ، يجيد من فنون الرقص أكثر مما يجيده من فنون المبارزة والفروسية ، ورغم ذلك كان يحاول دائماً استمالة قلب شقيقه القاسي عليه ،لكن محاولاته كانت تنوء به أكثر عنه .

ولذلك عندما أنابه شاكان ترك معه وزيره الأوثق تيهاد وصيّا عليه في الخفاء ومستشاراً في العلن ، فانصرف الشاب خلف اهتماماته تاركاً دفة الحكم تحركها قبضتي تيهاد الوثيقتين .

الناناكروبيون في الجنوب اكتسبوا بعد حصولهم على الحكم الذاتي غطرسة وكبرياءً يأتي قريناً على الدوام مع كل مستجد يلج عالم القوة والسيطرة . راحوا يخوضون خلال الأرض الأركادية - التي تحت حكمهم - متحكمين في كل صغيرة وكبيرة ، بتعالٍ وكبرياء وظلم لا يعرف حداً أو ردعاً ، فإن كانت السمة الأبرز لحكم الركساسيين في أركاديا هي إظهار العدل ، فالظلم الشنيع وإظهاره كانا السمتين الأبرز لحكم الناناكروبيين .

قصص كثيرة بلغتني يظهر فيها بجلاء غلو الناناكروبيون في هضم حقوق الناس ، من ذلك أنهم كانوا يوقعون حكم الإعدام

لأتفه الأسباب ، فمرة أعدموا شخصاً لأن بقرته سدت الطريق!! ومرة حرقوا حقلاً لتأخر سنابله عن موعد الحصاد!! وهكذا حتى بلغ من سكان المدن الغضب مبلغاً عظيماً مما حدا لحصول حدث عظيم في مدينة (ريفولت) جنوب غرب سيسليا ، حيث حُكم بالإعدام على بضعة فلاحين لأن غلة حقولهم أقل من العام الماضي!!

وفي يوم الإعدام قام الفلاحون بثورة عارمة ، وقتلوا رجال الدرك واستولوا على أسلحتهم ، وهموا بمهاجمة ناناكروبا لولا أن بلغتهم أنباء تعبئة قام بها الناناكروبيون لسحق الثورة ، مما حدا الثائرين إلى الهروب شمالاً إلى مدينة فرايدن ، حيث يوجد السجن الكبير الذي يحوي عدداً كبيراً من جنود أركاديا السابقين ، وبعد حرب ضروس لم تتوقعها الحامية الركساسية نجح القرويون من تحرير القادة ، والفرار إلى جبال (ايرالوتزا) الفاصلة بين أركاديا وإقريشانيا .

لكن تلك الثورة لم تمرّ دون ثمن . . لقد حاصر الأرغل قرية ريفولت بأكلمها مانعاً من تبقى سكانها من النساء والشيوخ والأطفال من الخروج ، وأضرم النار فيها . . فاحترقت القرية بأكملها ، ولم يتبقَ من ريفولت وسكانها إلا رماداً قد سوّد أطراف صفحات التاريخ . .

كان لهذا الحدث الجلل انعكاسات خطيرة على الأحداث القادمة ، فلقد استنفر تيهاد الجيش إلى الغرب ، وأرسل أوامراً مذيلة باسم ليون إلى ملك إقرشانيا لتمشيط جبال ايرالوتزا من جانبهم أملاً في القضاء على الثورة قبل اندلاعها .

ومن الجانب الآخر كان الناناكروبيون يمشطون الجبال ككلاب مسعورة تسعى للانتقام ولتكفير الخطأ ، لكن الجنود في فرق

التمشيط من الجانبين واجهوا جحيماً حقيقياً . .

فلقد فتك بهم الثوار فتكاً رهيباً . . كانوا ـ كما وصف أحد الناجين القلائل ـ كالأشباح في حضورهم المباغت . . ووقعهم المرعب . .

وانتشر الرعب بين الصفوف من الثوار حتى أنهم وصفوهم بأكلة لحوم البشر . . ولم يكن ذلك وصفاً مزاجياً بل كان له أصل واقعي . إذ شاهد جنود إحدى المفارز في الجبل معسكراً مهجوراً للثوار ، به قدور قد حوت بقايا جثث ناضجة لزملاء لهم ، وعظاماً وأعضاء قد نُهش لحمها . وتكررت تلك المشاهد على الجانبين ، مما ساهم في رواج الإشاعة . التي كان مصدرها في الأساس خطةً من قبل نصار بن الوزير زيدون الذي استلم قيادة الثوار باعتباره أعلى الناجين رتبة في صفوف الجيش الركساسي .

كان نصار قد أمر بطبخ الجثث ونهشها ليترك ذلك الانطباع في قلوب جنود العدو . . ونجح في ذلك تماماً . .

وبذلك أصبحت جبال ايرالوتزا مأوى للمقاومة ومأرزاً للثوار ومنطلقاً لكثير من الحملات الشرسة التي أقضت أمن الشرق والجنوب دون أن يقدر تيهاد أو الأرغل على إخمادها . .

وجُنّ جنون حمزة بن البتار . . راح يلح على الحكيم توفيق أن يسمح له بالسفر إلى ايرالوتزا للانضمام للثائرين أسوة بكثير من أترابه من المدن والقرى المجاورة للجبال الغربية ، لكن الشيخ نهره عن مجرد التفكير في ذلك . .

دعوني أحط بأجنحة الذكرى بعيداً إلى مدينة أنجيليا شمال النهر الأبيض حيث وقع أمر آخر له تأثير جذري على مستقبل أركاديا . .

حدث سيغير تاريخها إلى الأبد . . أذاب أركاديا كلها . . وسكبها في قالب جديد . . نحتت فيه أصابع الأقدار حتى استحال نُصباً عملاقاً نشب في حلق الغيوم . . .

أطلت الأسود . . فويل للغربان من هول الزئير . .

***

الشمس جذوة نار قد تراكم عليها الغيم كحطب متكدس أوشك على اطفائها . ثلج الشتاء قد كسا عشب أركاديا وأشجارها بفرائه الأبيض فبدت الطبيعة شاحبة كوجوه الموتى . والريح المحملة بالزمهرير تعوي وتلتهم الدفء اللائذ بالصدور والأطراف . .

قافلة من بغال وخيل وعربات وأقدام تسير حثيثة نحو أنجيليا . نساء ورجال وأطفال وماشية . قد أخرتهم عن الانطلاق من راهوا شهراً المشكلة التي أحدثها حمزة بن البتار يوم الاحتفال بمرور خمسة أعوام على اتحاد المملكتين .

ثلاثة أسابيع وهم يسيرون وبقي لخطواتهم مسيرة أيام ثلاثة ، والخوف المتنامي من انقضاض قطاع الطرق الرابضين في الغابات يزيد من وطأة البرد ويطيل المسافة .

في إحدى العربات المخصصة للنساء كانت الوصيفة شروق وفي حضنها طفل جميل في السابعة من عمره هو الأمير العزيز بن النعمان .

هربت الوصيفة به بإيعاز من الأميرة ثريا ليلة سقوط سيسيليا نجاة بعمر ولي عهد البلاد أن تطاله سيوف المعتدين . . ولم يكن الهروب من مدينة محاصرة أمراً سهلاً أو مقدوراً من قبل فارس مدجج فكيف الأمر بجارية ابنة جارية كشروق ؟!

تلفعت بثيابها الداكنة محتضنة الأمير الصغير . راحت تركض غرباً متسللة في جنح الظلام . لكن جندياً ناناكروبياً لاحقها بجواده

وكاد أن يشي بأمرها لولا أن بكت بين يديه وتوسلت له ، وقامت بإعطائه صرة الذهب التي أعطتها الأميرة ، فخلّى الجندي أمرها ، دون أن يعلم أنها وصغيرها يساويان أكثر بكثير من تلك الصرة .

ولم تدرِ الجارية كيف تتصرف أو إلى أين تذهب . . وهي غريبة ليست من أهل أركاديا . . قد أهداها سلطان ناقار للنعمان قبل عشر أعوام توطيداً للعلاقات بين البلدين ، فهي لا تملك أهلاً أو عشيرة في أركاديا ولا في ناقار . . وخشيت إن عادت إلى السلطنة أن ينالها والأمير القتل أو السبي فتضيع الأمانة المهولة التي تحملها بين ذراعيها . .

وانطلقت الجارية في الصحراء لا مال أو ماء يقصران من سكة سفرها ، بل جهد وعناء وأمانة طوّلت الطريق وزادته عنتاً ومشقة ، فحاق بها العطش ، واستبد بها الجوع ، وهتّك بكاء الصغير قلبها وصدّع بنيانها . . وعندما أوشكت أن تنوء بحملها وتسقط في دوامات الرمال ؛ فوجئت بمضارب عشيرة من العشائر التي تسكن الصحراء ، تلك العشائر المشهورة بالكرم والشهامة والنجدة والشجاعة . احتضنوها والصبي وأكرموهما وقدموا لهما الطعام والمأوى . .

ارتدت حينها جلباب ضحى وقمصت الأمير قميص ليث . . قضت عندهم أياماً مفعمة بالراحة دون أن يسألها أحد عن أصلها وأصل الصبي ومن أين وإلى أين ، بل راحوا يعاملونها والعزيز كما يعاملون أفراداً من عشيرتهم . . حتى نما في وجدانها شعور مستنيم أنها وجدت الملاذ الأمثل لتنشئة الأمير نشأة تليق بأصله ومكانته . .

لكن الأحلام مهما بدت جميلة أو واقعية سرعان ما تذوب

ساعة تفتح المحاجر على هول الحقيقة . .

انطلقت الكتائب الركساسية تجوب البلاد بحثاً عنها وعن صبيها . . وتنامى إلى شيوخ العشيرة أنباء اقتراب المحتلين من مضاربهم ، وتوجسوا ريبة من الفتاة والغلام ، وساءلوها عن الحقيقة واعدين إياها بالستر والأمان . . فأنكرت وأغلظت في الإنكار . . وتسللت ليلاً بسرها وانطلقت شمالاً . . وكان رجال العشائر عند وعدهم . . فخفّوا أمرها عن الجنود ، وأوحوا إليهم سيرها إلى الجنوب . .

ومن مدينة إلى مدينة تنقلت الجارية تجر الوجود خلفها . . أخذت تكسب قوتها بالمهنة الوحيدة التي تتقن وهي خدمة البيوت . . تعمل بضعة شهور ثم تسافر إلى مدينة أخرى . . عانت من كل معاناة تعانيها أم وحيدة تسافر بين الرجال . .

هي الآن تحمل خطاب توصية من فريال إلى عامر بن الغضنفر الجندي في الجيش الركساسي . . كانت تأمل أن تحظى أخيراً بملاذ آمن بعد سنوات التشرد التي عاشتها . . تعلم أن تنور البحث المستعر آخذ في الانطفاء . وأن اختباء الغزلان في عرين الأسود الجائعة أفضل من التجول في براري صيدها . وكتاب التوصية قد يلقي غلالة داكنة على رماد الشك فيسارع بإطفائه . .

كان الفتى الصغير يُحدق في وجوه المسافرين بحدقيته الزرقاوين . . يحاول أن يطل بعينيه وخياله إلى الفراغ الممتد خارج العربة المغطاة بخيمة وبر تقيهم الثلج وبرد الرياح . تابع ببراءة تساقط حبات الثلج كلآلئ تنهمر من صدفات منثورة فوق الغيوم . كان يتساءل في نفسه :

«- ترى؟ كيف يكون طعمها؟ كيف هو ملمسها؟ هل هي

قاسية كالحجارة؟ أم لينة كالقطن؟ هل هي حاذقة كالملح؟ أم حلوة كالسكر؟»

تخيل ملمسها على راحتيه . . تتدحرج على لسانه . . تذوب في حلقه . . فدعته طفولته المتدفقة وخياله الواسع ليمد كفه إلى الخارج عبر الفرجة اليسيرة في باب الخيمة ليلتقط حبة ثلج . حاول بنعومة أن يحرر ذراعه اليسرى من بين ذراعي شروق النائمة . نجح ومدّ ذراعه خارجاً بحذر أن توقظ رعونة حركاته ربيبته من نومها . . حاول أن يصطاد ندف الثلج بأصابعه القصيرة لكنه لم يطلها . فمد ذراعه أكثر وحرك كتفه ليطال تيارها المنهمر من السماء المتراقص في الفراغ . لكن شهقة فزعة من شروق جمدت أوصاله . . سحبت ذراعه بقسوة وكبلتها بذراعيها . . عاتبته بصوت منخفض احتراماً للآخرين . . وهددته من مجرد التفكير في إعادة الكرّة . .

في تلك اللحظة تنامى طنين سهام من خارج العربة ، وتعالى صياح الرجال بهلع :

– إنهم قطاع الطرق!!

وظهر أعلى ضفتي الوادي صفان من الرجال يحمل القسي تلتهب في أكبادها السهام ، وتعالى وقع سنابك خيل من حول القافلة ، ورتل من الرجال بزغوا فجأة من بين الأغصان المتشابكة ، لينقضوا بخفة وسرعة بسيوفهم المصلتة على أفراد القافلة العزّل ، فما كان منهم إلا أن هتفوا بالحوذي للإسراع هرباً بحياتهم ، فأعمل سوطه في خيله حضاً لها على الإسراع ، وتخبطت القافلة وتفشى الهلع ، وتعالى صياح الأطفال والنساء ممزوجاً بصهيل الخيل احتجاجاً على سفعات السياط والتسارع المباغت ، واشتعلت العربات إثر إصابتها بأسهم نارية ، فقفز الركاب منها اتقاءً للنار

والحريق ، ققفز من استطاع وبقي الضعاف والذين أقعدهم الخوف في العربة التي استحالت كتلة من جحيم تقودها الخيل بجنون عبر الأشجار في الغابة المظلمة .

وقامت شروق باحتضان العزيز بوجل ، تخشى من السقوط ومن الوقوع في يد رجال العصابة ، وتخشى أن يطالها والصغير الحرق أو التحطم . .

فقام أحد الرجال بجذبها وإجبارها على القفز ، وسقطوا جميعاً على كثيب من الثلج أنجاهم من حدة السقوط ، وقام رجال العصابة بالانقضاض على المواشي لينهبوها ، واقتحموا ما استطاعوا إيقافه من العربات ليجمعوا ما بها من نفائس ، فاستغلت شروق والرجل الفرصة ولاذوا بالفرار ركضاً بين الأشجار المتشابكة ، لكن أحد الأفراد انتبه لهم فنادى في زملائه كي يدركوهم . .

كانت شروق تركض قابضة على ذراع العزيز كما يتشبث غريق بأنفاس الحياة ، والغلام الفزع يركض ويتخبط بالأغصان المتشابكة وقلبه ينبض خوفاً وهلعاً ، والرجل الغريب يمسك بذراع شروق ويحضها على الإسراع ، حتى إذا ما أدركهم وقع حوافر الخيل ، دفع الرجل شروق والعزيز صوب جرف قريب ، واشتبك مع الرجال في صراع غير متكافئ ، في حين تدحرجت شروق مع العزيز عبر الجرف طويلاً ، حتى استقرا قرب جدول صغير ، فبحثت - رغم الدوار الذي اكتنفها - عن مخبئ تلوذ به مع صبيها عن أعين رجال العصابة ، فلم تجد مكاناً مناسباً ، وعندما حاولت جذب العزيز كي تقطع معه الجدول لاحظت أنه يتألم من التواء كاحله ، وأنه يبكي ويشكي بلا صوت ، فأُسقط في يدها لا سيما أنها لم تعد تقوَ على حمله وقطع الجدول ، وشعرت بدنو الرجال منهما ،

فما كان منها إلا أن حفرت في الجرف بيديها العاريتين ، مزيحة الثلج رغم البرد الشديد الذي داهم أناملها ، حتى أفسحت فرجة صغيرة على هيئة غار تكفي العزيز ، وبطنتها بردائها وأدخلته فيها ، وقامت بتجميع الثلج من خلفها حتى تحجبه داخل الفرجة .

جعلت ركام الثلج على ظهرها حتى لا يصل إلى العزيز ، وهي تتخذ وضيعة مقوسة لتغطيته بأكبر شكل ممكن ، تاركة مجالاً للهواء أن يدخل من أعلى التجويف ، وراحت تحادثه وتطمئنه قائلةً :

- لا تخش شيئاً يا مولاي . . لن يصلوا إليك . . قريباً سينبلج الصباح ويتبدد الخوف والقلق . .

لكن الصغير كان يتألم بشدة ، حاولت معالجته دون جدوى ، فراحت تصبره بأنفاس هدجتها رجفات البرد ، قالت له :

- أنت العزيز بن النعمان . . أنت حاكم هذه البلاد . . وستعود لحكمها قريباً . . السماء يا مولاي لا تتخلى عن أبنائها . .

فالتفت إليها العزيز وقال بحيرة :

- إذن لماذا نحن فارون هكذا ؟!

فأجابته :

- ستعود قريباً إلى غلوريا إمبراطوراً مجللاً بالنصر كما كان أبوك وأجدادك . .

قال بحيرة :

- ولماذا خرجنا منها ؟!!

تناهى إلى سمعها حوافر الخيل وصيحات الرجال ، فراحت تهمس ورجفاتها في ازدياد :

- لقد أجبرنا الغزاة على الخروج ، وأبت السماء إلا الإبقاء عليك وريثاً لها في هذه الأرض . . يا مولاي : قد تغضب السماء

أحياناً ، وقد ترجم الأرض بالشهب والرعود ، وقد تغرقها بالسيول والفيضانات ، وقد تجثم على أنفاسها بالصقيع والجليد ، وقد تحرمها رواء الماء وعبق المطر ؛ لكنها لا تكرهها ، إنما هو نوعٌ من العتاب ، ورسائل لتصحيح المسار والتنبيه عن الأخطاء المتفشية . .

سكت العزيز برهة يتفكر فيما قالته قبل أن يتساءل :

- وهل أخطأت أنا ؟!

أجابته وأنفاسها تكاد أن تقف :

- لم تخطئ يا صاحب الجلالة . . إنما مصيرنا أن نحمل أوزار من سبقونا . .

لم يلح الاقتناع على وجهه فأردفت :

- لا تبحث عن الخطأ يا سيدي ، وابحث عن الحلول . . هذا دأب العظماء دوماً . . الرجل الحقيقي هو الذي يصلح خطأه ولا يتمادى فيه . .

فأومأ برأسه وكأنه اقتنع ، فيما سألته بحنان :

- هل تشعر بالبرد ؟!

فهمس والنعاس يتراكم على أجفانه :

- قليلاً . .

في الحقيقة ، كان البرد يشل أطرافها حتى أفقدها الشعور بساقيها ، لكنها كانت صامدة حتى لا ينكشف العزيز لأعين الطالبين . .

كان البرد وخوفها على العزيز يتجاذبان روحها رويداً رويداً . . تحاول البقاء على قيد الحياة جهدها لتحفظ الوعد الذي أبرمته للأميرة ثريا عشية سقوط سيسليا . .

واصل البرد الإيغال في جسدها ، واستعرت الرجفات حتى

كادت أن تذيب عظمها ، وهي كما هي ، تغطي العزيز بجسدها المقوس ، وتراقب ملامحه وهو يغط في النوم . .

لم تستطع حتى السعال خشية أن يستيقظ أو يجذب صوتها باحثاً يطلب رأسيهما . .

تدرك جيداً أن العصابة لن ترحمهما . . وأن مصيرهما السبي والاسترقاق . . وأن العادة تقتضي أن يقوم السابي بالتفتيش في أجساد أرقائه بحثاً عن عيوب خلقية ، أو صفات كمالية ، تزيد من سعره أو تنقصه . .

تعلم جيداً أن وشم الصقر بين ثديي العزيز سيفضحه . . سيجعل منه بضاعةً لا حد لثمنها . . فرأسه سيكون أكبر هدية تقدم للغزاة الركساسيين . .

تلك العادة القديمة التي تقوم بها العائلة الحاكمة منذ قرون عديدة ، حفظاً لولاية العهد من الخروج بعيداً عن صاحبها . .

كان الوشم بمثابة السر الذي تدسه السماء في جلد وصيها على عرش الأرض ، ولذلك كان الجميع يقدسونه ويهابونه ، ويدينون بالولاء لصاحبه . .

في الحقيقة كان الوشم عصياً على التقليد والاستنساخ ، أسرة واحدة تسلسلت على نقشه ، لم يخرج سره منها طيلة هذه القرون . .

ولذلك فلم يظهر أي مدع ليطالب بالحكم أبداً منذ نشوء هذا التقليد . . كان الجميع يهابونه ويخشون لعنات السماء أن تقع عليهم إن هم حاولوا استنساخه أو مجرد التفكير في تقليده . .

قطاع الطرق . . مجموعة من الجياع مردوا على السرقة سداً للجوع وبحثاً عن لقمة العيش الهنية . . لا دين لهم إلا

مصالحهم . . كم من سبية اقتيدت وبيعت سمعت بها ، وكم من قتيل سقط على أيديهم . . يكاد قلبها يقف كلما تخيلت نفسها والعزيز بين أيديهم . .

لقد بلغ بها البرد حداً رهيباً . . صارت ترى أشياء وتسمع أخرى . . وهي تعلم يقيناً عدم وجودها . . كل ما كانت ترجوه أن تستحث السماء الشمسَ كي تبزغ قبل أن ينكشف مخبأهم . . لكن الليل كان طويلاً جداً . . أطاله الخوف والبرد وعنفوان المعاناة . .

بدأت أذرع اليأس بالاستحكام حول عنق أملها حتى كادت أن تهلكه . . لكنها كانت تتشبث به بإرادة عجيبة . . الإخلاص عمود متين ؛ يقوي كل مستجير به . . حتى أولئك الذي يترنحون على شفير اليأس . .

كانت تستمع إلى أنفاس مارد الموت واقفاً على رأسها ، يتمتم بشفقة أنه يرغب بإراحتها لكن أوانها لم يحن بعد . . فقالت له :

- ابتعد . . ابتعد . . لن أموت حتى أؤدي الذي عليّ . . لن أموت حتى أوصل مولاي إلى من يقف معه ويعيد له حقه السليب . .

وندت عنها حركة برأسها وكأنها تطرد مارد الموت . . حاولت الاعتدال في جسلتها ، لكن ساقيها لم تعد هناك . . لم تعد على قيد الاستجابة . . فعلمت أنهما قد تجمدتا وألا وسيلة لتدفئتها . . تدرك جيداً أن هذا هو مصير جوارحها كلها . . لكن لا يوجد بديل . .

بدأ قلبها بالصلاة . . صلت للسماء وللآباء وللراحلين . . للشهب والنيازك والأقمار وأرواح الغابرين . . دعت من قلبها أن

تحوط السماء العزيز برعايتها . . أن تجنبه الموت ودسائس القدر . . في الحقيقة لم تكن قادرة على أكثر من ذلك . . وهي ترى وجهه الشاحب يلوح وسط أسماله المهلهلة . . وهو يرتجف برداً ولا تملك له دفئاً . .

تنامى إلى سمعها صوت فرس تقترب ، فأدركت أن النهاية قد حانت ، وأن الموت جاثم فوق ناصيتها ، لم يعد جسدها يستجيب لمحاولتها الحثيثة للبقاء في حال اليقظة ، سمعت الفارس يهتف :

- هنا . . لقد وجدتهما . .

أرادت الفرار . . لكنها لم تقدر . .

أرادت الصياح . . فلم تستطع . .

أدركت أن السماء قد تساقطت كِسفا عليها وأن النهاية الحتمية للعزيز قد آن أوانها . .

جذبها الفارس بكل قسوة . . حملها من شعرها ووضعها أمامه على السرج . . وحمل رجل آخر العزيز . . فتعالت صيحات شروق اليائسة . . وتساقطت دموع الغلام في صمت مهيب . .

في وسط الغابة . . مخيمٌ مؤقت جمع رجال العصابة والناجين من القافلة . . حول النار العظيمة يجلس الرجال متفرقين في ناحية والنساء والأطفال في الناحية أخرى مكبلين بالحبال . .

قدم لهم اللصوص الحساء الساخن وكِسر الخبز ، تفقدوا جراحهم وإصاباتهم ، وجمعوا كل ما غنموه منهم من مال ونفائس وكنوز في عدة صناديق . قال أحدهم لرجل بدا أنه قائدهم :

- لقد جمعنا كل الغلّة يا سيدي . .

فأومأ برأسه وهو يقول بحبور :

- سيسر الزعيم كثيراً . . الغنائم وافرة وعديدة . . أطعموهم جيداً . . سننال عقاباً شديداً من الزعيم إن أصيب أحد منهم بأذى . .

همس له الرجل :

- الرجال يرومون المتعة يا سيدي . .

- وزع عليهم حصةً مما غنمناه من نبيذ ، واترك الحصة العظمى للزعيم . .

وحانت منه التفاتة إلى ناحية النساء وهو يردف :

- وبعد أن يشربوا ، سيكون كل واحد منهم مسؤول عن تصرفاته . .

فضحك الرجل وهو يهز رأسه طرباً لما ألمح إليه قائده . .

في تلك الأثناء وصل خمسة من الخيالة يحملون شروق والأمير العزيز ، مثلوا بين يدي قائدهم الذي أمر بتدفئتهما على الفور لما آنس من اشتداد وطأة البرد عليهما . .

كان القائد يتفحص ملامح العزيز بعناية ، حتى ارتابت شروق في أمره فاحتضنت الغلام إلى صدرها بشكل أكبر . في حين قال القائد موجهاً حديثه إلى أحد رجاله :

- اجلبها والصغير إلى خيمتي فور انتهائهما من تناول الطعام . .

لم تكن شروق قادرة على المشي ، لذلك حملها الرجال إلى الخيمة رفقة العزيز . . كان القائد يجلس على بساط من جلد مدبوغ ، يرتشف كأساً من النبيذ ويروز الجارية بعينين حادتين . .

طلب من رجاله أن يغادروا الخيمة وأن يحكموا الحراسة حول المخيم ، وقام من مجلسه واقترب من شروق والأمير ، تفرس جيداً

في ملامحها ، ولاحت على ملاحمه أمارات الشك . .

رفع وجه العزيز بيده وتفحصه جيداً ، فبادرت شروق بسؤاله عن سبب هذا الفحص خشية أن يكشف عن صدره فينفلت السر . .

عاد لمجلسه . . صب لنفسه كأساً أخرى . . ارتشف منها قليلاً . . وقال بحدة :

– ما اسمك يا امرأة ؟

فأجابت وصوتها لا يزال يعاني هدجات البرد :

– اسمي ضحى يا سيدي ، وليثٌ هو اسم هذا الغلام . .

تفرس القائد في كلامها قبل أن يقول :

– أهو ابنك ؟

أومأت برأسها فوراً وهي تجيب :

– نعم يا سيدي . . هو ابني . . أنا من إحدى القرى المجاورة لغلوريا ووالده من أنجيليا . . ولقد توفي في السهل الأبيض ، ومذاك وأنا أعمل في خدمة البيوت طلباً للرزق . .

– لماذا تبدو ملامح ابنك مألوفة لدي ؟!

ارتبكت قليلاً وهي تجيب :

– لا أدري يا سيدي . .

قام من مجلسه واقترب من العزيز وهو يقول :

– لقد زرت العاصمة مرة واحدة في حياتي ، رأيت فيها الإمبراطور النعمان والإمبراطورة نور ، وأستطيع القول أن هذا الغلام يشبههما كثيراً . .

خفق قلبها بقوة وكاد أن يقف لذكر الإمبراطورة ، حاولت إخفاء ارتباكها وهي تقول :

- شرف عظيم يا سيدي أن تشبّه ابني بالملكين العظيمين . . لكنه شرف يستحيل أن يبلغه . . نحن فقراء معدمون . .

دار حولهما وهو يقول متجاهلاً كلامها :

- الذي أعلمه جيداً أن للامبراطور النعمان ابناً قد مات عشية سقوط سيسليا . . ورغم ذلك فإن ثمة أسطورة تتناقلها العامة تقول : بأن وصيفة الإمبراطورة هربت به ولا يعلم مكانهما إلى الآن . .

أُسقط في يد الجارية فلم تنبس ببنت شفة . . كانت ترى المحظور يلوح فوق رأسها مترنحاً كسكين حادة على طرف المائدة ، وتيقنت بأن قائد اللصوص هذا يعرف أشياء كثيرة يصعب على لص عادي أن يعرفها . .

- أيضاً من المعلوم أن لأبناء العائلة الإمبراطورية وشمٌ على هيئة صقر فارد الجناحين يحمل سيفاً بمخالبه . . وهذا الوشم لا يجيد رسمه إلا أفراد عائلة واحدة لا يعرف أحد مكانها أو اسمها . .

وبحركة مباغتة مزق اللص قميص العزيز ليرى الوشم واضحاً بين ثدييه . . فتمتم بدهشة وذهول :

- يا للسماء!! إنه ولي العهد!!!

حينها انكبت شروق على قدميه تقبلهما وتستجديه بذل وخضوع :

- أرجوك يا سيدي أرجوك . . أتوسل إليك بآلهتك أن تحفظ السر وألا تسلم ولي العهد إلى الركساس . . أستحلفك بالسماء وبالآلهة وبما تؤمن به أن تدعه وشأنه . .

هم القائد بالحديث لولا أن راعه صوت خيل تقترب ومعركة تدور في الخارج ، واقتحم الخيمة مساعده ليقول بفزع :

- سيدي إنهم رجال الدرك ، لقد انقضوا علينا على حين غرة وأطبقوا على المخيم ، بادر بالهروب يا سيدي قبل أن يدركوك . .

كان القائد في حالة من الدهشة جعلته يتأخر في اتخاذ قراره ، إلا أنه وبعد برهة تفكير أمر مساعده بالهرب ، ودعا شروق لتهرب معه عبر مخرج خلفي لخيمته ، حاولت الوقوف فلم تستطع . . أقعدها الخوف وتوالي المفاجآت ، وقضاء الليل في الثلج أثناء اختبائها ، وتعالت صيحات الرجال ، وبدا أن الدرك قريبون جداً من خيمة القائد ، فما كان منه إلا أن حمل الغلام ومرق به من المخرج السري ، فأخذت شروق تصيح بشكل جنوني ، وهي ترى ولي العهد الذي نذرت عمرها لإنقاذه وإعادته لمنصبه السليب ، ولاقت ما لاقت خلال الأعوام الخمسة الماضية ، يختطفه لص ويهرب به . . يقتاده لمصير مجهول ، لا تعلم كنهه ولا تستشعر أبعاده وحدوده . .

والأمر هذه المرة غاية في الخطورة ، إذ أن اللص مطّلعٌ على سره الدفين . . فكيف ستكون تصاريف السماء في هذا الغلام المسكين؟

في الخارج كان رجال الدرك ملتحمين في معركة لاهبة مع قطاع الطرق ، لم يستلزمهم الكثير لكي يجهزوا على من قاوم ، ويسيطروا على المستسلمين . .

لم يكن قائد الدرك إلا هاشم بن المستشار عدنان . . كان يسير في معية رجاله يروز ملامح اللصوص ويوبخهم بقوله :

- كان كميناً موفقاً . . لقد تتبعنا سير هذه القافلة منذ انطلاقها من راهوا أملاً في أن تنقضوا عليها لنستأصل شأفتكم وننهي كل وجود لكم . . لقد روعتم الآمنين وسرقتم الحلال وأفسدتم في

الأرض . . لقد كنتم رجالاً شرفاء . . ما الذي حضكم على التدنس بهذا العار ؟!

قال أحدهم :

– أن نكتسب قوتنا بسرقة المحتلين ، خيرٌ من بيع الشرف وخيانة التراب . .

فاقترب منه هاشم وطلبه أن يعيد ما قاله ، فلما فعل بادره بصفعة مدوية سال الدم من شفة اللص لإثرها . . وأثناء ذلك لفت صوت شروق أحد أفراد الدرك ، كان شاباً في مقتبل العمر أصهب الشعر حسن الملامح ، دلف إلى الخيمة شاهراً سيفه ليجد شروق تبكي وتنوح وتصيح بأعلى صوتها . .

فاقترب منها محاولاً أن يطمئنها بقوله :

– لا تخشي شيئاً سيدتي . . نحن من قوات الدرك التابعة لأنجيليا . . لقد سيطرنا على المخيم وقضينا على اللصوص . . أنت بأمان الآن . .

فتعلقت بدرعه وهي تقول :

– لقد خطف ابني يا سيدي . . خطفه قائد اللصوص ولاذ بالفرار . . أرجوك أن تلحق به . .

فتحفز الشاب وقفز خارج الخيمة ، وامتطى جواده داعياً نفراً من الرجال للحاق به . . مضى في الاتجاه الذي أشارت إليه شروق ، وانقضى هزيع طويل من الليل ، وتهاوت النجوم في دركات الأفول ، ولم يبق على بزوغ الفجر إلا هُويّ سيف السحر ، وتراءى حصان قائد اللصوص بين الأشجار كالشهاب المارق ، وبدا ظهره مكشوفاً جلياً للفارس الشاب ، فأخرج سهماً من جعبته وألقمه قوسه تاركاً العنان لجواده المدرب ، وفي لحظة معينة قاسها الفارس بدقة ودراية

مستذكراً تدريباته الكثيفة أيام صباه مع ابن عمه ، وأطلق السهم وقوائم الحصان الأربعة لا تزال معلقة في الهواء ، وما هي إلا لحظات ويسقط اللص أرضاً وقد أصاب السهم كتفه اليسرى ، ويكمل الحصان طريقه في الغابة حاملاً على ظهره العزيز . . فأمر الفارس الجنود بالقبض على اللص ، وانطلق هو للحاق بالحصان والغلام ، والذي كان متشبثاً بعرفه ، يبكي بصمت ، حتى جذبه الفارس ووضعه في حجره على السرج . . وعاد لزملائه ليجدهم مبعثرين قد مات بعضهم وجرح الباقون ، وجواد ناقص ولا أثر لقائد اللصوص ، فهتف بالجنود :

– لص واحد جريح يقضي على خمسة من رجال الدرك المدربين ؟!!

وعاد بالغلام إلى المخيم . . كان العزيز يبكي دون صوت . . وكلما حاول الفارس أن يهدأه قال بصوت يكتنفه الوجل :

– أريد أمي . . أعدني لأمي . .

فيحتضنه الفارس ويحض جواده على الإسراع . .

مدّ الفجر ضوءه على مائدة السماء ، واستحال الأفق وشاحاً ناصعاً كجبهة الصحراء ، وشعرت الجبال بخجل الشمس فوارتها بقلنسوة من جليد ، وحين وصل الفارس إلى المخيم ، كان هاشم قائد الدرك يتناول إفطاره مع الرجال ، أعلمه الفارس بما حصل فيما انصرم من الليل ، فرنا هاشم إلى الغلام ملياً قبل أن يتمتم :

– أحسنت يا عامر . . اذهب به إلى أمه . . لم تفتىء الليل كله صياحاً وبكاءً . . لقد هدأت منذ برهة وأتوقع أن النوم قد أدركها . .

دلف عامر إلى الخيمة رفقة العزيز . . رأى شروق ممدة على

الأرض جاحظة العينين . . يخرج منها نفس متقطع بالكاد يبقيها على قيد الحياة . .

اقترب منها عامر ورفع رأسها قائلاً :

- سيدتي . . لقد أنقذت ابنك وهو الآن في أمان . .

فحركت محجريها نحوه وتشكلت ابتسامة على ثغرها . .

- أين هو ؟! إني لا أراه!! ألم يبزغ الصبح بعد ؟!

فذهل الفتى لوهلة ، وشكّ أن العمى قد أصابها . . قال :

- لم يبزغ بعد سيدتي . . هاكِ يده . . اقترب أيها الغلام . .

تلمست وجهه بيديها . . وسالت دمعة على وجنتها . . وطفق العزيز يبكي دون صوت . . تنساب أدمعه من أجفان علاها الاحمرار . .

قبضت شروق على ذراع عامر بما استجمعته من قوة وسألته :

- سيدي . . من لهجتك يبدو أنك أركادي . . أليس كذلك ؟

فأومأ قائلاً :

- نعم يا سيدتي . . أنا عامر بن الغضنفر . .

فاتسعت عيناها دهشة وهي تقول :

- يا لألطاف السماء!! عامر بن الغضنفر ؟!! ابن القائد الغضنفر شقيق القائد البتار قائد الجيوش الأركادية قبل السقوط ؟!!

فأومأ برأسه مجدداً مؤكداً على ما قالت ، فانتحبت شروق ملياً قبل أن تقول :

- ستجد بين طيات ثيابي خطاباً من ابنة عمك توصيك بي وبالغلام . . السماء تحوطنا بالرعاية دوماً وأبداً . .

- لا بأس . . أنت في رعايتي دون توصية من أحد . .

قالت :

- أشعر بالموت أيها الفارس الطيب . . سأحملك أمانة عظمى . . لطالما حملت سراً أثقل كاهلي وها هو الآن يمزق نياطي . .

قال وهو يشد على كفها :

- سرك محفوظٌ ، وأمانتك في عنقي . .

قالت والضعف يوشك على التهام حروفها :

- هذا الغلام ليس ابني . . إنه العزيز بن الامبراطور النعمان . .

فجحظت عينا عامر لهول ما سمع . . وشعر برأسه يدور من إثر المفاجئة فيما أكملت هي مؤكدة كلامها :

- إنه ولي العهد يا سيدي . . مالك هذه الأرض التي سباها الغزاة . . أعلم أنك تعمل لصالحهم هذه الأيام . . لكن الدماء الأركادية التي تتفجر في عروقك تأبى الذل والخيانة . .

لقد اصطفتك السماء يا سيدي لتحمل أمانة عظمى . . لتكمل ما بدأته أنا الجارية الضعيفة . . ستعود أركاديا على يديك ومن معك . .

ثم التفت إليه بكلها وهي تستجديه قائلة :

- أرجوك يا سيدي لا تتخلَ عنه . . أتوسل إليك بدماء آبائك ألا تسلمه للغزاة . . أنت فارس صنديد كأبيك وأعمامك . . قادر على القتال من أجل الحق . . إنها أركاديا يا سيدي . . أركاديا التي تدعوك الآن للثورة . . للنصر على الأعداء . . لإعادة العزة إلى شعبها الذليل . .

وسألته بضعف وإلحاح :

- لن تخذلني . . أليس كذلك ؟

كان عقله يغور في أوحال الحيرة والدهشة . . فأومأ موافقاً بحركة لا شعورية . . ثم تذكر أنها لا تراه فتمتم :

- بلى ..
- لن تسلمه للغزاة ؟
- أبداً ..
- ستقف بجواره إلى أن يعود ملكاً على هذه البلاد ؟
- بالطبع ..
- تقسم على ذلك ؟
- أقسم ..

فاسترخت وهمست :

- الآن أعود إلى السماء وأراقبكم من هناك . . .

راقبها عامر بوجوم وهي تلفظ أنفاسها الأخيرة .. تهذي بكلمات لا معنى لها .. ودموعها تسيل بلا توقف .. والغلام يشاهد ذلك ودموعها تتقاطر على وجهها في صمت غريب .. وحين استكانت وتوقف نبضها .. أغمضها عامر وغادر الخيمة .. أصابه ضوء الشمس في عينيه فحجبها بيده .. تقدم بخطوات مترنحة إلى هاشم بن عدنان الذي سأله بقلق :

- ما بك يا عامر ؟
- اصرف الجنود يا سيدي .. أريدك في أمر خاص ..

فأمر هاشم الجنود بالاستعداد للرحيل وسوق اللصوص ، وانتحى بعامر ركناً قصياً من المخيم وسأله في قلق :

- ما الخطب ؟

حكى له باقتضاب ما جرى .. فاقتحم هاشم الخيمة كالبرق ، وتأمل ملامح شروق وقال :

- إنها هي فعلاً .. شروق وصيفة الإمبراطورة نور!!

وقلّب ناظريه الحائرين بين عامر والعزيز .. فسأله عامر قائلاً :

- ما العمل الآن يا سيدي ؟! هل نسلمه للقيادة ؟!

سكت هاشم وأطال السكوت ، غارقاً في لجج التفكير والحيرة . . إلى أن قال :

- لا بد من استشارة أبي . .

قال عامر باستجداء مبطن :

- لن أسلمه يا سيدي . . سأحتفظ به وأقاتل دونه حتى الموت . .

- وأنا وأبي لن نسلمه أيضاً يا عامر . . نحتاج حكمته لمعرفة الخطوات القادمة . .

ومضى الركب صوب راهوا . . يحملان سراً . . ومفاتيحاً للسماء . .

***

# الفصل الرابع:
# الأجنحة تحلق صوب السماء

منذ كنت طفلة صغيرة، وأنا أسمع أبي يذم الفرقة ويثني على الإتحاد..

كان يقول إن الشر كله يأتي من الفرقة.. وإن الخير -كل الخير- في الإتحاد..

ما الفرقة إلا سكين ينحر الأمة ويفري جسدها إلى أشلاء..

لو اتحد الأشرار يا بنيتي انتصروا.. حتى ولو كانت أهدافهم دنيئة..

ولو افترق الأخيار اندحروا.. ولو كانت أهدافهم نبيلة..

الإتحاد هو مطلب حياة.. والفرقة أولى سكرات الفناء..

الخلاف يا بنيتي إذا ما دبّ في منزل ما، كان ناراً تحطم أسسه حتى يسقط على سكانه..

ينبغي دائماً أن نركز على نقاط الاتفاق، ونلقي نقاط الخلاف خلف أظهرنا..

وكطفلة كنت أستمع له ولا أدرك أبعاد معانيه حتى رأيت ما حلّ بأركاديا بعد أن اكتشف عامر بن الغضنفر حقيقة العزيز..

كيف ازداد الخراب تقوضاً واستفحلت فيه أدواء الفرقة والاختلاف، واستحالت سماء أركاديا قبة كبيرة لخراب مستعر يهشم كل شيء ولا يشبع..

كلُّ ما رويته لكم من خراب كان لا شيء مقارنةً بما أصاب البلاد خلال الأعوام التالية لما سأروي . .

لقد انتشرت الفوضى وعم الفساد وأكل الناس الجيف وخربت الحقول وجفت الأنهار وعم القحط واستفحل الجدب وتقوض بناء الأمن وصار الإنسان أكبر خطر يواجه الإنسان . .

في الحقيقة لقد تمزقت أركاديا تماماً وتشوه بنيانها وصار كل الحكام يطمعون في قطعة منها . .

لطالما استغربت جشع الفطرة البشرية ، وكيف أن الإنسان قادر على قتل أخيه الإنسان لقاء تراب يُغبّر قدميه ؟!

كيف يصبح الدم البشري رخيصاً حتى يسكب على الأرض كالنبيذ المتعفن . . ويداس بتقذر وازدراء ؟!

كيف يلقي الإنسان كل التعاليم التي تلقاها من أجداده وآبائه وآلهته نظير كيس من المال أو حفنة من ذهب ؟!

كيف يلوي أعناق تلك التعاليم ويجعلها حكراً على مصالحه فقط وكأنها تنزلت من السماء باسمه وحده لا شريك له ؟!

كل ذلك وأكثر حصل بأركاديا ورأيته بأم عيني وسمعته ممن أثق برأيه وأمانته . .

بدأ كل شيء حينما حمل هاشم وعامر ولي العهد الأمير العزيز إلى حاكم راهوا المستشار السابق لدى إمبراطور أركاديا عدنان الذي امتعق وجهه حين رآه وعاين الوشم بين ثدييه . . أمر نساءه بالعناية به ، وأوعز لهاشم وعامر كتمان السر حتى يبتّ في الأمر . .

ظل شهراً كاملاً في عزلة حتى أُشيع أنه مصاب بالمرض . . كان لا يأكل إلا قليلاً وبالكاد يتحدث أو ينبس ببنت شفة . . وكل مساء يذهب إلى مخدع العزيز يرامقه دون حديث . . كان يرى في

عينيه صباه الذي قضاه خدمةً لجده ووالده جندياً وقائداً ومستشاراً . . قبل أن يتحول إلى خادم لدى المحتلين . .

وبعد حديث صامت متخم بالأشجان يعود إلى معتزله غارقاً في دلجة الصمت . . وكثيراً ما سمعتْ بعض جواريه نشيج بكاء يتسرب من حجرته . .

وبعد انقضاء الشهر دعا ابنه هاشماً واجتمع به اجتماعاً طويلاً ، رسما فيه ملامح الأيام المقبلة ، وكيف ستندلع الثورة وعلى أي أسس ستقوم ، ووضعوا قائمة طويلةً بأسماء الرجال المخلصين الذين سيدعوهم للمشاركة بها . .

واتفقا أن تقوم الثورة من محورين ، الأول مدينة راهوا حيث سياعد عدنان ابناه عرندس ونبراس ، والمحور الثاني من أنجيليا حيث يثور هاشم بمساعدة عامر ومن استطاع جمعه من رجال مخلصين ومحنكين . .

كما قررا مكاتبة أوثق من يعرفون من رجالات أركاديا السابقين والذين يتبوأون مراتب قيادية في الجيش وفي حكم المدن من أجل المشاركة وتجنيد الرجال . .

وظلوا يكاتبون الرجال ويجمعونهم سراً لمدة خمسة أعوام ، في حرص وتؤدة وتحر عظيم ، خشية انكشاف الخطة وضياع الحلم وهو لا يزال جنيناً طرياً في رحم الأمل . .

كانت تلك الخطابات تحرر باسم عدنان وصي الإمبراطور العزيز بن النعمان ، وتقرر تنصيبهما رسمياً بعد اندلاع الشرارة الأولى من ثورة التحرير . .

وإبان ذلك أمر عدنان خدمه بتعليم العزيز بروتوكلات الحكم والتصرف ، وتلقينه تاريخ بلاده وسير أسلافه ، وتعليمه الجغرافيا

والكتابة وأصول الفروسية ، وآداب المائدة والمشي والحديث ، وركوب الخيل والمبارزة والقتال ، وإن كان عدنان حريصاً جداً على عدم إصابته بأدنى مكروه ، لأنْ لا يفوتهم الرمز الأعلى الذي سيلتف حوله أبناء أركاديا في جهادهم العظيم . .

في الحقيقة . . لطالما كان الشعب الأركادي حفياً بحكامه . . موت النعمان أطفأ في وجدانهم شموس الحرية ، وجعلهم يرزحون في جب العبودية راضين ، سلم الخلاص كان على الدوام في متناول أيديهم ، لكن الليل الجاثم في سماء بلادهم لم يكن يغريهم بالخروج . . كانوا بحاجة لجذوة صغيرة ، تنبثق في جوف الدلجة تجعلهم ينساقون خلفها ، وإن كان الطريق الذي ترسمه لهم طريقاً إلى الموت . .

ولم تكن ثمة جذوة أكثر إنارة من ظهور ولي العهد . . الوريث الشرعي لأرض أركاديا العظيمة . . سيثورون من أجله . . ويبذلون الدماء ليكتبوا اسمه على سماء المجد . . ويراكموا أجسادهم حتى يعتلي عليها ويصل إلى مكانه بين النجوم كما كان آباؤه من قبل . .

وكرجل محنك خبير . . كان عدنان يعلم ذلك جيداً . . كان يدرك أن الشعوب تركض دوماً خلف رمز . . خلف راية ومنارة . . تهديهم السبيل وتوصلهم لمرافئ السكون . . كان يعلم جيداً أن أكثرية الشعوب لا تهتدي دون قائد يسوسها ، وأن الشعوب تكون بقدْر قادتها . . وأن كل مراداتهم تكمن في وطن سعيد آمن . . ورخاء مديد لا ينتهي . . وظل عميم تلقيه عليهم رايات السلطان . .

قال لي أبي إن ضمير الشعوب بركان مُستعر . . بحاجة لسبب يكفي لثورانه . . وأن الشعوب هي وقود الحروب ، بهم تُسعّر وبهم

تنطفئ . . وأن القـادة بحـسب حنكتـهم وقـدراتهم التـأثيـرية والقيادية . .

الشعوب دوماً تُسيرها الأسباب القوية . . سواءً قادتها إلى الموت . . أو إلى النجـاة . . وهنا تلعب الضمـائر دوراً رئيـسيـاً في تكوين القادة الناجحين أو الفاشلين . .

في الحقيـقة لم يكن عدنان خائناً . . بل كان رجلاً عملياً لأبعد حد . . كان يدرك أن انتهاء حكم آل النعمان لا يعني اندثار الشعب . . وأن انهيار الـمُلك لا يعني زوال الأمة . . ولذلك وافق أن يخدم الشعب ولو لعنه الشعب . . يكفيه أن ضميره يريحه . . وأنه حريص على مصلحة شعبه . . قال أبي ذات مرة . . من المؤسف أن تلعن شخصاً جهاراً طالما أحسن إليك خِفية وأنت لا تدري . .

ورغم ذلك لم يكن ضميره على وفاق دائم مع ما يفعل . . كان الذل ثقيلاً جداً على نفسه الأبية . . يلقي الشوك دوماً في دربه الذي سلك . . ولعل ثورته هذه كانت محاولة لإراحة ضمير رجل تجاوز السبعين بقليل ، ولم يبق له من الحياة أكثر مما ذهب . .

ولكن . . ليس كل ما نريده يتحقق . . وليس كل نية حسنة تتمخض عن فعل صالح . . كثيرون سلكوا طرق الخير وانتهت بهم السبل في ديار الغي والضلال . . ورُبّ مُحسن أراد الإحسان فأخطأ السبيل . .

وصلت أنباء العثور على العزيز إلى سيلسيا . . تلقفها الحاكم علام كما يُتلقف الخديج من المواليد ، ونشرها نثر البلح بين يدي زوجه الأميرة ثريا . . التي طارت فرحاً بالخبر . . لقد كانت سعيدة أن خطوتها الجريئة قد آتت أكلها . .

في الواقع لقد ظلت ثريا كل تلك السنين ممزقة الضمير . . تتألم كلما تذكرت بكاء الإمبراطورة نور ليلة اكتشافها اختفاء ابنها الوحيد . . لقد ظلت كل تلك السنين تظن أنه قد مات كما أشيع ، وأنها اقترفت إثم تفريق أم عن ولدها دون وجه حق وبلا ثمرة تُجنى . .

لكنها اليوم سعيدة جداً ، لاح المطر في غيم مجيئه ، وأدركها الرُّواء بعد أن أضناها الظمأ . . سألت زوجها إذاك عما سيفعله . . فقال :

– هل نخون العهد الذي أبرمناه مع شاكان ؟

فأجابته :

– العهود التي تُبرم تحت سوط الطغيان لا قيمة لها . .

قال معترضاً :

– سيكون عقابنا وخيماً إن فشلنا . .

فقالت له :

– هذه افتراضية قد لا تحصل . . وينبغي أن تكون أنت وصي العرش لا عدنان . .

فوافقها على ذلك ، وأوعزت له قبول الانخراط في قافلة الثورة تحت إمرة عدنان ، وبعد تمامها يكون لكل واقع ما يناسبه ، وأنها بصفتها عمة الإمبراطور ، ستطالب عدنان بتسليمه لها ، لتجعل من سيسليا عاصمة حتى تُسترد غلوريا العاصمة الأصلية . .

وفي غلوريا قابل عامر والده الغضنفر وأسر له بدوره الذي رسمه عدنان ، والذي يقتضي أن يغتال غضنفر شاكان بحكم موقعه في الحرس الإمبراطوري ، ويعلن استقلال غلوريا ويطلب من الشعب مبايعة العزيز إمبراطوراً . .

كان الفارس العتيد مندهشاً من الخطة المجنونة ، ومن ظهور ولي العهد بغتة وقد أوشك الكيان الأركادي على الاندثار والتحلل في كيان ركساس . . لذلك لبث ملياً يفكر في الأمر ، محذراً ابنه من مغبة إضرام ثورة عشوائية ، قد تحطم ثوّراها قبل أن تحيق بكل شيء . . وبعد أسبوع من التفكير ، وافق على الخطة ، وأنه فور تنفيذها سيهرب ويلحق بهم في مدينة راهوا . .

وهناك على الجانب الغربي من أركاديا حيث كان نصار ورجال الجيش السابقين ، الذين أبوا مبايعة الركساسيين ، وهربوا من السجن بمساعدة أهل مدينة ريفولت ، وقاموا بإنشاء وحدات للمقاومة في جبال ايرالوتزا الغربية ، وصل لهم رسولا عدنان يخبراهم بأن الإمبراطور الشرعي بحاجة لهم ، وطلبا منهم المبايعة والانصياع لوصي العرش المستشار عدنان . .

فما كان من نصار إلا أن فصل رأس أحدهما ، وثلم لسان الآخر ، وحمله رأس زميله .ورسالةً تتهم عدنان بالكذب والخيانة ، ولو أن خبر العثور على العزيز حقيقي ، فينبغي أن يسلم لهم بصفتهم الثوار الحقيقيين ، وليسوا خونة مرتزقين ، وأن من خان مرة . . سيخون مرتين . .

وفي أسواق البلاد وقراها ، تفشت أسطورة العثور على العزيز ، وتناقل الناس الخبر ما بين مصدق ومكذب ، بين حالم باسترداد الملك ، وخائفٍ مما ستجره هذه الشائعات من وبال . .

وانتشر الوجل والتوتر بين الركساسيين الذين استوطنوا أرض أركاديا ، ولاذوا بالمعابد دعاءً وتضرعاً . . كانوا سعيدين بالإقامة هنا ، وقد تزاوجوا مع الأركاديين وصار بينهم صلة ورحم ، فباتوا يخشون انقطاعها وضياع ثرواتهم وما جنوه من مكاسب وحقوق

خلال العقد الذي مضى . .

وقُبيل اندلاع الثورة جاءت أنباء من عاصمة ركساس تفيد بأن إمبراطورها العظيم مصاب بنكسة صحية ، فسافر شاكان رفقة زيدون وتيهاد إلى العاصمة ليرى أباه ويستعد لتقلد الحكم فور وفاته ، واستخلف كعادته الأمير ليون حاكماً واستوصاه بعدم التهور والتفكير السليم . .

وانضم غضنفر إلى عدنان بعد سفر شاكان لفوات فرصة اغتياله ، فقربه وعينه قائداً للجيش في راهوا ، يساعده ابنا عدنان نبراس وعرندس . .

وكان سفر شاكان هو شرارة البداية . . بداية الخراب . .

في يوم محدد أعلنت الثورة في راهوا وأنجيليا وسيسليا وروفينا ، وقام الثوار بمذابح عظيمة لإجلاء المحتلين ، وهدموا معابد سيروس ، واقتحموا صوامع الغلال وبيوت المال ، وخزائن العسكر ، واستولوا على الذخائر والخيل وكل نفيس حوته الديار . .

انقض عدنان بجيوشه على المدن المجاورة واسترجعها تباعاً بأقل خسائر من جيشه ، لكن الدماء التي سُكبت كانت غزيرة . . لم يرحم عدنان أحداً . . كان يرى أنه يقاتل هذه المرة معركته الأخيرة . . هو يغسل عاره بدم من يقتل . . يبحث عن التعميد في دمائهم المهدورة . . كذلك كان يسعى لإخافة الثابتين من جنود ركساس بإشاعة أخبار المجازر التي ارتكبها جنوده في سبيل استرداد عرشهم السليب . .

وفي جنوب راهوا فعل ابنه هاشم نفس ما فعله والده ، قاد الثورة وقتل الحاكم واستولى على الجيش وقاده إلى راهوا يسحب في إثره مقدرات المنطقة ، ليجعلها في خدمة والده . .

وفي سيسليا أعلن علام الاستقلال وقتل قادة الركساس ونناكروبا جميعهم ، وعلّق رؤوسهم على سور المدينة ، وأمر بإجلاء كل الذين لا ينتمون أصلاً إلى أركاديا من ركساس ونناكروبيين ، وأمر جميع السكان بمبايعة زوجته وصيةً للعرش حتى يبلغ العزيز الحادية والعشرين من عمره . .

وانتهز ثوار ايرالوتزا الفوضى التي وقعت فيها البلاد ، وانقضوا على مدينة فرايدن واحتلوها ، وجعلوا منها منطلقاً لحكمهم الذاتي ، نابذين حكم عدنان وعلام وليون ، حتى أن علام راسل ابن أخيه لينضوي تحت لوائه ، لكن نصار أعاد الرسل برأس أحدهم ولسان الآخر معلناً عليه الحرب . .

لم يكن نصار قادراً على التسامح مع أحد بعد الذي رآه في السجن لقاء إخلاصه . . لم يستوعب أبداً أن رجالاً عظاماً كوالده وعدنان وعمه علام وبعض قادة الجيش يخونون ولاءهم لإمبراطور أركاديا لقاء عيش رغيد ومناصب عليا . . ولذلك كان يقاتل بوحشية رهيبة كي يزيل عن نفسه هذا الحنق الرهيب الذي يشعر به . .

واستقلت روفينيا وأعلنت الولاء للحاكم علام لا للمستشار عدنان ، وطالب حاكمها العرنين أن يسلم عدنان الإمبراطور لوصيته الشرعية عمته شقيقة والده ، وأنه وإن كان في السابق مستشاراً للإمبراطور فإنه الآن لا يمثل صفة قياديةً إلا ما يخلعها عليه الإمبراطور أو من يحل محله . . وأقرب الناس له بالدم هي عمته وزوجها . .

وبذلك وقع الشقاق والفصام بين أبناء الشعب الواحد ، ولم يتحقق مرداهم من تحرير بلادهم من المحتلين ، بل لقد احتلوا

أنفسهم بأنفسهم ، وصارت أركاديا غابة كبيرة ، يأكل الإنسان فيها أخاه الإنسان . .

حاول الأمير ليون استرداد ما خسره من مدن ، لكنه لم يستطع . . خسر كثيراً من المعارك والوقائع حتى هبطت معنويات الركساس في الحضيض ، وخشي حليفه الأرغل على حكمه الذاتي في ناناكروبا فآثر تعزيز دفاعاته وتحصين مدنه وقراه . .

وتعالت أماني النصر وتفشت البهجة واستمكن التفاؤل لدى الأركاديين . . لكن أحداثاً خطيرة حصلت بين الأشقاء طيرت تلك الأماني الجميلة ، وأعادت كفة القوة إلى معسكر المحتلين . .

فلقد قام نصار بمهاجمة روفينيا شمال النهر الأبيض واحتلها بعد مجازر عظيمة سال على إثرها نهر أحمر من دماء الأركاديين ، وأصبح الفارس الشاب يحكم مدينتين وعدداً من القرى . . كان يسعى لجمع أكبر قدر من الجنود لينقض على غلوريا ويستعيدها . .

واندلعت مناوشات بين جيشي سيسيليا وأنجيليا ، كانت الغلبة فيها لجند علام الذي زحف بجيشه شمالاً صوب أنجيليا ليحتلها في طريقه إلى راهوا حيث يوجد ابن أخته وابن أخ زوجته العزيز بن النعمان ، مما دعا هاشم لطلب تعزيزات من والده ، فأرسل له عدنان خمسة آلاف جندي بقيادة ابنه النبراس ، والتقى الجيشان في معركة رهيبة شرق السهل الأبيض ، خسر فيها الطرفان المتنازعان كثيراً من الجنود دون نصر بيّن ولا نتائج ملموسة على أرض الواقع . .

وكان من نتائج هذه الصراعات أن تضاعفت الضرائب ، وتطلبت الجيوش مدها بالمؤن ، فازدات الأسعار ، وشح الزاد ، وقلّ عدد الرجال بسبب التجنيد الإجباري ، مما ساهم في زيادة

قطاع الطرق ، وتفشي السرقات ، وشيوع جرائم القتل والاغتصاب . .

وكأن السماء قد غضبت على الأرض فأمسكت ماءها إلا قليلاً ، أصيبت الأراضي بالقحط الشديد ، وانخفض منسوب النهر الأبيض ، وأوشكت أركاديا على الدمار فعلياً . .

وتنامت أنباء بعودة شاكان إلى غلوريا لقيادة بلاده في هذه الفوضى التي تشهدها ، فأشار إليه رجاله بالتعبئة العامة والانقضاض على غلوريا قبل أن يصلح شاكان ما أفسده شقيقه ليون ، فجمع عدنان جيشاً قوامه عشرين ألف جندي ، على رأسه كبار القادة الأركاديين ، كغضنفر وابنه عامر ، وهاشم وعرندس ونبراس أبناء المستشار العتيد ، ومن خلفهم مؤنة تكفيه عاماً كاملاً ، وسار بجيشه صوب غلوريا ، يحدوه الأمل وتباشير الانتصار ، ومن بين السائرين مع الجيش كانت غادة بنت القائد فهد ، رفقة صديقتها فريال ، أبتا إلا الخروج ومساندة الجيش بالغناء والرقص ترفيهاً وتحفيزاً ، ورغم اعتراضات عامر ، إلا أن غادة أبت إلا الخروج ، مستنجدة بغضنفر الذي وافق ولم يبدِ أي اعتراض . .

قالت لعامر :

– نحن نساند الجيش بما نستطيع يا عامر . .

فقال لها :

– ليس بالرقص والغناء تنتصر الأمم . .

فقالت :

– ولن ينتصر أيضاً بالتشتت والخلاف . .

كان على رأس الجيش الإمبراطور العزيز ، تقوده عربة خاصة يجرها أربعة من جياد كوبي الأصيلة . . طفلٌ في الثانية عشرة من

عمره بالكاد يُبين من أثر التلعثم . . يتجلى الحزن في نظرة عينيه الزرقاء . . يرتدي الثياب الإمبراطورية المموهة بالتهاويل والنقوش الذهبية ، وشعار أركاديا صقر فارد الجناحين ، يحمل في مخالبه سيفاً مذهباً ، أراد عدنان به شد عزيمة جيشه وإثارة حماستهم . نجح في ذلك ، ونجح أكثر في إثارة غيظ من حوله من القادة المتناحرين ، فلقد أقسم علام على الانتقام من عدنان إن أُصيب الغلام الشاب بأذى . .

أما شاكان العتيد ، فلقد أخرج جيشاً قوامه عشرة آلاف جندي يقودهم بنفسه ، وإلى جواره وزيراه زيدون وتيهاد ، وخيرة جنوده وقاداته ، بعرباته المدرعة ، وخيله المدربة ، ورايات كثيفة وخطط وثيقة . .

وكم كان موقف زيدون عصيباً حين علم بظهور العزيز ، أعلمه بذلك شاكان في حضرة الملكة نور ، التي تفطرت بكاءً حين علمت بالخبر ، استجدت شاكان وتوسلت إليه أن يبقيه على قيد الحياة وألا يمسه بسوء ، مبررة طلبها بكونه ابنها ، وأنه لا يملك إرادة حرة ، بل يحركه ويسوسه المستشار الخائن عدنان ، وأنه إن عفا عنه فلن يعود لطلب شيء ، بل سيبايع شاكان وينضوي تحت لوائه . .

وتباحث شاكان مع زيدون في هذا الشأن العظيم ، فأكد زيدون أنه لا يخون رجلاً يحمل له في رقبته بيعة ، وأنه سيناضل مع شاكان حتى النهاية ، ولو كان العدو هو صديقه القديم عدنان ، أو ابن أخته العزيز بن النعمان ، فسأله شاكان عن ميزات عدنان ، فقال له زيدون :

– أليس من الأولى أن تسألني عن عيوبه ؟

فأجابه بثقة وشموخ :

- تكون قد انتصرت على خصمك إن حولت ميزته إلى عيب . .

فانداح زيدون يسرد مميزات عدنان ، قال فيما قال :

- هو رجل صعب المراس ، يتوقد حكمة وذكاء ، يجيد قراءة الخصم وأفكاره ، جَلِد لا يعرف اليأس إليه سبيلاً ، أنِف لا يأبى الضيم والذل ، كريم في غير مسرفة ولا خيلاء ، يحب الفخر وأحاديث الثناء ، لا يسارع إلى معركة حتى يدرس أرضها جيداً ، له ثلاثة أبناء كالأسود قوة وبطشا ، تبوأ قيادة الجيش أمداً طويلاً فكان نعم القائد ، ثم تولى منصب المستشار فكان نِعم المستشار . .

فأومأ شاكان برأسه طرباً وقال :

- هكذا فليكن الخصوم وإلا فلا . . النصر مضمون يا زيدون . .

وسأله تيهاد خِفية عن زيدون :

- هل نستعمل جاسوسنا يا مولاي ؟

فأجابه :

- سيأتي دوره قريباً . .

وفي جبال كوبي الشرقية كان الوضع متأزماً . . فمنذ أُعلن عن ولي العهد وحمزة بن البتار يتحرق شوقاً للقتال ومشاركة الثائرين في جهادهم لتحرير الأرض . . كان يرى أنه مستعد للقتال . . وأنه قد أكمل تعليمه وتدريبه . . لكن الحكيم أبى السماح له ، وأمره بالانصياع له دون مهاودة . . لكن الشاب الطموح حين علم بتعبئة عدنان لفتح غلوريا لم يطق صبراً . .

وشاركه الحماسة صديقه أسامة ، كانا متبرمان من منع الشيخ لهما ، ومن انصياع صفوان والسمهري له دون وجه حق - كما يظنان - ، وتجادلا طويلاً مع شيهانة فكانت صلبة كجدها ، وسخرت

من طموح الشابين ووجهتهما لإفراغ هذه الحماسة في رعي الغنم..

دعونا نحط بأجنحة الذكرى هناك.. لننظر كيف تتكون الأجنحة.. وكيف يتطاير الريش وتسقط المخالب..

***

- لن تذهب!!

- بل سأذهب . . وسترافقني . .

- لن تفعل ولن أفعل ؛ حتى يأذن لنا الحكيم . .

- لن يأذن . . لقد مضت سنوات ونحن نتتلمذ على تعاليمه ، ونتلقى التدريبات من صفوان والسمهري ، ولا زلنا بعينه صغاراً لا نجيد القتال ولا نصلح لشيء . . قتلة والدي يمرحون في البلاد ، ونحن كالنساء نختبئ في الجبل . . انظر إلى الرجال الحقيقين وقد ضحوا بأنفسهم وأهليهم وأموالهم وغادروا قراهم وأراضيهم انتصاراً للإمبراطور ولأرض أركاديا . . سنوات عمرنا تتبدد يا أخي ونحن لا نزال قابعين هنا ، نتلقى التدريب بزعمه ، وهو في الحقيقة يعد أحدنا ليكون زوجاً لحفيدته شيهانة . .

- أو تظن نفسك أكثر عقلاً منه وأشد خبرة وأقرب حكمة؟ أم تراك تظن نفسك أكثر شجاعة من صفوان الذي قضى عمره محارباً من جبهة إلى أخرى؟ أم عساك تشعر بالانتماء إلى أرض أركاديا أكثر من السمهري الذي خاض الحروب وخسر من أهله وعشيرته أكثر مما خسرنا؟ لا تبدد جهد السنين يا أخي ولننتظر إشارة الحكيم وحينها سأسبقك أنا إلى أرض المعركة . .

لم يطعه . . ومضى وحيداً إلى راهوا ليلتحق بالجيش . . وليته أطاعه . . .

كان طعم الذكرى أشد ملوحة من عرقه المتلبد بين جلده

وخوذته ودرعه . . أكثر عفونة من دماء الجثث التي تناثرت حوله وعلى جسده إبان اشتداد القتال . .

لقد انتهى كل شيء سريعاً جداً . . وتبدت الهزيمة بوجهها الكالح مرعبة أكثر من الموت نفسه . . ما الموت إلا قنطرة بين حياتين . . والشنيع أن ترغب بالموت ولا تجده . .

كانت المعركة تسير على ما يرام حتى انقض جيش من الجنوب أصاب المعسكر بالتخبط وأوقعه في متاهات العشوائية . . جيش سيسليا هاجم الأركاديين بقوة ، وخلخل صفوفهم وأمعن فيهم القتل والأسر . . ولم يمهل شاكان عدنان حتى ينظم الصفوف أو يفكر بانسحاب يحفظ بقية الجيش إلى نهار آخر . . بل انقض بكامل ثقله ، وأطلق العربات المدرعة تضرم الجحيم وتحصد الأرواح . .

واستبسل القادة للحفاظ على حياة الإمبراطور الصغير ، وتكرر ما حدث في السهل الأبيض . . وخسر الأركاديون المعركة مجدداً ، واختفى قائد الجيش العام ، ومعه إمبراطور البلاد . . وأما بقية الجنود . . فإلى الموت أفواجاً . .

واستذكر كلام الحكيم جيداً وعض على أنامل الندم . . وفرّ في معية من فروا راكضاً يخشى الموت بغريزة شاب في مقتبل العمر . .

لقد علم الآن أن الهزيمة شعور أقبح مما كان يتصور ، فكيف إذا خالطه مذاق الخيانة المرير؟ أن تذوق مرارة شيء أنجع في تصوره من مجرد سماع أو تفكر . . الهزيمة والفشل حملان ثقيلان ينوءان بقلوب الرجال . .

استذكر كلام الحكيم قبيل رحيله . . قال له :

- يا بني .. تجنب أن تخوض معركة لا نصر فيها ..

ولم يع ذلك حينها .. وعاه حين اشتم نتن الخيانة ، وتنامى إلى إدراكه أنها حرب قذرة ، يبحث فيها كل قائد عن مصالحه ..

ركض مع الراكضين ، وحاول تجنب العربات ما استطاع ، لم يعد يشعر بإصاباته ولا يدري عن مدى خطورتها أو فداحتها ..

سقط بجواره فارس جريح ، فاقترب منه سريعاً ، استنجد به الفارس ، لكن إصابته لا برء لها ، فأخذ جواده ، وانتزع اللجام من يده ، وامتطاه راكضا صوب الشمال ، يحض جواده على الإسراع ، غير عابئ باستغاثات زميله الجريح .. وانغمس في جداول الذكرى ..

قابله صفوان وهو يغادر الجبل ، قال له :

- لماذا لا تصحبني يا صفوان ؟

أجابه :

- لم يحن دورنا بعد ..

- ومتى يحين يا صفوان؟ ألم يُعلن النفير العام؟ ويستنجدنا حاكمنا الشرعي ؟!

- عدنان ليس الحاكم .. حاكمنا لم يستدعِ أحداً .. وهذا هو نفير فتنة .. لا نفير نجاة ..

- لكن الجميع يقاتلون يا صفوان ونحن نعد من القاعدين في زمن الحرب ..

- الحكمة تقول : إن القعود في زمن الفتن خير من الوقوف فيها ..

- قد واتتني فرصة الاقتصاص من قتلة أبي .. ولن أفوتها يا صفوان ..

في رعاية السماء . . أرجو أن تعود إلينا سليماً . .

– كانت كلمات صفوان تتأجج في سمعه كالحمم . . كيف يتسنى لكل هؤلاء أن يروا شيئاً لا يراه قد حجبته عنهم سحائب القدر ؟!

تجاوز الخطوط بخفة . . يشعر بالسهام تمرق جواره ولا تصيبه . . يسمع هتاف الأعداء وصرخات الأصدقاء . . لا شيء يدعو للتوقف . . كل شيء هنا يحض على الهروب . .

تذكر خولة حين دعته لبيتها ، وأمدته بطعام ولباس ، تمنت له التوفيق والإعانة ، لم توبخه ، ولم تنهره ، كانت تعمّده بدموع صامتة ، وتعانقه بأعين مشفقة . . قالت له :

– لم أنجب ذكوراً أبداً . . كنت أنت وصديقك نعم الأبناء . .

قال لها :

– ومنذ تيتمتُ وأنا أعدك أماً يا خولة . .

قالت بصوت متهدج وهي تداري دموعها :

– وكأنني أودع قطعة مني . .

– ذاهبٌ للحرب وسأعود منتصراً . . أعدّي لي أطواق الغار . .

فتبتسمت وقالت :

– إن عدتَ إلى كوبي فلن أفعل . . وإن لحقتُكَ إلى غلوريا ستكون من نصيبك . .

لم يفهم حينها ما عنته بعبارتها الأخيرة . . هو يدركها الآن جيداً . . يدرك أنها تنبأت بهزيمة جيش عدنان وعودته مهزوماً إلى كوبي .؟ وصدقت هي الأخرى . . كم كان عنيداً . . ولا ينفع الندم بعد فوات الآوان . .

في طريقه أدرك الموكب الإمبراطوري . . العربة التي تقل العزيز

بجواد ناقص ودولاب معطوب . . وعدنان وأبناؤه وغضنفر وبضعة فرسان ، وعامر ومعه غادة وفريال يعلوهما الألم والجراح . . عرّف بنفسه وسار بجوارهم . . انتبه لحديث بين الثلاثة عن الخطوة القادمة ومصير العزيز . . الغضنفر يرى الصمود وعدم الاستسلام . . وهاشم يرى تهريب العزيز حتى يستطيعوا تجميع الجنود المفرقين ، وتجنيد المزيد منهم . . وأمعنوا في الخلاف . . يا للسماء!! ما أشبه الليلة بالبارحة!! قالها في نفسه وهو يستذكر حديثاً قديماً . .

وأخذته الذكرى إلى كوبي مجدداً حين قابل السمهري في دكانه . . أخبره بشأن الذهاب ، وطلب منه النصيحة والمشورة ، فاستمر السمهري يعمل على قطعة الحديد التي يطرقها ، حتى إذا ما فرغ اقترب منه وبصق في وجهه . . قال :

– يا لخسارة ما علمناك إياه . . اذهب ولا تعد . . رغم أنني أعلم أنك ستعود خائباً مهزوماً . .

تذكر ذلك . . ومسح على وجهه كما مسح بصاق السمهري يومها . . وأرهف السمع للقادة مجدداً وهو يبتلع غصص الخيبة . .

تقدم نحو القائد عدنان . . حكى له عن الجبل وعن الحكيم . . واصفاً مناعة الجبال هناك ، وأنها ستكون خير مخبىء لجلالة الإمبراطور حتى يستعيد الجيش اتزانه . .

فاستبشر عدنان بسماع اسم الحكيم ، وأمر أبا عامر بالعودة إلى المدينة وتجميع العائدين من الجنود وتحصين المدينة ، حتى يتمكنوا من الحفاظ على مكتسباتهم ، فيما سيذهب هو وهاشم بالعزيز إلى كوبي لتخبأته هناك وطلب النصح والمعونة من الحكيم توفيق . .

تمنع عدنان إذاك عن قبول هذا الاقتراح ، وأكبر على الحكيم هذا التعالي ، وأكد على ضرورة أن يستبِقَ الأركاديون جميعاً لخدمة

بلادهم بكافة أطيافهم وخبراتهم . .

لكن عدنان الآن في قمة الحاجة له . . لذلك رضخ وقرر المسير إليه بنفسه رغم اشتداد تعبه وإرهاقه من المعركة ومن الهروب المرير . .

قال هاشم في حذر :

– ولكن . . ألا تخشى يا أبتِ أن يسرب الجاسوس خبر هروبنا إلى كوبي ؟

فنهره عدنان بغضب :

– لا يوجد بيننا جاسوس . . الجاسوس كان فكرة أُنشئت لمداراة الهزائم التي حاقت بنا قبل عشرة أعوام . . الجاسوس الحقيقي تخاذلنا وقعودنا عن نصر ما نؤمن به . .

تذكر كلام صديقة طفولته والتي غدت شابة يافعة ، خلّفت الطفولة وراءها واستقبلت الأنوثة بنضارتها وحسنها . . واستبدلا ما كانا يتعاملان به من مشاكسة بالخجل والحياء . . سارت معه هويناً حتى وصلوا لحدود القرية . . قالت له :

– إن انتصرتم يا صديقي فقد حققتم ما نريد . . وإن هُزمتم فحاولوا تقليل الخسائر . . أصحاب المبادئ يا صديقي لا يموتون . . وإن تنكلوا الهزيمة تلو الهزيمة . .

كان كلامها مؤثراً جداً . . حُفر في ذهنه كالوشم الدهريّ . . ستظل حروفها دوماً على قيد ذاكرته . . لطالما استغرب أنهار الحكمة التي تتفجر من ثغرها . . لكنه يعزو ذلك إلى التصاقها بالحكيم ، والتي غدت تدعوه بأبيها لقربها الدائم منه ، ولم يكن ذلك اللقب يضير السمهري أبداً ، هو أيضاً كان يرى في توفيق أباً ومعلماً ، اجتباه بعد أن تخلت عنه الدنيا وفقد كل شيء في معركة

السهل الأبيض ، ولم يعد يرغب في الحياة ، لكن توفيق أعاد بعثه وأوقفه مجدداً على قدميه ، زوجّه ابنته الأرملة ، وعلمه صنعة الحدادة ، التي برع فيها وصارت مصدر رزقه . .

وانقسم الفرسان إلى قسمين ، رافق سوادهم عدنان وهاشم إلى الجبل في معية الإمبراطور العزيز ، والبقية تبعوا الغضنفر وعرندس ونبراس إلى راهوا . .

وقبيل الغروب وصلوا إلى كوبي . . كان الأهالي في استقبالهم بعد أن سبق الموكبَ أحد الفرسان بخبر قدوم الإمبراطور . . كان مشهداً مهيباً يحفه الجلال . . القرويون قد اصطفوا على مدخل القرية يحملون الورد والسيوف ، يحيون بها مليك بلادهم الشرعي ، الذي اصطفاهم دون سائر القرى ليجد لديهم النجاة والأمان . . ما منعهم من العزف والرقص إلا أنباء الهزيمة المذلة التي تلقاها الجيش في المعركة الماضية . .

كان من بين المستقبلين السمهري وخولة ، دعوا الشاب ليخبرهم بما حصل ، فحكى لهم وقائع المعركة باقتضاب ، وبصق السمهري أرضاً وهو يلعن علام والخونة أجمعين ، واصطحبت خولة الفتاتين إلى كوخها من أجل العناية بهما . .

اختاروا أفخم البيوت ليكون مهجعاً للعزيز قبل أن يقابل الحكيم كما اتفقوا صباح الغد . . كان الغلام الملكي مرهقاً جداً . . اختار عدنان له أفضل الحجرات وأمر النساء بإعداد الطعام والفراش له . . واجتمع هو بهاشم طويلاً لبحث الوضع الراهن قبل أن يدركهم المنام . .

وهو . . ألقى بجسده الكليل في منزل السمهري بحثاً عن راحة لجسده الذي تلقى من الصفعات ما يكفيه لحياة طويلة . .

ولكن . . من أين العلاج لصفعات الروح ؟!

وكان الليل يحمل في طياته تنوراً مضطرماً بالمفاجآت . . ولم تمس ريشةُ الضوء محبرةَ الليل إلا لتكتب على جبين الصبح حكايات من دم ، وتمحو أسماء أناس . . وتبقي على آخرين . .

استفاقت القرية الآمنة على طنين السهام وصهيل الخيل ومشاعل اللهب . . اقتحمت كتيبة ركساسية شوارع القرية بحثاً عن العزيز وعدنان . . الذي استفاق مذعوراً على صوت هاشم يحذره مما جرى ، وجاء عامر بصحبة العزيز يخبؤه بين الرجال حتى لا يدركه الطلب . .

أخبره هاشم بأنهم حوالي ثلاثمائة فارس من خيالة شاكان الخاصة ، ينتشرون بشكل لا يدع مجالاً للهرب أو التسلل ، يمشطون الشوارع والبيوت بعناية وحرص ، ويقتلون بمجرد الشك أو الشبهة .

قال عدنان بقلق :

– بماذا تشيرون عليّ يا رجال ؟

فقال عامر :

– لا مناص من القتال يا سيدي . .

أعرض عدنان عن رأي الشاب ، فقال هاشم :

– لا بد من مواجهتهم يا أبتِ . . سنقاتلهم أنا وعامر وما تبقى من الرجال . . وتسلل أنت في جنح الظلام بحثاً عن منفذ أو مخبأ آمن . .

وتذكر عدنان صديقه زيدون وود لو كان بجواره ليمنحه رأيه الحكيم . . وطُرق الباب ، وسمعوا صوت الشاب يقول :

– هذا أنا . . ومعي السمهري . . افتح يا سيدي . .

ففتح عامر الباب وأدخل الرجلين . . قال السمهري :

- سيدي . . نحن على دراية بدروب القرية ومنافذها . . نستطيع تهريبكم منها ببساطة ويسر . . كل ما أحتاجه هو أربعة رجال لا يهابون الموت ، ووشاح صاحب الجلالة . .

فرشح له عدنان أربعة من الرجال وقال لهم :

- هيا اتبعوه . . وأطيعوا أوامره مهما قال . .

ألقى السمهري تعليماته على الرجال ، ومضى كلٌّ لينفذ ما أنيط به . .

في تلك الأثناء هُرعت خولة إلى قائد الكتيبة ، وقالت له بصوت يمتلىء خوفاً وجزعاً :

- سيدي . . لقد وجدت غريباً في داري . . أرجو أن تأتي لتراه ، لعله أن يكون الرجل الذي تقصد . .

سألها عن مواصفاته ، فلما استرسلت في وصف الوشاح تبعها مع ثلة من رجاله ، أدخلتهم إلى دارها طالبة منهم عدم إصدار صوت كي لا ينتبه لهم ، وأزاحت الستار عن فناء الدار ، وهي تهمس مشيرة إلى جسد طريح قرب قن الدجاج :

- إنه هناك يا سيدي . . لقد تسلل إلى منزلي خِفية وأنا نائمة ، وألفيته هناك منطرحاً قرب دجاجاتي المسكينات . . لا بد أنه يرعبهم الآن . .

أشار القائد إلى رجاله بأن يتبعوه . . وساروا بحذر إلى صاحب الوشاح ، حتى إذا ما اقترب منه القائد جذبه بشدة ، ليجد أسفله كومة من القش . . وسمعوا جميعاً صوت خولة تهتف :

- الآن!!

فإذا بمشاعل من لهب تسقط من أسطح المباني المجاورة ،

أشعلت النار سريعاً في القش المتشبع بالزيت والسمن ، فأضرم النار في الجنود المتكتلين في الفناء الضيق ، المفروش بالقش المتشبع بالزيت ، وحاول بعضهم الخروج من الباب الضيق ، لكن سيف السمهري وعامر كانا في الانتظار . .

ولم تكن إلا برهات قليلة ويُقضى على القائد ومن كانوا معه ، فتراكض الركساس صوب المنزل المشتعل وأحاطوا به ، لكنهم فوجئوا بأسهم نارية تصيبهم من البيوت المحيطة ، وزيوت حارقة تنسكب عليهم من كل سطح ، فتفرقوا ووقعوا في حالة من الهرج والمرج ، استغلها عدنان ومن معه ليحملوا العزيز صوب الطريق التي وصفها السمهري نحو الجبل ، لكنهم صادفوا عدداً من الرجال فاشتبكوا معهم في صراع رهيب ، أصيب فيهم عدنان وسقط ، وقاتل هاشم رغم إصاباته البالغة ، وكاد الركساس أن ينفذوا إلى الإمبراطور المذعور لولا أن انقض عليهم رجلان من العدم جندلا الركساسيين في لحظات قصار ، أحدهما عملاق أسمر ، والآخر شاب طويل الشعر حسن اللحية بادي العنفوان . . قال لهما هاشم :

– ممتن لكما أيها الشابان . . لقد أنقذتما صاحب الجلالة إمبراطور أركاديا المعظم ووصي العرش المستشار عدنان . . عرفا بنفسيكما كي تنالا بركات جلالة الإمبراطور . .

فقال العملاق بتهكم :

– ألم تعرفني بعد يا هاشم ؟!

فتفرس هاشم في ملامحه جيداً ثم هتف بدهشة :

– صفوان ؟!!

فضحك العملاق النانا كروبي ، وقال :

- مضى وقت طويل يا هاشم .. آخر مرة رأيتك فيها كانت في جناح والد هذا الشاب ..

نظر هاشم في الشاب وهتف :

- أيكون هذا حمزة بن القائد البتار ؟!!

فقال حمزة بصوته الهادئ :

- نعم يا هاشم .. ما أشبه اليوم بالبارحة!! ها أنا أعود لإنقاذكم مرة أخرى ..

فتذكر هاشم سريعاً اللحظة التي انقض فيها حمزة بحجره على شاكان ، ليطرحه أرضاً ، مما ساعد في إنقاذ الإمبراطور النعمان تلك الليلة ..

- لقد كبرت كثيراً يا حمزة .. لقد غدوت تشبه والدك البتار ..

فابتسم حمزة قائلاً :

- الملامح لا تصنع أحداً .. نحن نكون ما نفعله ونقاتل من أجله ..

وجاءهم صوت الشاب ينادي حمزة من الخلف ، فأشار له حمزة قائلاً :

- هنا يا أسامة ..

فاقترب منه أسامة حتى تعانقا عناقاً حميماً .. قال وصوته يتهدج شجناً :

- لقد هُزمت يا حمزة .. هزمت شر هزيمة .. كم هو مر مذاقها!! ليتني استمعت لنصائحك ونصائح الحكيم والسمهري وصفوان ..

فربت عليه حمزة وقال له بحنان :

- لا بأس عليك يا أخي .. من بركات السماء أنها تمنحنا الفرصة لتعديل أخطائنا ..

حينها سمعوا تأوهات المستشار عدنان فأسرعوا إليه ، كانت إصاباته بالغة جداً ، فضمدوا ما استطاعوا منها ، وحملوه على أحد الجوادين اللذين أتى بهما صفوان وحمزة ، ومنحوا الآخر للعزيز ، الذي كان ذاهلاً جداً .. تسيل دموعه على وجهه في صمت ودهشة .. قال له حمزة :

- أمك أوصت والدي بك يا مولاي .. وأنا وريث أبي .. لا تخش شيئاً ..

وصعدوا الجبل إلى كوخ الحكيم توفيق .. وجدوا الحكيم وشيهانة وحياة ينتظرونهم ومعهم غادة وفريال .. تبسم الحكيم وقال :

- مضى وقت طويل يا عدنان .. متى كانت آخر مرة رأيتك فيها ؟

أجابه عدنان رغم وهنه :

- في الليلة التي ولد فيها ولي العهد يا صديقي .. لم تتغير كما أرى ..

ضحك الحكيم وقال :

- التغيرات الداخلية لا تكون واضحة جداً ، وصدقني هي التي يكون عليها الاعتماد ..

وتفحص الحكيم جروح المستشار قبل أن يقول له :

- الراحة معلقة بأهداب الصباح يا صديقي القديم ..

فتفهم عدنان أن جروحه لا رجاء لبرئها فقال :

- عزائي أني أموت ذوداً عن الحق لا قاعداً ولا متخاذلاً ..

ثم استطرد قائلاً :

– حدثني يا توفيق . . قد كنت قريباً من جلالة الإمبراطور ، وكنت الكاهن الأكبر لمعبد السماء ، وأنت وأسرتك الوحيدون المخولون برسم الوشم الإمبراطوري . . لا أحد أعز منك على الإمبراطور . . فلمذا اعتزلت ونأيت بنفسك في هذا الجبل الموحش؟

ابتسم الحكيم وتنهد قبل أن يقول :

– عشرة أعوام كانت كافية لأدرك مآلات البلاد التي أحب . .

– ألم يكن من الأجدى أن تبقى للإصلاح والتقويم ؟!

– كان اعتزالي نوعاً من الإصلاح أيها المستشار . . الإصلاح نوعان . . مباشر وغير مباشر . . أما المباشر فهو النصح والمشورة . . والثاني يكون بالتربية والتنشئة والإعداد . . وإذ أنني كنت فاشلاً في الأول ، أوقفت عمري على الثاني . .

تفكر عدنان ملياً ثم قال :

– وكيف تقرأ مستقبل البلاد أيها الحكيم ؟! أمن أمل يلوح في هذا الركام ؟

قال :

– لكل بداية جديدة مخاضٌ أليم يتفاوت ما بين عسر ويسر ، وكلما كان عسيراً أدرك الناس أهمية البذرة الناجمة عنه وتعلقوا بها . . وبعده فترة تربية ورعاية واحتضان ، تتم فيها السقاية حتى يدرك الجذع الفطام . . وتلك المراحل يا صديقي تكون طويلةً على قصرها . . وبقدر الاهتمام بها يكون اليفاع أكثر نضوجاً وأكثر قوة . . ورغم طوله يكون قصيراً جداً . .

وأردف :

– هنا ينتهي دورنا يا صديقي . . (وأشار إلى حمزة وشيهانة والعزيز) قد أوصلنا هؤلاء إلى عتبة المستقبل . . علمناهم كيف يسيرون . . وآن الأوان لنا أن نترجل ونهبهم الفرصة لعمارة الأرض . .

تساءل عدنان :

– هل سيقدِرون ؟!

مال الحكيم :

– ليس هكذا . . القدرات تتفاوت بين البشر . . ينبغي أن يكون السؤال «هل سيُقدّرون» ؟!

فكرر المستشار السؤال بصيغته الجديدة :

– هل سيُقدّرون ؟!

– إذا وصلوا لليفاع بشكل سليم ، فسيكونون على أهبة التقدير . . أمّا أن نزج بهم في معترك الحياة دون تهيئة وإعداد فلا قدرة ولا تقدير . . نحن نهب الأعداء بذلك انتصارات جَنيّة . .

شعر المستشار بالوهن أكثر . . فقال :

– هل سيكون الإمبراطور بأمان ؟

– لا تخشَ عليه يا عدنان . . ستمضي عجلة القدر كما تريد السماء له ، لا كما نريد نحن . .

أومأ عدنان برأسه تفهما . . وأغمض المستشار العتيد . . وندّ من صدره نفس أخير مترع بالرضا . . وجاد الحاضرون بدمع الرثاء ، وتفطرت القلوب وانداح الوجد وانتشر القلق . . وجاء فارس على وجه السرعة فلما رأى الجسد المسجى سكت وأدركه الذهول والحزن . . سأله هاشم عن الخطب فقال :

– لقد وصل شاكان بطليعة الجيش واقتحم القرية وقتل من

وجد فيها من المقاتلة ، وهم الآن في طريقهم إلى هنا يا سيدي . .

فحانت التفاتة من هاشم صوب الحكيم ليسأله عما يجب فعله . . قال الحكيم بابتسامة وحبور :

- هذه أولى بشائر النصر . .

ثم أردف قائلاً :

- صفوان حان الأوان لتسليم حمزة ما ورثه عن أبيه . .

فقام صفوان وأخرج من القبو حربةً ملفوفة بعناية بقماش كتاني ، سلمها إلى حمزة ، الذي فتحها سريعاً ليجد حربة والده . . فقبض عليها بقوة ، ورأى في نصلها اللامع ملامح والده الفقيد ، وسأل الحكيم بتوجس :

- ماذا يعني هذا يا سيدي ؟

فقال الحكيم :

- معناه أنك جاهز يا حمزة . . ضع يدك في يد شيهانة وقُد الرجال في معركة الخلاص . .

نظروا جميعاً إلى الحكيم ليفهموا مراده :

- أما أنا . . فسأراقبكم من بعيد . . سأكون في ظل الغيم وحفيف الغار . . هيا لا تضيعوا الوقت . . اذهبوا شرقاً عبر الطريق التي حفظتك إياها . . وستكونون بخير بطلوع الشمس . . صفوان . . لا تدع الطريق سالكاً بعد أن تجاوزوه . .

وحين همت شيهانة بالاعتراض مدّ الحكيم لها عصاه وقال :

- خذي يا شيهانة . . لقد حان دورك . . ساعدي ابن البتار . . وستعود بلادنا شابةً كما عهدناها . . ويجب عليكم أن تصونوها للأجيال القادمة . .

ونظر الحكيم صوب العزيز وقال :

- أيها الملك . . حمزة سيفك وشيهانة عصاك . . فاستعملهما جيداً . .

فأومأ العزيز برأسه دون أن يعي أبعاد الكلام ، وأمرهم بالرحيل على الفور . . فخرجوا جميعاً من الكوخ . . وسلكوا الطريق الذي وصف . . وقال الحكيم لحياة :

- هيا بنا يا حياة . . الطريق إلى السماء طويل جداً . .

وسُكبت الدموع ونعت السماء رجلاً ترك الأرض خصبة لهمي المطر . . وتلاشت الظلماء بتفشي ضياء الصبح . . ورحلت غيم الشتاء وازدانت السماء بسحاب الربيع . . وترقب الصيف وثبةً على صهوة الشمس ليطرد الملل . . وجمع الخريف غلّة الشجر وارتحل في قافلة النسيان . . وخفقت الأجنحة وتناثر الرماد . . واتسعت حدقتا التاريخ لتضم وهج العنقاء . . لقد صارت الأشبال أسوداً . . وتصاعد الفطام المرير صوب يفاع جديد . . وحلم جديد لا يسعه جفنٌ . . ولا يقدر على ضمه منام أو وساد . .

***

# القسم الثالث

# اليفع

## الفصل الأول:
## وثبة أسد.. واستفاقة فهد.. وقطيع الضباع

في البدء كان ثمة ملكٌ لم يقنع ببلاده فغزا بلاد جيرانه طمعاً في خيراتها . . وقد كان يزعم أنه يحمي وطنه ويريد السلام . .

وخائن باع بلاده لأنه لم يكن مقتنعاً بقاداتها . . فانتهك العهود وانضم إلى الأعداء . . وهو يزعم أنه بذلك يطهر البلاد . . وينتقم . . .

وحاكم مضطهد نبذ العهود وخان مواثيق الجيرة ، وانقض على جيرانه مساعداً العدو في تحقيق مآربه ، وهو في الحقيقة يرغب في التوسع والحكم والسيادة . .

وثلة من الكبار . . استسلموا لمن بغى على مليكهم وخدموه ، بزعمهم أنهم ينقذون ما يمكن إنقاذه . . وفي الحقيقة فقد فرطوا كثيراً وضاعت البلاد . . ولم يبقوا هم . .

كل شيء في أركاديا قد أصابه الدمار . . كانت بلاداً على هيئة دولاب كبير يتسارع نحو الهاوية . . وكل من كان يزعم أنه يحاول الحيلولة بينها وبين الوقوع كان كاذباً . .

قال أبي ذات مرة : الحروب لا تتمخض عن انتصارات . . هي في الحقيقة تتمخض عن درجات متفاوتة من الهزيمة . . ولأنه كان يعي ذلك جيداً فقد كان يمنع حمزة عن المشاركة في الحرب . . كان يحاول أن يفهمه أن الحرب لا تعني القتل . . ما القتل إلا نتيجة

عرضية لتحقيق أهداف الحروب . . قال له : أكبر نصر يمكن أن تحققه يا حمزة . . أن تكسب معركة لا دماء فيها . .

كان يقول له : ينبغي عليك يا حمزة أن تفهم الدوافع التي جعلت عدوك يحاربك . . وبناءً على تصوارتك تضع خططك الحربية . . وبناء على دقة تلك التصورات يكون النصر . .

لقد كان أبي يعالج تلك البذرة الصغيرة التي جاءه بها صفوان مليئة بالحقد والغضب . . فهذبها وعالجها وسقاها ، فنمت ورحنا نتابع نموها حتى خشينا أن تحجب نور الشمس!!

ليس من الممكن تغيير طبيعة الإنسان أو كبت عواطفه ، ولكن الممكن هو تغيير مساراتها صوب الأفضل دائماً . . وذاك هو عين ما فعله الحكيم مع حمزة بن البتار . . فبفراسته الحادة كان يرى فيه شيئاً لا يتكرر . . ولذلك وهبه ما بقي من عمره ليعود السلام الشريد من منافي القنوط . .

فيما مضى رويت لكم طرفاً مما حصل إبان الثورة الكبرى التي أقامها المستشار عدنان وذهب ضحيتها . . كيف استطاع شاكان بحنكته ومهارته أن يضرب عدداً من العصافير بحجر واحد . . لكن الطاووس قد فاته ولم يصل إلى العزيز ، والذي اختفى من الجبل رفقة من نجا من رجال أركاديا المخلصين . .

لم يخرج شاكان جيشه من غلوريا لملاقاة عدنان حتى عاد رسولاه بالبشرى التي أراد . . الأول أتاه بموافقة علام على مشاركته الهجوم على راهوا ، والثاني بموافقة الأرغل ـ حاكم ناناكروبا ـ على مهاجمة سيسليا بعد خروج جيش علام . . ونجح شاكان فيما خطط له برفقة تيهاد . . خسر عدنان المعركة ، واستعاد سيسليا وأسر ثريا وعلام . . وحاصر راهوا التي حصنها الغضنفر جيداً ثم انسحب

منها بعد إبرام هدنة ومعاهدة سلام مقابل حكم ذاتي على ألا يخرجوا عليه أبداً واقتاد زوجات عدنان وهاشم أسيرات حتى تنتهي الحرب . .

وأطلق شاكان قواته لمحاصرة روفينيا من أجل القضاء على حركة التمرد التي أنشأها نصار بن الوزير زيدون ، وفي جبال كوبي قام بإرسال قواته لتمشيط الجبال بحثاً عن العزيز دون جدوى . . فأمرهم شاكان أن يحفروا الأرض أو يثقبوا السماء بحثاً عن العزيز وعن حمزة . .

لم يصدق أحد من القادة الركساسيين أن ثلة من القرويين استطاعوا القضاء على مفرزة من خيرة الجنود ، وتنامت إلى شاكان أخبار تفيده بوجود حمزة على قيد الحياة ، وأنه كان مختبئاً كل ذلك الزمن لدى الحكيم توفيق ، ولذلك امتاز الأمير الركساسي غيظاً . . فقد اجتمع لديه الخطر كله . . فالـمُلك والعلم والشجاعة قد اجتمعوا . . وهم القادرون على تحويل الهزيمة إلى نصر ماحق . .

وبعيداً عن ذلك كله . . وفي قرية صغيرة غرب غلوريا تُدعى (تيدبا) كان الناجون من الأبطال يعيشون في مزرعة صغيرة . . جمزة وعامر وغادة وفريال أبناء العم ، وصفوان وأسامة ، والسمهري وخولة وشيهانة ، بالإضافة إلى الإمبراطور الصغير . . العزيز بن النعمان . .

كان لقاء أبناء العم حميماً جداً . . استذكروا ما خلا من السنين إبان الفراق ، وتجاوزا الألم ونقاط الخلاف . . وتكشفت روح الأنثى في إهاب غادة غداة لقاء حمزة . . كل تلك الصلابة والعناد والقوة توارت قليلاً . . لم تستطع كبح إعجابها به أو إخفائه كما تفعل الفتيات . . تركت له العنان رغم انتقادات فريال المتكررة ،

وتجاهل حمزة لتقربها منه . . كان الفتى يعيش في كوكب آخر . . يحلم بالنصر والتحرير وطرد الغزاة ورفع رايات الاستقلال . .

وكانت غادة تتلظى غيرة كلما وجدته مع شيهانة رفيقة طفولته ووزيرته المقربة ، وحاولت مراراً أن تثبت له أن عقلها لا يقل حدة عن عقل شيهانة ، وعبثاً حاولت ، ولذلك مضت لتدريبات السيف حتى تثبت له جدارتها في ميدان آخر لا تقدر عليه شيهانة . .

في البدء أخفت عنه عملها كراقصة متجولة تتنقل من مدينة إلى أخرى رفقة فريال كسباً للرزق وطلباً للمال ، وحذرت الجميع من كشف الأمر له وإلا عاقبته أشد العقاب ، لكن فاتها شخص لم تحذره ولن تقدر على عقابه ، ذلك هو العزيز بن النعمان ، الذي التقى بها في راهوا حين كان صغيراً مع شروق ، وحين واجهها حمزة حزيناً كونه يدرك جيداً معنى أن تكتسب فتاة قوتها بالرقص في زمن كاد أن ينعدم فيه الأمن أو انعدم فعلاً . .

ولم تستطع الإنكار ، وتعللت بكون الرقص مورد الرزق الوحيد الذي كانت تستطيعه ، وهي يتيمة مقطوعة لا عائل لها . واحتدت مع حمزة وتركته دون أن تحدثه لأيام . .

العزيز بن النعمان كان يقضي وقته في التأمل . . يغمس قدمه في الجداول . . ويمعن الخطو في الطين والرمال . . يحاول أن يستشعر معنى أن يكون مالكاً لهذه الأرض الشاسعة . . وأن البشر كلهم يقتتلون حوله من أجله هو . . من أجل أن يعود ملكاً كما كان أبوه وأجداده . .

لا يذكر أباه ولا أمه إلا بصيصاً من ذكرى تنوس في تيارات العمر المطردة . . كل ما كان عالقاً بذهنه هي شروق . . التي حملته وهربت به خمس سنوات كانت طويلة بما يكفي ليدرك أن طفولته

قد سُلبت منه . . وأن دماءه الملكية فرضت عليه عيشةً لم يكن يرضاها . .

لطالما رأى الأطفال يلعبون ولم يكن قادراً على مشاركتهم . . كانت شروق تضن عليه بأي شيء ترتاب في أنه قد يصيبه بأذى . . ولم يكن يدرك لماذا هي تفعل ذلك . . ورغم كل حكاياتها له عن مجده التليد وإرثه الذي ينتظر بلوغه العمر المناسب ، إلا أنه لم يدرك شيئاً من ذلك إلا حين وقع في يد المستشار عدنان . .

اختلفت حياته هناك تماماً في الظاهر لا في الجوهر . . أصبح منعماً مترفاً ينال احتراماً وتقديراً لم يجده مع مربيته التي كانت تقتات على ما يأتيها من أجر نظير خدمة البيوت . .

في كنف عدنان كان يعامل كملك . . يأكل ويشرب ويرتدي ويتعلم ويقرأ . . لكنه بقي في منأى عن مشاركة أسنانه في اللهو واللعب . . بل زاد الأمر سوءاً . . واشتد الخناق عليه خشية خطفه من القادة المتناحرين . . وبلغ الأمر ذروته حين أجبر على الخروج في طليعة الجيش السائر لملاقاة جيش شاكان . . كان يدرك أنه يساق إلى الموت وهو ينظر غير قادر على الخفق بشيء يذود به عن نفسه . .

لقد كان مجبراً على هذه الحياة رغماً عنه . . ولا يعلم لماذا . . ولا لأي شيء . . ولم يكن يريد هذا الإرث العميم . . كل ما يريده هو أن يُترك وشأنه . . وأن يعيش بالطريقة التي يختارها لنفسه ، لا كما يختار البقية له سبل البقاء . .

في الحقيقة . . أصعب حياة يعيشها الإنسان ، أن يعيش وفق مرادات من حوله ، لا كما يريد هو . . حينها تنقلب الحياة جحيماً لا يطاق ، ويسير المرء في أكنافها كجسد لا روح فيه ، يختلف مع

الناس في الشكل ويوافقهم في المضمون . .

لقد وُجدنا في هذه الحياة مختلفين في الأشكال والأصوات والأطباع والسمات ، فليس من العدل أن يقوم شخص بتفصيل شؤوننا على الوجه الذي يرتضيه هو . .

قال العزيز لحمزة ذات مرة :

- كل شخص في هذه الأرض يريدني لأمر في مصلحته هو لا لمصلحتي . . لن تتخيل يا حمزة مقدار هذا العذاب . .

فرد عليه قائلاً :

- كن كما تريد يا صاحب الجلالة . . حينها ستغير خارطة التاريخ . .

ورغم فارق السن كانا حميمين . . يقضيان أوقاتاً طويلة في الحديث أو المسير . . كان العزيز يراقب تدريبات حمزة ويرغب في مشاركته . . وحمزة يساعده في ذلك بكل سرور ورغبة . . لم يكن يثقل عليه أو يعنفه . . يعلمه على القدر الذي تسمح به قدرات جسده . . لكن الحديث بينهما لطالما كان ثرياً بالفوائد الخصبة والممتعة . .

قال أحدهم إن الإنسان يحب إنساناً آخر إما لأنهما يشتركان في ذات الخصال ، فيألف كل واحد منهما الآخر ، وإما لوجود خصال حميدة لا يمتلكها المرء ويجدها في قرينه فيحبه من أجلها ، فإذا كانت العلاقات الإنسانية قائمة على التكامل تكللت بالنجاح ، وأما إذا كان أساسها التفاضل فإن مصيرها الحتمي هو الشقاق . .

ومن هنا دعوني أحدثكم عن ابن البتار قليلاً . . لعلكم قد لاحظتم الاختلاف الجذري الذي حل بهذا الغلام المكلوم . . كيف

كان عنيداً غاضباً حاقداً عجولاً يرفض الاستكانة وقبول النصيحة والتعليم . .

انقلب هادئاً طيّعاً معاوناً ذا قلب محب ، وروح محلقة . . تسافر بين السماء والأرض كقمر لا ينخسف أبداً . . شهدت تحولاته ملياً كما نشهد بلوغ الطفل وانتقاله من مرحلة الطفولة إلى اليفاع ، كذلك تحول هذا الفتى الغاضب إلى روح مسالمة مستكينة . . تتطلع للمجد والانتصار . .

لم ينس بعد ثأر أبيه . . لكنه تحول إلى ثأر آخر . . إلى أهداف أخرى . . صار يقاتل من أجل أرض لا من أجل أشخاص . . لقد سما به الحكيم توفيق حتى لامس بأنامله سنا الشمس وسمع وشوشات القمر . .

لقد اختلف كثيراً . . صار يحب الناس ويحب الخير لهم . . تعلم كثيراً وتدرب كثيراً . . وصار ملماً بما يحتاجه المحارب جداً . . حتى أن جلساءه كانوا يظننوه أكبر سناً لفيض المعارف التي تنهمر من شفتيه كلما طرق باب فن من الفنون أو علم من العلوم . .

وإن شئتم أن تعجبوا فلكم أن تتخيلوا الانقلاب الحاصل في علاقته مع شيهانة!! فبعد البغض والكراهية ، تبدل الحال إلى الملاطفة والخجل . . وبعد المشاكسة والتناحر ، صارا بالكاد يتبادلان الحديث إلا لماماً . .

هو يثق بعقلها وحدته وفيض حكمتها . . حلت في قلبه مكان الحكيم الراحل . .

وهي تثق بقوته وذكائه وعنفوان فتوته وقدرته على قيادة البلاد كما كان جدها يتفرس فيه ويعده لهذا الشأن والمكان . .

وأدرك الجميع هذا التغير الحاصل بين الشابين ، بل وسمعوا

بآذان الحدس نبضات قلبيهما المتعانقين ، وأدركوا أن ثمة حب يولد في الخفاء ، فاقترحت خولة ذات مرة على حمزة أن يتزوج من شيهانة ، لكنه تمنع في استحياء ، مدّعياً أنه يراها كأخته . . والمرأة الذكية تدرك كذب ادعاءاته ، لكنها تعلم أنه شاب فخور ، يحب أن يقرر بنفسه وليس بتأثير أحد . .

وحدث أن سألت خولة ابنتها عن مشاعرها تجاهه ، فكان الجواب مقارباً لما قاله حمزة ، وذات مرة باغتت الأم شيهانة بكذبة مفادها أن حمزة قد خطبها من السمهري ، فما كان من الفتاة الذكية إلا أن ذابت خجلاً ولم تبد اعتراضاً . .

كانا قريبين من بعضهما كثيراً ، كان لزاماً أن تثار الغيرة في قلب غادة كما حدثتكم ، وكذلك في قلب أسامة ، لا سيما أنه من أقرانهما ، ويحمل في قلبه من المودة لشيهانة أكثر مما يحمله حمزة ، ويكفي أنه يعرفها منذ كانا طفلين صغيرين ، وتشاركا التربية والحياة سوياً . . لكنه لم يملك شيئاً إلا الانتظار وإثبات جدارته به ليفوق حمزة ، ويصبح الفارس الأول كما كان يطمح دائماً . .

ولعلكم تتساءلون عن مصير الحكيم توفيق بعد هجوم الركساسيين على كوخه في الجبل ، والحق أنني مثلكم لا أدري عما حل به . . لقد اختفى ذكره بين الناس وكأنه لم يك شيئاً . . ظل الركساس يبحثون عنه ، فلم يجدوا له جثة أو أثراً . .

شاع أنه عاد قديساً إلى السماء . . وقيل أنه شوهد رحالةً بين القرى والمدائن يرافق حياة . . وقيل أنه قد مات ودفن . . وقيلت أشياء كثيرة . . لكنني أنا لا أعلم عن الحقيقة أين تكون . .

وهناك أقصى الشمال حيث تقبع عاصمة ركساس في قمم الجبال المثقلة بالصقيع ، كانت حالة الإمبراطور تتمايل بين التعب

والصحة ، ولم تكن زوجه الإمبراطورة تعنى كثيراً به أو بحاله ، كانت تنأى عنه كما يليق بزوجة تدرك صغر مكانتها لدى زوجها . . لكنها أوعزت لخادماتها بالعمل على راحته وتطبيبه والعناية به ، كما عنيت به الأميرة ريفالا ، وبالغت في إظهار الحنان له والعناية به . وفي أوقات فراغها كانت تجالس فتاة أركادية إنها وردة بن البتار .

في البداية كانت تزدريها وتمقتها لكن لما لمسه من مهارتها واشتداد اهتمامها ، وحسن معاشرتها تقربت منها وطفقت تسهر معها ليالي طويلة ، تجاذبها أطراف حديث من طرفها كلاماً ، واستماع وتفاعل بالملامح والإشارات والكتابة من طرف وردة . . لقد كانت تجد سلوتها في الحديث عن نفسها وعن الجرح الذي أحدثه لها شاكان وغار عميقاً في صميم كرامتها ، والممتع حقاً أنها كانت تتحدث إلى منصتة جيدة ، لا تقاطعها إلا لتصفق أو لتعبر عن إعجابها أو تأثرها . .

أطلت الحديث عليكم ، وأعلم أنكم على شوق لمعرفة كيف بدأ حمزة بن البتار حربه الخاصة . . وكيف أشعل شرارتها الأولى . . كان على قناعة بضرورة جمع كافة الطوائف على قلب رجل واحد . . ليحاربوا العدو المشترك . . ومن هناك سينبلج النصر وتنتشر غمائم السلام . . أترككم الآن مع الأحداث . . فانتبهوا جيداً . . .

***

العواصف التي تأتي في وضح النهار تكون على هيئة وجع يطعن في خاصرة السماء حتى ينسدل جفن الشمس وينتشر كحل الظلام. وتسامقت رؤوس الأشجار بحثاً عن ضوء فلوحت لها قمم الجبال. وتعطنت الأنهار بغلالات الغبار فتحولت نضرتها إلى شحوب وبهتان. والعظام شكت طغيان البرودة وطمعت في الدفء والسكون، وأسلمت الأجساد الكالحة لصلي نار الحطب والأشربة الساخنة..

في بقعة منزوية أقصى الغابة المتصاعدة صوب هضبة سحيقة، كان في سفحها كهف صغير جعله قطاع الطرق وكراً ومأوى، منه ينطلقون وإليه يلجؤون، بداخله فُرُش مصفوفة قُدّت من جلود الحيوانات المدبوغة وحُشيت بريش الطيور، ومقاعد وأسرة من خشب الأشجار، وأوعية فخارية حوت الماء والفائض من الأطعمة والفاكهة، ومصابيح مشتعلة تتقوت من شحم ودهون الحيوانات.

كانت رائحة اللحم المقدد والنبيذ المتخمر تضمخ المكان، وقد اجتمعت ثلة من الرجال حول النار يتجاذبون أطراف الكلام، فيما كان زعيمهم مضطجعاً يشرب النبيذ ويأكل بكسل، ملامحه قاسية شديدة، وقد بدا جلد وجهه مشوهاً إثر إصابته بالحرق، ومساعده الذي أغار على قافلة شروق ونجا منها وحيداً يشحذ سيفه ويفل ريش السهام ويرصها في جعبتها بعناية واهتمام.

وفي غمرة انشغالهم بما يقومون به اقتحم الكهف أحد الرجال على عجلة، وهو يهتف:

- سيدي الزعيم ثمة أمر يجدر أن تطلع عليه . .

قال الزعيم بصوته الخشن قوي النبرات :

- ما الأمر يا عوف ؟

- رجال الحراسة لمحوا مخيماً لقوات الركساس خارج الغابة من الناحية الغربية ، لا شك أنهم في سبيلهم للإغارة على المتمردين في روفينيا . .

فزمجر الزعيم قائلاً :

- أتزعجني من أجل خبر كهذا ؟!!

فتعذر عوف وقال :

- لا يا زعيمي . . لقد اقتربت بنفسي من المخيم وأجزم أنه فارغ إلا من حراسة قليلة لن تصمد أمام غارة واحدة من رجالنا خصوصاً في هذا الجو العاصف . .

هب المساعد ليقول بحماسة :

- لا شك أن مخيمهم مليء بالمؤن والأسلحة . . ستكون غنيمةً رائعة أيها الزعيم . .

قال الزعيم بتوجس :

- لا أدري لماذا أشعر بالريبة من هذا المعسكر . . قلبي يحدثني أن لا خير من ورائه . .

فلوح المساعد بيده قائلاً :

- أنت هكذا دائماً تبالغ في الريبة والشك . . هي فرصة سانحة ينبغي أن ندركها قبل انقشاع العاصفة وفوات الأوان . .

تفكر الزعيم ملياً وسأل عوف فقال :

- كم رجلاً تحتاج ؟

أجابه :

- أربعون رجلاً سيكونوا كافين . .

فظهر الاستنكار على وجه الزعيم ، لكن المساعد قال :

- الغنيمة تستحق يا زعيمي . .

- معنى هذا أن المخبأ لن يحميه إلا ثلاثين رجلاً فحسب!!

قال المساعد بدهاء :

- وأنت وحدك تساوي ستين رجلاً أيها الزعيم ، ثم إن المسافة قريبة ، يوم وليلة وسيعودون بالخير الوفير . .

- حسناً . . أرجو ألا أندم على ذلك . . قدهم يا عوف ، واحرص على سلامتهم ، ولا تبقوا على ركساسياً واحداً على قيد الحياة . .

وامتطى قطاع الطرق خيلهم ومضوا صوب مخيم الركساس ، حيث حاصروه وراقبوه جيداً ولم يجدوا إلا حارسين يحرسان مدخل المخيم ، يجلسان على الأرض ويشربان من قنينة واحدة بالتناوب ، ثم لم يلبث أن دبّ خلاف بينهما ، فقال عوف لرجاله :

- يبدو أن السكر قد عربد بهما يا رجال ، فلننتظر قليلاً حتى يسقطا . .

لكن الحارسين استلا سيفيهما ، واختلفا عدة ضربات ، حتى خرّ أحدهما صريعاً ، فمكث الآخر ملياً ينظر إليه في دهشة وذهول ، ثم أتى بفرسين وحمل جثة زميله ورحل بها . .

قال أحد رجال العصابة :

- لعله في سبيله لدفن صاحبه . .

وقال آخر :

- أو أنه قرر الفرار بذنبه . .

فقال عوف :

- على كلٍ ينبغي علينا استثمار الموقف ونهب المعسكر سريعاً قبل أن يعود الجنود . . تذكروا . . ركزوا على ما غلا وخفّ حمله . .

وولجوا المخيم بهدوء تدربوا عليه ، وأخذوا بتفتيش المخيم ونهب ما وجدوه فيه من قمح وفاكهة وأسلحة ، ثم تنامى إلى مسامعهم صوت استغاثة ينبعث من إحدى الخيام ، فدخلها عوف ليجد فتاة موثقة إلى سارية الخيمة ، قالت له بوجل :

- هل أنت من الركساس ؟

فقال :

- لا . . أنا أركادي . .

قالت باستجداء :

- إذن أرجوك يا سيدي أن تخلصني . . لقد خطفني هؤلاء الطغاة من قريتي وهم ينوون إيذائي حال عودتهم من حصار روفينيا . .

فاقترب منها عوف وتأمل ملامحها الناعمة . . واستل خنجره وقام بحل وثاقها . . فشكرته الفتاة وقالت له :

- أنت رجل كريم يا سيدي . . ولا بد أن أكافئك مكافأة خاصة . . إلا أنني أخشى السفر وحيدة في هذه العاصفة ، كما أن قطاع الطرق يتربصون بهذه النواحي ، لذا أرجوك يا سيدي أن تعيدني إلى قريتي ، وهي بالقرب من هنا ، مسافة نصف ليلة سيراً على الأقدام ، فكيف إذا امتطينا خيلاً أنت تقودها ؟

فتبسم عوف بزهو وقال :

- على الرحب والسعة أيتها الجميلة . . سأصحبك مع عدد من رجالي . .

فاعترض أحد الرجال قائلاً :

- سيغضب الزعيم كثيراً يا عوف إن أنت تصرفت من تلقاء نفسك . . أوامره تحتم نهب المخيم والعودة على الفور . .

قال عوف :

- لن نتأخر ، كما أننا سنعود بمكافأة كبيرة نضيفها على ما غنماه هنا . .

أكدت الفتاة ذلك قائلة :

- والدي رجل كريم . . ولا بد أنه سيُحمّلكم من المال ما يرضيكم وأكثر . .

قال الشخص المعترض :

- وماذا إن عاد الركساس ووجدونا هنا ؟!

قالت الفتاة :

- لن يعودوا قريباً . . لقد سمعت قائدهم يقول إنهم سيعودون بعد أسبوع للتزود . .

فقال عوف بحدة :

- لا تكثر من الاعتراض يا هذا . . سآخذ عشرين من الرجال وأدع لك الباقين . . وإن غربت الشمس ولم نعد فاقفل عائداً إلى وكرنا . .

وسار عوف ومعه الفتاة صوب قريتهم ، وبعد مرور عدة ساعات ، لمحوا الحارس يسير بجواده صوب الغابة ، فتوقف عوف ، وأمر عشرة من رجاله باللحاق بالحارس والقضاء عليه . فيما أكمل مع البقية المسير صوب مضارب قبيلة الفتاة . .

كانت العاصفة في وجوههم وهم يسيرون ، ألقت التراب والغبار على وجوههم وأعينهم ، فاقترحت الفتاة أن يرتاحوا قليلاً حتى تهدأ العاصفة . . فنزلوا عن الخيل وجلسوا تحت مجموعة من

الأشجار ، متباعدين عن بعضهم ، يحاول كل واحد منهم اتقاء الريح بما قدر . .

وبينما كانوا يرتاحون اقترب عوف من الفتاة وقال لها :

- أنتم تسكنون هنا منذ مدة بعيدة ؟

قالت :

ـ لا . . أجبرتنا ظروف الحرب على الترحال طلباً للرزق . .

تأمل تقاسيم وجهها وتشرّب ملاحتها :

- وفي الأصل من أين أنتم ؟

قالت :

- من قرية لَدَم قرب سيسليا . .

قال وهو يقترب منها :

- لم أسمع بها من قبل . .

رنت إليه وقالت :

- غريب! كنت أتوقع أنك على دراية بجغرافية البلاد!!

قال بزهو وهو يقترب أكثر :

- بل أحفظ كل شبر منها . . أما هذه القرية فلا أذكرها أبداً . .

قالت وهي تقترب منه بدورها :

- ربما لأنه لا وجود لها!!

وانقضت عليه بخفة وضربته خلف أذنه بحجر كانت تحمله ، فخر مغشياً عليه ، وقامت سريعاً بإخراج حبل وقيدت معصمه به خلف ظهره ، مجردةً إياه من كل سلاح وجدته بين طيات ثيابه . .

وهب الرجال لنجدة قائدهم لكن صفوان والسمهري وعامر وأسامة ظهروا فجأة وهاجموهم بخفة ، وهزموهم جميعاً ، وقاموا بتقييدهم إلى جوار قائدهم ، في حين اقترب منها عامر قائلاً :

- هل أنت بخير يا غادة ؟!

فأجابته ببساطة مخفية نبضات قلبها المتسارعة :

- كل شيء على ما يرام يا ابن عمي . .

والتفت إلى أسامة :

- ماذا عن حمزة ؟!

فقال ملوحاً بيده :

- لا شك أنه قد تكفل بدوره . .

قالت :

- حسناً . . فلنلحق به . . خطتنا قائمة على السرعة . .

وانطلقت معهم ، ليجدوا حمزة واقفاً على شفير حفرة في زي الحراسة الخاصة بالمعسكر الركساسي ، وقد وقع داخل الحفرة الرجال العشر الذين لاحقوه ، قال السمهري :

- لقد نجح هذا الكمين البسيط كما أرى . .

فقال حمزة :

- الكمائن البسيطة أجدى أحياناً من الكمائن المعقدة ، المهم أن تضع الشيء في مكانه المناسب زماناً ومكاناً . .

وفي مخيم الركساس كان الرجال أيضاً يعانون من عصف الريح ، فأوى كل اثنين منهم إلى خيمة من الخيمات الموجودة داخل المخيم ، وفي أحد المخيمات كان رجلان يلعنان عوف على سوء ما قام به من مخالفة صريحة لتعليمات القائد بالعودة إلى المخيم فوراً حال جمع الغنائم ، لكنه آثر شهوته الذاتية وقرر السير خلف الغانية تحقيقاً لمآربه . .

وبينما هم على ذلك سمعا صوت جلبة في الخارج ، فخرجا سريعاً وقد استلا سيفيهما ، ليجدا الخيام كلها ساقطة على من

عليها وقد رُبطت حولها حبال غليظة . . وقبل أن يفهما ما جرى فوجئا بصفوان والسمهري يصوبان إليها السيوف ويطلبان منهما الاستسلام . .

فأوثقوا الجميع وجمعوهم مع بقية الأربعين جنباً إلى جنب ، فقال عوف :

– ما الذي ستفعلونه بنا؟ هل ستسلمونا إلى الركساس ؟!

قال له حمزة :

– لو كنا نريد موتكم لما تجشمنا عناء القبض عليكم أحياء . . قنصكم كان أسهل علينا . .

قال عوف :

– أين بقيتكم ؟!

فأشار حمزة إلى من معه قائلاً :

– لا يوجد غير ما ترى يا صديقي . .

فهتف عوف باستنكار :

– خمسة يأسرون أربعين رجلاً دون قتال!! يا للسخرية!!

قالت غادة باعتراض :

– خمسة رجال وامرأة . .

سأله حمزة :

– كم رجلاً بقي في مخيكم ؟

فأجاب عوف على وجه السرعة :

– الكثير . . فوق مائتي رجل . .

فتبسم حمزة قائلا :

– أراهن أنه لا يوجد أكثر من ثلاثين رجلاً . .

فظهر الذهول على وجه عوف لوهلة قبل أن يقول :

- أنت واهم . . سيفترسك الرجال قبل أن تقترب منهم . .

فقال حمزة بدهاء :

- لسنا بحاجة لذلك . . سترى ماذا سيحصل لزعيمك الهمام . .

واقتادوا الرجال الأربعين صوب وكر قطاع الطريق ، حتى إذا ما وصلوا نادى حمزة في الحراس أن يدعوا زعيمهم لملاقاته . .

فمضى الحارس وأخبره بما جرى ، فاشتعل الزعيم غضباً وزمجر قائلاً :

- أربعون من رجالي يسقطون هكذا ؟!! من الذي تجرأ على القبض عليهم . .

قال مساعده :

- يا سيدي لابد أنهم الركساس . . فمن سيقدر على هزيمة رجالنا غيرهم ؟!

فسأل الزعيم الحارس قائلاً :

- هل يحملون الرايات الركساسية ؟!

نفى الحارس الأمر وقال :

- بل يحملون رايات خضراء . .

داعب الزعيم لحيته مفكراً ثم قال لمساعده :

- ما رأيك ؟!

- أرى أن نهرب يا سيدي . . فقد يكونوا من الركساس المتنكرين . .

قال الزعيم بعد تفكير :

- سأدعو قائدهم للحوار . . فإن كان من الركساس قتلته ، وإن كان أركادياً فسنرى ما يريد . . سأختبىء أنا في الشق ، وأنت

تحاوره ، وسأنقض عليه إن وجدته مستحقاً للموت . .

فُهرع الحارس لإحضار حمزة ، فيما تقنع الزعيم واختفى في شق الكهف مسدلاً الستار عليه ، وجاء حمزة وحده مجللاً بالكبرياء ، راز المكان بناظريه سريعاً حتى لا يلاحظه أحد . كان المجلس خالياً إلا من المساعد الذي دعا حمزة للجلوس على جذع شجرة مبطن بالجلد ، فجلس حمزة وقال :

– هل أنت قائد قطاع الطرق ؟

كان المساعد يتأمل ملامح حمزة بحيرة وشك :

– أهلا بك أيها الفارس . . بإمكانك اعتباري كذلك . . ملامحك مألوفة لدي . . هل رأيتك مسبقاً . .

فتبسم حمزة وقال :

– قطعاً لم نلتقِ مسبقاً . . هل بإمكاني مقابلة الزعيم ؟

لم تزل الحيرة تملأ قلب المساعد وملامحه . . أجاب :

– ماذا تريد منه؟ ولماذا قبضت على رجالنا وأوثقتهم هكذا؟ من أنت أيها الفارس؟ عرف بنفسك . .

فقال حمزة بثقة ونبرات بادية القوة والعنفوان :

– أنا شاب أركادي مثلك تماماً . . لا لقب لي ولا اسم ولا سمعة . . لا أنتمي لقبيلة مشهورة ولا لقطر رفيع . . خرجت مع ثلة من الرفاق رغبةً في تحرير أرضنا وطرد الغزاة . . وإعادة الأمر إلى أصحابه الأصليين بعد أن اجتالت الأحداث الحق حتى توارى في خبايا الدهر . .

ذهل المساعد من قوة كلمات حمزة ورصانتها وتأثيرها التي قُذف في قلبه ، فحانت منه نظرة إلى الزعيم المختبئ في الشق خلف حمزة ، والذي أشار له بيده ليطلب منه الإعادة ، فطلب منه إعادة ما قال ، فلما انتهى حمزة من كلماته سأله المساعد :

- وما هو الحق الذي تريده؟ ولمن ستعيده ؟!

فقال حمزة بذات القوة التي يتحدث بها :

- حق الشعب في الأرض . . وحق الحاكم في الملك . .

- وبأي شيء ستعيده أيها الفارس ؟

- بالعلم الذي ينير لنا الطريق ويطمس سواد الجاهلين . . والقوة التي تحميه من ضغائن الحاقدين . . وبالعدل الذي يمنح الحضارات الخلود . .

تأمل المساعد في معاني ما قاله حمزة قبل أن يسأله :

- وكم رجل معك ؟

قال حمزة بسرعة :

- خمسة رجال . .

فذهل المساعد والزعيم تماماً ، وخرج الأخير مغضباً من مخبئه وهو يقول بصوت كالزلزال :

- أتريد أن تقنعني أنك هزمت رجالي وأوثقتهم جميعهم بخمسة من الرجال فقط ؟!!

فالتفت إليه حمزة وتأمل وجهه المختفي خلف قناع يبرز عينيه وجبهته ، وقد كان واضحاً أثر الحرق ، وقال بتهكم :

- لقد نسيت . . كانت معنا امرأة أيضاً . .

فأشهر الزعيم سيفه قائلاً :

- يبدو أنك كاذب أيها الفارس أو أنك تسخر منا . . وأنا لا أحب الكاذبين ولا الساخرين . .

فلم يتحرك حمزة من مقعده ولم يتغير شيء من ملامحه الواثقة وشفتيه الباسمة . . قال :

- هل أنت زعيمهم ؟

فقال :

- نعم أيها اللعين . . هل لي بمعرفة اسمك قبل أن أبتر رأسك؟!

فأجابه حمزة :

- الأسماء لا تصنع أحداً أيها الزعيم . . عليك بأفعال الرجال لا أسماءهم . .

فبلغ الغضب أوجه لدى الزعيم فقال :

- الأسماء تميزنا عن بعضنا أيها المتذاكي . . وأحب أن أميز من أقتل . .

فضحك حمزة ليمعن في استفزاز الزعيم وقال :

- عليك أولاً أن تميز من تستطيع قتله أولاً قبل أن تطالب باسمه . . فعلمٌ لا ينفعك لا داعي لأن ترهق نفسك في طلبه . .

فانقض عليه الزعيم بغضب وهوى بسيفه على حمزة والذي تحرك بخفة مبتعداً عن مسار النصل ليغوص عميقاً في جذع الشجر ، وقام حمزة بعرقلة الزعيم وإشهار سيفه ووضعه على رقبته وهو مستلق على الأرض . . قال حمزة :

- أرأيت أيها الزعيم أن جسدك الضخم هذا لم يكن قادراً على هزيمة ضئيل مثلي؟

فقال الزعيم :

- منذ أن حملت السيف لم يهزمني أحدٌ كما فعلت أنت . . أرجوك أيها الفارس . . قل لي ما اسمك ؟

فقال حمزة :

- أنا حمزة . . حمزة بن القائد بتار قائد الجيوش الأركادية الراحل . .

فصاح الزعيم بغتةً :

- يا للسماء!!! أنت حمزة ؟!! أنت ابن بتار ؟!!!

وخر المساعد راكعاً في احترام وهو يكرر صيحة زعيمه ، مما جعل حمزة يرتاب من الأمر ، فأكد هويته بقوله :

- نعم هو أنا . .

فنزع الزعيم قناعه لتظهر تقاسيم وجهه المحروقة ، وقال :

- ألم تعرفني يا حمزة ؟!

فتأمل حمزة ملامحه جيداً قبل أن يقول وهو لا يكاد يصدق :

- عمي!! عمي فهد ؟!!

فهب فهد قائماً وعانق ابن أخيه بتأثر وهو يقول :

- نعم يا حمزة . . نعم يا ابن أخي . . أنا عمك فهد . . كم كبرت يا حمزة!! كم كبرت!!

- وأنت يا عماه كم تغيرت!! ما الذي جرى لك؟ وأين كنت طوال هذه السنوات ؟! ظننتك قد مت في معركة السهل الأبيض . .

- تلك قصة طويلة يا ابن أخي . . سيكون لدينا متسع من الوقت لذكرها . . ألم تعرف من هو هذا الرجل ؟!

قالها وهو يشير إلى المساعد . . فقال حمزة :

- لا أظنني رأيته من قبل . .

- إنه سوّار . . أحد الناجين أيضاً من معركة السهل الأبيض . . ومعظم رجالي هنا من الناجين في تلك المعركة . . هندس وخبور كذلك . . وغيرهم من رجال أركاديا المخلصين . .

- لا أعرف كيف أصف فرحتي بلقائكم يا عماه . . ستكونون خير معين لنا في جهادنا لتخليص أركاديا من المستعمرين . .

اعترض فهد على ذلك قائلاً :

- وكيف سنخلص الأرض ونحن سبعون رجلاً؟ وتحت أي راية سنقاتل ؟

فقال حمزة :

- سنخلصها بعزمنا يا عماه . . وسنقاتل تحت راية العزيز بن النعمان إمبراطور البلاد الشرعي . . إنه معنا الآن . .

فهتف سوار مندهشاً :

- العزيز ؟!! هل أنتم من وجده ؟!! كان معي حين أغرنا على القافلة ، قبل أن يطاردني فارس أصهب أصاب كتفي بسهم ، واستعاد الغلام . .

تبسم حمزة وهو يجيبه :

- ذلك عامر بن عمي الغضنفر . .

فقال فهد بعزم وتصميم :

- أنا معك يا ابن أخي . . وإن أسئلةً كثيرةً تزن في رأسي كخلية من الدبابير ، وأحتاج أن تجيبني عليها . .

- سيكون معنا متسع من الوقت للحديث . . هيا اجمع رجالك ولنغادر هذا المكان . . نحن في قرية قريبة من هنا ، والمكان يتسع لنا جميعاً . .

قال فهد :

- قبل أن نمضي أريدك أن تخبرني كيف جهزتم ذلك المعسكر الركساسي؟

فضحك حمزة قائلاً :

- وهذه قصة أكثر طولا من القصة الأولى . . لكن يا عمي من أراد تحقيق شيء هان عليه التعب . وبذل من وقته وجهده ما يفوق

الوصف . . وهذا ما فعلناه نحن وسكان القرية التي نعيش فيها . . بالجهد والمثابرة تتحقق الأحلام . .

فضحك فهد بدوره وقال :

– لطالما انتقدت أنا وغضنفر ما يقوم به بتار من تربيتك تربية عسكرية منذ الصغر . . الآن . . كم أود لو أنه كان على قيد الحياة لأعترف له بالنبوغ والذكاء . .

وكبح دمعة كادت أن تنزل من عينيه وهو يقول :

– هيا يا حمزة . . فلنمضِ إلى قريتك . .

ومضوا متعانقين . . مما أثار دهشة رجال العصابة وأصدقاء حمزة على السواء . والتقت غادة بأبيها وعانقته عناقاً حاراً . . بكت السنين التي فرقت بينهما ، والشقاء الذي تمخض عن ذاك الفراق . . وبكى هو أيضاً حناناً لابنته التي يحبها أكثر من أي شيء آخر في هذه الحياة . .

وفتح التاريخ صفحة جديدة يعلم أنها ستكتب بحروف من نور . . وأن السواد هذه المرة لن يدنس سطورها . .

***

# الفصل الثاني:
# التحام الشهب.. وثوران النيازك

«بدأ كل شيء عندما أمرنا بتار بالمسير غرباً وكأننا في سبيلنا إلى دحر ثورة وهمية أقيمت هنالك كانت من تدبير بتار أيضاً.. والحقيقة أننا كنا في طريقنا لشرائنا سفناً سفن ومراكب من أجل أن نبحر في النهر وننزل من خلف أعدائنا الركساس، فيما يتوجه أخي الغضنفر إلى الغرب، والدوارن من خلف تلال أوكاس، بشكل واضح وصريح كي يلفت انتباه الركساسيين عنا..

وبدا أن الخطة تسير على ما يرام.. فصدحنا بأهازيج النصر، ورددنا أغاني الفرح ابتهاجاً وحماساً، ولم يبق للوصول إلى نقطة النزول إلا عبور مجرى العنكبوت، والذي يجري النهر فيه بين واديين عظيمين ويتفرع منه ثمانية مجاري..

حينها فوجئنا بالسهام النارية تهوي علينا هوي الشهب من كل صوب ومكان، فاحترقت أشرعة سفننا، وبدأت النار بأكل خشب المراكب، وقفز الرجال في النهر هروباً بحياتهم.. ولم يكن ذلك كل شيء..

بل انقضت علينا سفن الأعداء من التفرعات الثمانية، وراحت تقنص رجالنا واحداً تلو الآخر.. فمن نجا من الغرق والحرق مات بنصال الركساسيين الملاعين..

كان من الواضح جداً أنهم يعلمون بتحركاتنا ، وأن وغداً زنيماً قد سرب لهم خطة بتار المحكمة ، ولا يمكن أن يكون هذا الوغد إلا عدنان أو زيدون ، فهما وبتار والإمبراطور كانوا الوحيدين الذين يعلمون بالخطة . . وإذ هلك عدنان في كوبي فقد كفينا شره إن كان هو الخائن ، وإن كان بريئاً فلا شك أن ذلك الخائن الزنيم هو الوزير زيدون . وكم أستغرب أن يخون شقيق الإمبراطورة وصديق الإمبراطور بهذه البساطة . . الأيام كفيلة بفضح الطغاة . .

صمدت على سفينتي وحدي أقاتل رغم الجراح الكثيرة التي أصبت بها ، حتى سقط الصاري وكاد أن يفلق رأسي لولا أن فقدت توازني وارتميت بعيداً عنه ، لكن الشراع المحترق غطاني بكبره ، فحرق جسدي كله كما ترون ، ودفعتني غريزة البقاء لاختراق هالة الموت التي تتربص بي ، فقزت من المركب لا أعرف كيف ، وفقدت وعيي ولم أستفق إلا في هزيع متأخر من الليل ، فاقد الإحساس بالزمان والمكان ، كل ما أدركه أنني على قيد الحياة ، وأنني ملقى على ساحل من السواحل . .

همت على وجهي ردحاً من الوقت حتى اكتشفت أنني في الساحل الشمالي للنهر الأبيض ، وأويت إلى قرية استضافني أهلها بكل كرم وطيبة . . ومع مرور الوقت اكتشفت ما أصاب البلاد . . سقوط سيسليا . . وموت أخي بتار . . وموت الإمبراطور . . وخيانة كبار القادة الأركاديين . . فكأن السماء قد وقعت على رأسي ، وتمنيت لوهلة أن الموت قد أدركني ، وأن العمر لم يمتد بي لأرى كل هذا الذل يتلبسني ولا أستطيع خلعه . .

تلك القرية الصغيرة غدت مأوى للناجين من جنود أركاديا ممن منحتهم السماء فرصةً للبقاء ، وللمرة الأولى أدركت ما حل بي من

إصابات ، ولم أكن الوحيد ، فأغلبية الناجين كانوا مصابين إصابات تتراوح ما بين الجراح العميقة والندب الدائمة والأعضاء المبتورة ، وفوق ذلك كلنا كنا نشترك بالشعور باليأس والإحباط . . قد خسرنا كل شيء . . وكان المنتصر الوحيد في هذه المعركة هو اليأس!!

لقد كان مذاق الهزيمة مرارةً في حلوقنا . . ويزداد مراً في حلوق الرجال الذين وهبوا عمرهم للقتال والنصر . . لأولئك الذين بذلوا كل شيء في حياتهم ، وتخلوا عن كل غالٍ لديهم من أجل حماية بلادهم . . صدقوني إن الهزيمة تكون أقسى على أولئك الذين يقفون في الصف الأمامي ، يحملون سيوفهم في يد وفي الأخرى يحملون أرواحهم . . يقتلون بالسيف العدو ، ويذودون بأرواحهم عن ما يؤمنون به . .

وازداد الأمر سوءاً حين بلغتنا الأخبار التي تتهم زوراً أخي بتار بالخيانة ، وأنه هو الجاسوس الذي باع البلاد للأركاديين ، وتهامس أهل القرية بهذا الأمر ، وأخذ بعض الشبان يلمزون أخي بكلمات بذيئة ، معرضين بعلاقته بالإمبراطورة نور ، حينها نفدت مني قدرة الاحتمال ، فقمت بعمل شنيع . .

سألتُه :

– ما الذي قمت به ؟

قال :

– قتلت جميع أهل القرية بمساعدة الناجين من الجيش ، ولم نبق على أحد أبداً . . وبعد ذلك هربنا من القرية إلى الغابات التي تعرفون ، وأنشأنا هذه العصابة ، قاطعين الطريق على قوافل المسافرين وأرتال الجنود العابرة بالجوار من أجل التكسب وإغاظة العدو ، وكان ذلك أقصى ما نستطيع فعله خلال ما مضى . . حتى

ظهرتَ أنت يا حمزة ، مطالباً بحق جلالة الإمبراطور العزيز بتبوأ عرش أركاديا ، وجمعتنا لنحارب تحت لواء واحد مجدداً . . »

تلك قصة فهد شقيق القائد البتار كما رواها لنا بلسانه . . لم تكن قصة فريدة من نوعها ، بل كثيرون قد أصابهم مثل الذي أصابه وربما أكثر ، وليس السمهري عنكم ببعيد . .

لطالما قال لي أبي إن هذه الدنيا دارٌ تتوالى فيها المصائب على الإنسان ، وهذه المصائب تكون بمثابة حجر الشحذ لنصل السيف ، فإما أن تجعله أمضى . . وإما أن تكسره فلا يعود ذا فائدة .

وانتشر ذكر حمزة بن البتار ، وتفشى بين الناس ذكر أخلاقه الرفيعة ، وشجاعته الفريدة ، وحسن تعامله مع القرويين ، وإشاعته للعدل والمساواة ، وحرصه على الفقراء والمساكين ، وإغداقه عليهم مما يحصله من خراج الحقول .

فغدت قرية تيدبا مهوى لكل الراغبين في القتال معه ، والمؤمنين برسالته ذات القداسة السماوية ، وأنه يعمل لإعادة العزيز لعرشه إمبراطوراً لأركاديا ، وتكون مجتمع تيدبا كأحسن ما يكون إنتاجاً وتنوعاً ، فازدهرت التجارة والصناعة ، وتكاثر الخراج وتضاعف ، وقلت الجريمة بل عدمت تقريباً .

ووفد بعض التجار ليدعموا حمزة ورجاله بالمال الكافي لتجهيزهم ، وأوقف معظم المزارعين حصصاً من خراج أراضيهم للجيش عن طيب خاطر ، وبادر الحدادون بصناعة الأسلحة بأنواعها ، وطفق النساء يغزلن ملابس الحرب للرجال . . وقام أرباب الخيل بوهب الجيش أجود خيلهم بلا مقابل سوى الوعد بالحرية والنصر ، وعودة العدل إلى أرض أركاديا المكلومة . .

وكان حمزة يباشر تدريب الرجال بنفسه ، يعلمهم أهمية الرمي

وشدة أهمية السرعة والمباغتة ، قيل قديماً : القوة في الرمي ، ولذلك كان حريصاً على تدريبهم هذا . . وقد كان يُعلمهم تقنية رمي السهام والخيل تنطلق بأقصى سرعتها ، حيث يستغلون الثانية التي ترتفع فيها قوائم الجياد الأربعة عن الأرض ، حينها يكون الرمي في أفضل حالاته . . كما كان يدربهم على إصابة أهداف صغيرة جداً بالكاد ترى من بعيد ، وكانوا ينجحون في ذلك تدريجياً . .

وقد كان السمهري يشرف على صناعة الأسلحة ، وخصوصاً القسي والسهام ، أدخل عليها تعديلات معينة تجعلها تصيب من مسافة أبعد ، بشكل أدق وأكثر قوة . .

وصفوان وعامر كانا يهتمان في تدريب الخيل وإعدادها للكر والفر ، وزيادة لياقتها من أجل طول القتال والسفر ، كما كانا حريصين على تضميرها بالشكل اللازم لجعلها سريعة كالريح ، مطواعة في أيدي قادتها . .

كانت تيدبا باختصار قاعدة عسكرية متكاملة لم تشهد البلاد مثلها في تلك الحقبة . .

وقام حمزة وفهد وعامر بزيارة مدينة راهوا والتي بات يحكمها هاشم بن المستشار عدنان ، يسانده في ذلك غضنفر وأخويه عرندس ونبراس . فكان اللقاء حميماً جداً بين فهد وغضنفر ، انهمرت فيه الدموع ، وكادت الأضلع أن تتكسر من حميمية العناق . .

الغرض من الزيارة كان التحالف مع راهوا مجدداً في الحرب ضد الركساسين ، لكن هاشم امتنع عن المساندة العسكرية نظراً للهدنة الموقعة بينه وبين شاكان ، فتقبل حمزة ذلك وتفهمه ، وطلب من هاشم فقط أن يسمح له باصطحاب عمه الغضنفر ، والذي سعد بذلك كثيراً . .

لنبتعد قليلاً عن تيدبا ولنلقي الضوء على أحداث أخرى حصلت في أماكن متفرقة من البلاد ، حيث أخبرتكم سابقاً أن شاكان أمر بمحاصرة روفينيا حيث يختبئ نصار ومن معه من ثوار ، والحق أنهم كانوا صامدين بشكل يدعو للإعجاب ، وفي كل المناوشات التي اشتبكوا فيها مع الجيش الركساسي كانوا خصماً عنيداً ، محقيقين عدداً من الانتصارات والتي لم تكن كافية لكسر عناد الركساسيين وإجبارهم على الانسحاب والتقهقر . .

حتى حصل حدث زلزل البلدين المتناحرين تماماً . .

صدر مرسوم إمبراطوري بعزل شاكان عن ولاية العهد ، وتعيين ليون عوضاً عنه . . فجُنّ جنون الأمير شاكان وكاد أن يفتك بليون لولا أن حال رجاله بينه وبين ذلك ، فركب في معية تيهاد وزيدون وغادر إلى العاصمة من أجل مباحثة والده في هذا الشأن ، وهذه المرة لم يذهب وحده ، بل اصطحب عدداً من القوات معه تحسباً لردة فعل والده العنيد ، بما دعاه لسحب الجيش من روفينيا ، وأوعز للأرغل أن يحاصر روفينيا وألا يدع نصار ومن معه يخرجون أبداً إلا جثثاً هامدة .

ما الذي حصل في عاصمة ركساس؟ وكيف غير الإمبراطور العتيد وصيته ، واستطاع إحداث هذه البلبلة في ركساس وأركاديا . . تلك قصة فريدة . . تتلخص في كلمة واحدة وهي : وردة . . وردة بنت البتار . .

لقد تقربت وردة من الأميرة ريفالا حتى غدت سميرتها الدائمة ، وتقربت لها بذكائها الفطري وروحها الجذابة . فكانت توحي لها بما تريد بطرق غير مباشرة . .

وكما تعلمون فإن منزلة ريفالا لا تعادلها منزلة لدى الإمبراطور العجوز ، والذي كان يحبها كابنة لم تولد له ، وقد كانت ريفالا

تحمل حقداً كبيراً بسبب إهماله لها ، وتفضيله عليها نور ملكة أركاديا السابقة . . فقد قذفت وردة في روعها أن شاكان لم يقم بهذه الحرب إلا ليتزوج نور . . مما جعلها تفكر في الانتقام منه بأي طريقة ممكنة ، وإثر إيحاءات وردة المتكررة ، قامت ريفالا بالإيعاز إلى الإمبراطور ليعزل شاكان وأن يجعله قائداً للجيش فقط ، فهو أقدر على ذلك من ليون ، والأخير قادر على الحكم بشكل أفضل ، فهو محب للسلام والفنون والعلوم والحياة الرغيدة ، أما شاكان فهو على الحرب أقدر ، وأن السلام لن يعرف طريقه إلى هذين البلدين طالما كان ملكاً ، ومما لا شك فيه أنه سيستأثر بالملك وقيادة الجيش ، ولن يدع لليون أي دور في البلاد . .

كما ركزت على الجوانب التي كان شاكان يتحدى فيها سلطة والده ، ضارباً عرض الحائط بأوامره ومراسيمه ، ناسجة في ذلك قصصاً لا أصل لها ، روتها على لسان قاداته تفيد بمجموعها برغبة شاكان في الاستئثار في الحكم وحده دون ليون ، مؤكدة على ذلك بتقريبه الأركاديين وإبعاد الركساسيين ، والذي كانت نتيجته تلك الثورة العارمة التي قامت وأوقعت البلاد في الفوضى والتخبط ، ولو أنه كان قد قمعهم كما ينبغي لأمثالهم لما حصل كل هذا . . قالت له بوضوح : إن شاكان يسعى لتكوين مملكته الخاصة في أركاديا ، والتي ستناوىء نفوذ ركساس في العالم ، وإلا فما معنى تقريبه زيدون ، وتعيين حكام كانوا في الأصل من رجالات النعمان إمبراطور أركاديا السابق . . وبعد محاولات حثيثة منها وحيل وأساليب متنوعة مباشرة وغير مباشرة اقتنع الملك ، وأصدر مرسومه الداعي لتنحية شاكان ، وتولية ليون ولاية العهد . . ومن هنا تغير مصير البلاد تماما . .

وعندما تأكد حمزة بمغادرة شاكان إلى عاصمة ركساس

مصطحباً عشرين ألف جندي تركهم في أقصى شمال أركاديا، حيث الحصون الثلاثة التي أنشأها والده، وعلم بمحاصرة الناناكروبيين لروفينيا بجيش قوامه خمسة آلاف جندي، قرر الهجوم عليهم وتخليص نصار ومن معه من المرابطين في المدينة، وكان قوامهم ألفا جندي فقط.. لقد كان حريصا على الوحدة من أجل الانتصار على العدو المشترك..

أذكر أن السمهري قال له :

- كيف ستهزم جيش الناناكروبيين بجيشك الذي لم يتجاوز خمسمائة مقاتل ؟

فقال :

- أنت تعلم أن الكثرة ليست بالضرورة سبب الانتصار.. أحياناً تكون هي سبب الهزيمة.. ألم يكن الحكيم يقول : إن الدهاء كل الدهاء في أن تحول ميزة خصمك إلى نقطة ضعف؟ نحن سنفعل الشيء ذاته مع الناناكروبيين.. وسننتصر..

واجتمع حمزة بشيهانة وصفوان، وسأل عن الأرغل فقال :

- الأرغل رجل وضيع يا حمزة.. مغرور متسرع عصبي المزاج، بإمكاننا استفزازه ببساطة ليرتكب أشنع الحماقات.. تلك نقطة ضعفه الكبرى..

فسكت حمزة مفكراً ثم التفت إلى شيهانة قائلاً :

- ما رأيك يا شيهانة؟ هل نستطيع الانتصار على ناناكروبا ؟

قالت :

- بالاستفادة من حماقة العدو، وتضاريس المنطقة، ومهارات قادتنا، والاعتماد على عقلية حليفنا.. سنحقق انتصاراً ساحقاً ولن نبقي على أحد منهم..

– كيف ؟

– بدءاً سنقسم جيشنا إلى خمسة كتائب ، كل كتيبة مؤلفة من مائة رجل ، وسيكون القادة هم أنت يا حمزة ، وصفوان ، وعمك فهد ، وأسامة ، وسوار . .

وأشارت إلى خارطة جلدية صغيرة أمامها تمثل المنطقة بين تيدبا وروفينيا وأردفت :

– وبعد ذلك ستتكفل الطبيعة بكل شيء . .

ما الذي حدث بعد ذلك؟ وكيف استفاد ابن البتار مما جرى؟ وما هي خطة شيهانة لتحرير أركاديا؟ كيف استطاع التأليف بين الشهب والنيازك وخلق شمس من كرامة . . تضيء دلجة الذل . . وتبعثر أشباح الآلام . .

***

الخـيل الضـامـرة جـسـور للانتـصـار ، أو هاوية إلى الموت والاندحار . . الخيل سفائن الحرب ومناجيق العِدا . . بوابات الريح وقاصفات الرعد . . تُدرك جيداً أهداف فرسانها . . تكتسب منهم الدناءة أو الرفعة . . تطلق صهيلها فتضطرب النسائم من حولها . . تتنبأ بجلالة ما سيحدث بعد ذلك الصهيل . .

وفي هذا الصباح استشعرت الخيل عزائم فرسانها . . فراحت تضرب الأرض خبباً في إيقاع طروب ، يمزج دقات القلوب بخفاقات الحماسة ، ويجعل الدم ساخناً ، يدفء الأجساد وينفر العضلات ، ويحفز السواعد القابضة على السيوف والتروس . .

كتائب حمزة تسير جنباً إلى جنب . . ترفع رايات خضراء . . ثلاثة ألوية ينضوي تحتها ثلاثمائة فارس ، كتيبة حمزة في المنتصف حاملاً حربة والده ، وفي الميمنة فهد ومعه عوف ، وفي الميسرة أسامة . . جميعهم متعطشون لملاقاة العدو الناناكروبي ، هؤلاء الذي باعوا البلاد عشية سقوط سيسليا ، مما أدى لموت النعمان والبتار قائدي البلاد في جهادها ضد الركساس . .

قطعوا الوادي الفاصل بين تيدبا وروفينيا ليلاً . . وفي الصباح أطلقوا الأعنة لخيلهم ، ينهبون الأرض صوب أسوار المدينة حيث الناناكروبيون يحاصرونها منذ شهر ، انتظاراً لرضوخهم حتى يفنوهم عن بكرة أبيهم ، فاقتربوا منها وكأنهم يسيرون على شعاع الشمس . .

وحين لاح العدو لمقاتلي حمزة أمر حامل الراية ليشير بها يمنة ويسرة ، فأخرج الفرسان قسيهم وألقموها السهام ، واتخذوا التشكيل المتبع حسب خطة حمزة .

وعندما انتبه الناناكروبيون للمهاجمين من الخلف ، أطلقوا النفير واتخذوا تشكيلاتهم ، لكنهم فوجئوا بالسهام تنطلق عليهم ، ولم يتصوروا إمكانية أن تبلغهم من هذه المسافة البعيدة ، لكن المفاجأة أنها أصابتهم بطريقة دقيقة للغاية ، خصوصاً أنهم لم يستعدوا لها كما يجب . .

وابتعد الصف الأول من الفرسان الرماة ، ليتيحوا للصف الثاني الإطلاق ، واتخذوا تشكيليهم سريعاً معدّين السهام لجولة أخرى . .

وهكذا انهالت السهام الأركادية على الناناكروبين بخفة وسرعة ، كانت السهام تصيب أهدافها بدقة رغم المسافة البعيدة وسرعة الخيل الراكضة صوب العدو ، فأسقطت المئات منهم في ثلاث جولات ، ولم يخب منها إلا القليل . .

وعندما أصبح الالتحام وشيكاً ، أشهر الأركاديون سيوفهم ورماحهم ، واشتبكوا مع مؤخرة جيش الأرغل في قتال محموم ، تجلت فيه أمارات القوة والصلابة لدى رجال حمزة ، كانوا يقتلون العدو بسرعة شديدة ، غير متيحين لهم فرصة الرد أو المقاومة ، ورغم قلة عددهم إلا أنهم أثخنوا قتلاً وفتكاً . .

كان الثأر يحضهم على الاستبسال ، وآيات النصر التي تتلوها سيوفهم تشحن قلوبهم بالقوة والعزيمة . . كانوا أسوداً حقيقية يقاتلون طغمة من الضباع . . كانوا شهباً ترجم الأعادي ولا ترحم فيهم غاصباً ولا معتدياً . .

وحين استفاق الأرغل من مفاجأة حمزة أرسل أوامره لميمنة

وميسرة الجيش بالالتفاف على الأركاديين من الخلف وتطويقهم حتى يقتلوهم جميعاً ، فيما أمر القلبَ بمساندة المؤخرة وتدعيمها بالرجال والسلاح . .

وانتبه حمزة لتحركات جناحي العدو ، فأمر رجاله بالانسحاب الفوري ، وبالفعل انسحب الأركاديون وهربوا بسرعة وخفة تناهز خفة هجومهم ، فلحق بهم فرسان ناناكروبا ، وأمر الأرغل المؤخرة والجناحين باللحاق بهم وقتلهم عن بكرة أبيهم . .

واستمرت المطاردة حتى بلغوا الوادي ، فسلكه فرسان حمزة بسرعة عالية ، ولما دخله جنود ناناكروبا وتحاشروا فيه فوجئوا بالسهام النارية تنثال عليهم من جانبي الوادي . . كان سوار ومن معه من رجال مبثوثون على طول الضفتين ، يرمون العدو بالسهام والنبال وكرات النار والصخور ، حتى هلك منهم شيء كثير . . وعندما حاولوا التراجع والعودة إلى روفينيا فوجئوا بكتيبة صفوان تنتظرهم بمدخل الوادي لتدك مقدمتهم دكاً . . واستمرت السهام النارية تقتنص الناناكروبين المحبوسين بين ضفتي الوادي .

وحينما حاول الناجون النفاذ من الطرف الآخر من الوادي فوجئوا بحمزة ومن معه من فرسان ينقضون عليهم بكل قوة وعزم . . وما هي إلا سويعات قليلة ويفنى جيش المطاردين عن بكرة أبيهم ، ويصبح الوادي مقبرة جماعية لثلاثة آلاف جندي ناناكروبي ، وشاهداً على نصر استراتيجي رهيب ، حققه خمسمائة جندي فقط . . بقيادة حمزة بن البتار ، ومن معه من رجال أركاديا المخلصين . .

وعندما أخذ الرجال يهتفون بأهازيج النصر ، نهرهم عن ذلك حمزة ، وهتف بهم :

- لم نحقق النصر بعد يا رجال . . هيا بنا لنستأصل الخونة عن بكرة أبيهم . . من كان يريد النصر لأركاديا فليحق بي . .

وانطلق بفرسانه صوب روفينيا ، يتبعه كل الجنود الذين معه . وهناك بالمعسكر الناناكروبي ، بلغ الأرغل ما حاق بجيشه ، فأسقط في يده ، وشعر بالهلع مما أصابه ، وأمر رجاله بالانسحاب صوب سيسليا حيث مقرهم الدائم ، لكن نصار لم يمهله ، إذ أنه أطلق رجاله ليلتحموا بالجيش المضطرب ، ويمعنوا فيهم الذبح والتقتيل ، فتخبطت الصفوف ، وفر الجنود ، وهرب الأرغل ومن معه من رجال ، ليفاجئوا بقوات حمزة تقترب إليهم حثيثاً ، فلم يملكوا إلا الاستسلام لهم . فأمر حمزة رجاله بكف أيديهم عن المستسلمين ، وبدأوا بتقييدهم وحصرهم ، لكن نصار ظل يقاتل ويمعن في التقتيل رغم استسلام رجال الأرغل . .

فمضى إليه حمزة من فوره حاملاً رايته وحربة أبيه يصحبه عامر وفهد وأسامة ، ونادى بين صفوف المتمردين :

- باسم أرض أركاديا أدعوكم لأن تتوقفوا عن القتال . . أنا حمزة بن البتار . . أين قائدكم؟ أريد الحديث معه . .

فبرز له نصار بين زيدون على جواده الأشهب وقال :

- ماذا تريد يا ابن البتار؟ كان والدك رجلاً عظيماً . . فلماذا تطالبنا بالتوقف الآن ؟! هؤلاء هم أعداؤنا يا حمزة . . قتلوا أهالينا ، ويتموا أبناءنا ، ولم يبقوا على عهد ولا ذمة . . أم أنك قد تخاذلت عن طلب دم أبيك؟ أليسوا هم من خانو وسلموا سيسليا لجيش شاكان ؟!

فأجابه حمزة :

- كل نصر لا ضرورة له تحققه على عدوك هو جريمة محضة . .

نحن هنا لا نقاتل طلباً للثأر يا نصار . . نحن نطالب بأرضنا فقط . . نستعيد بلادنا التي سلبها الأعداء ، ويكفي أنهم قد استسلموا ولن يعودوا للقتال أبداً . . فزعيمهم رهن أيدينا الآن . .

توقف نصار وأشار لجنوده بكف أسلحتهم ، وراز حمزة بعينيه ملياً ، واقترب منه حتى أوشك رأسا جواديهما على التلاصق مما حدا أسامة وفهد للاقتراب خشية على قائدهم ، لكنه أشار إليهما بالتوقف ، في حين قال نصار :

- وماذا تريد الآن يا حمزة؟ ولأي شيء جئت تقاتل هنا ؟

فأجابه حمزة بنبراته الواثقة :

- جئت لإنقاذ أهلي وإخواني من مجزرة كادت أن تحيق بهم . . جئت مطالباً بك حليفاً في جهادنا المشترك . . جئت للم شمل هذه الأرض التي مزقها العدو ، وغرس فيها أشواك البغض والحقد .

قال نصار :

- وهل سنقاتل الركساسين ؟

- سنقاتلهم حتى نطردهم إلى بلادهم خائبين . . ونبقي أرضنا مهداً للحضارة والسلام كما كانت ، وكما ستبقى أبد الدهر . .

- وهل ستحاكم الخونة الذين باعوا بلادنا ؟

- سيلقون العدل الذي يستحقون . . فإما الموت وإما المن والفداء . .

سكت نصار ملياً يتفكر فيما قاله حمزة . . لم يستطع منع نفسه من الإعجاب به ، فكأنه كان يرى البتار يتحدث أمامه ، ورغم صغر سنه ويفاعته ، إلا أنه كان يتحدث بكلام غاية في الرصانة والقوة . . قال :

- لن أبايعك يا حمزة . . إن بايعت فسأبايع العزيز . .

قال حمزة :

- ولا شيء غير ذلك أريد . .

فترجل نصار وجثى تحت أقدام حمزة قائلاً :

- لم يمت البتار . . ها أنا أرى روحه تجول في جسدك وكلماتك . .

فترجل حمزة بدوره وأقام نصار وعانقه قائلاً :

- نعم الفارس أنت يا نصار . . لقد ثبتّ على مبدئك رغم ما واجهت . . الرجال الحقيقون هم أولئك الذين يثبتون على الحق ولا يخافون فيه لومة لائم ، ومهما أصابهم في سبيله يبقون مستمسكين به لا متخاذلين ولا غالين . .

وفي الطرف الآخر ، حيث كان صفوان يبحث بين الأسرى ، حتى وجد الأرغل ، فجذبه من قميصه حتى جعله وسط الأسرى ، وحل وثاقه قبل أن يبصق في وجهه قائلاً :

- ها قد وقعت أيها النذل الزنيم . .

فابتسم الأرغل مزيحاً البصاق عن وجهه :

- ما زلت على ضلالك يا ابن أخي ؟!

فقال صفوان :

- الحفاظ على العهود ليس ضلالاً أيها الوغد . . الخيانة بشاعة لا يقبلها ذو فطرة سليمة . .

فاحتد الأرغل وهتف :

- ألم يقتل بتار والدك بأمر النعمان ؟!

فأجابه صفوان :

- قتله مدافعاً عن ما يراه حقاً . . قتله في حرب صريحة . .

مقبلاً لا مدبراً . . لم يخنه ولم ينقض له عهداً أو ذمة . . ولم يوقعه في حيل قذرة كما فعلت أنت أيها القميء . .

- كفاك شتماً يا صفوان . . أنا عمك رغم كل شيء . . ثم إن الخديعة في الحرب جائزة كما تعلم . . لم نقم بشيء مستنكر أبداً . .

فصاح صفوان غضباً :

- عن أي مُثل تتحدث يا هذا ؟! لقد جاءنا البتار إلى أرضنا طالباً مساعدتنا . . لم يجبرنا على القتال معه في سبيل عدو مشترك . . كان بإمكانك حينها أن ترده ولا تقبل معاونته ، ومن ثم الإغارة عليه من الخلف عندما ينشغل بالركساس ، لكن آثرت الخيانة لدناءة نفسك ، وأجبرت قومك الشرفاء عليها ، مدعياً هذه المثل الزائفة ، وديدان الخسة ترعى في جسدك الآسن . .

وبضربة واحدة أطار رقبته على مرأى من جميع الأسرى المبهورين . . وبعد أن هدأ صفوان قليلاً ، هتف بهم :

- ها قد قتلت زعيمكم يا أبناء ناناكروبا . . فماذا أنتم فاعلون؟!

لفهم الصمت جميعاً ، وصفوان يكرر سؤاله متأججاً كحمم البراكين . . حتى قال أحدهم :

- يا صفوان . . نحن لم نكن نعي ما قلته الآن . . كنا نتبع قائدنا واثقين بأنه لن يقودنا إلا لمصلحتنا . . لقد أزلت الغشاوة عن أعيننا فأبصرنا الحق من جديد . . لذلك فأنا أبايعك أميراً علينا . . . فأنت ابن زعيمنا السابق ، وابن أخ زعيمنا الحالي ، ومخلصنا من رق الذل والاستعباد . .

وبايعه الباقون بصوت رجل واحد ، فقبل منهم ، وحذرهم من

ارتكاب خيانة جديدة ، وإلا فسيكون العقاب وخيماً هذه المرة . .

وحين اجتمع حمزة برجاله بارك هذا التحالف مع النناكروبيين ، وأمر صفوان بقيادة الخلص منهم بالإضافة إلى كتيبته وكتيبة سوار ، والسير إلى ناناكروبا وسيسليا ، وتجهيز الأخيرة لتصبح قاعدة لجيش البلاد . .

وقضى الرجال ليلتهم في روفينيا يحتفلون بالنصر غناءً ورقصا ، وولائم وشرب ، حتى إذا ما شق الصباح دجى الليل ، قفلوا عائدين إلى تيدبا ، وترك نصار مع رجاله في روفينيا . .

وصلوا القرية الهاجعة مع غروب الشمس ، كان الهدوء يكتنف المدينة على غير عادتها ، مما بعث حمزة ليقول لرفيقه أسامة :

– الهدوء مريب . . توقعت أنهم سيستقبلونا بأهازيج النصر كالعادة . .

– لعلهم لم ينتبهوا لمقدمنا يا أخي . .

فقال حمزة في ريبة :

– ربما . . لكن فلنكن على حذر . .

ومرقوا إلى شوارع القرية الضيقة ولا أثر لقروي على الإطلاق ، بدت القرية كأنها مقبرة ، أو مدينة أشباح . . لا نور . . لا ضوء . . لا أثر لأحد . .

حتى إذا ما توسطوا شوارع القرية ، سمعوا أمراً بالهجوم عليهم ، وانهمرت السهام كالمطر من كل حدب وصوب ، فصاح حمزة بأعلى صوته :

– إنه كمين . . احذروا يا رجال . .

وانطلق حمزة مع الملك يرافقه أسامة وفهد ومن معهم من رجال يقاتلون الركاسيين المنقضين كالشياطين من كل الجهات ،

وفي طرف آخر عوف ومن معه من رجال العصابة يقاتلون جهدهما، صامدين ما استطاعوا..

ولاحت الهزيمة بشكلها القبيح تحدق بالرجال بأعين من نار، كانت أعداد الركساسيين تفوق الأركاديين بكثير، الإرهاق والمباغتة كانتا من نصيبهم فسقطوا ضحية التخبط والاضطراب، وأوشكوا جميعا على الموت، ولم يعد ثمة طريق للخلاص..

واستبسل حمزة وبذل كل طاقته محاولاً النجاة رغم كل الإصابات التي لحقته من جميع الجهات، مستذكراً والده الذي صمد أمام مفزرة العدو في غلوريا حتى هزمهم جميعاً وأفناهم..

هو الآن مثله يقاتل في وضع عصيب.. أقرب للموت منه إلى الحياة.. هل سيكون على قدر ثقة والده؟ هل سيضيع جهود الحكيم في تربيته؟

تذكر مقولة للحكيم قال له فيها: «إذا انتصر اليأس عليك فقد خسرت المعركة».. لذا لن يسمح لليأس بالولوج إلى قلبه، ولن يقيم له راية ولا صواناً.. سيهزمه وينفذ من هذا الموقف العصيب..

سقط جواده أرضاً إثر إصابته بسهم من العدو، وأصيبت قدمه وتجرحت يداه فأخذ يعرج فاراً بحياته.. ومن ورائه أسامة وفهد وبعض الرجال يستميتون في القتال فإما الموت وإما النجاة..

قاتلوا حتى نفذوا إلى سور القرية، فهتف فهد:

- من هنا.. سنتسلق السور ونهرب..

ورغم ضخامة جسمه وطول قامته استطاع فهد تسلق السور بخفة ومهارة، وتبعه في ذلك أسامة وبعض الرجال، ورفع حمزة.. وحين أراد حمزة التسلق لم يستطع، حاول مراراً فلم يقدر، رفع

الحربة كي يجذبوه بها لكنها كنت زلقة بالدماء شأن أيديهم جميعاً ، فألقى الحربة إليهم وأمرهم بتسليمها لشيهانة ، واستل سيفه مواجهاً العدو ، وقرر أن يموت مقاتلاً . .

ولاح لفهد بصيص من الذكريات المتطايرة . . ذكريات شقيقه بتار . . طفولتهما في نيروديس . . خيبته حين ترك الحجاج يموت في غلوريا . . هزيمة السهل الأبيض . . وحرقة النار . . ومرارة الخسارة . . وتنكس الرايات . . كان يشعر بأن النصر منعقد بناصية هذا الغلام . . وأن مراكب البلاد سيتغرق إن لم ينجو . .

فما كان منه إلا أن قفز من أعلى السور وأردى بعض المهاجمين ، وحمل حمزة على عاتقه ، وهو يقاتل المهاجمين بيده الأخرى ، ورفعه حتى دنا منه الرجال أعلى السور ، وحاولوا جذبه من يديه ، حتى تمكنوا من ذلك ، ووفد الأعداء وملؤوا المكان ، وتكالبوا على فهد الذي ظل يهتف :

– اذهبوا بعيداً . . النصر أمانة في أعناقكم . . اهتم بابنتي يا حمزة . . اهتم بها جيداً . . وأعد الحق لأهله . .

وظل يهتف ويقاتل حتى خر صريعاً بأيدي الأعداء . . وظل حمزة يهتف باسم عمه من وراء السور ، ورجاله يطالبونه بالهرب قبل حضور الركساس ، إلا أن حمزة أبى التحرك ، وظل يهتف باسم عمه ، فما كان من أسامة إلا أن اقترب منه وجذبه بعنف وصاح به :

– ليس الآن يا حمزة . . ليس الآن . . تذكر والدك الذي لم ينكسر في أقسى لحظات حياته . . هيا لنكمل طريقنا . . لن نستسلم . .

وسمعوا صوت خيل تقترب فعلموا أنه الطلب ، فأمر أسامة

الرجال بحمل حمزة بعيداً ، وثبت معه قليل منهم ليصدوا الأعداء . والتفت حمزة إلى أسامة يقاتل وهو في استماتة ولم يملك له غوثاً . . فلمعت دمعة في عينيه ، ومضى محمولاً مع رجاله . .

في حين تجاوز الركساسيون أسامة ومن معه ليلاحقوا حمزة ورجاله ، وكذلك قاموا بالدفاع عن حمزة ، حتى ظهر حصان قادم من الغرب ، تعرفوا فارسته إذ لم تكن إلا شيهانة ، أتت تهتف باسم حمزة بأعلى صوتها ، فتقدم منها الرجال ، وحملوا حمزة حتى طرحوه على السرج أمامها ، ومضوا يقاتلون الركساسيين ، وابتعدت شيهانة بأقصى سرعتها . .

ورأى أسامة ذلك المنظر . . فشعر بغصة في حلقه . . هزيمة أخرى . . شعر بها أشد من تلك التي يعاني منها . . لكنه رضي بالمقسوم . . وقاتل حتى سقط مع بقية الرجال . .

وبكت السماء تلك الليلة . . وتحول الانتصار السعيد إلى هزيمة مجددة . . تهاوت الشهب . . وتناثرت النيازك . . وظلت الشمس غائبة . . تنتظر شروقاً . . لا يجيء . .

***

# الفصل الثالث:
# الشمس تُشرق من نيروديس

مجدداً تقع أركاديا في فخ الفوضى . . وحين نظن أن النصر قد تبسم تباغتنا عبسة الهزيمة . . وكلما ظننا أن الدماء القانية ستتوقف عن الجريان . . تضخ عروق الخيانة مزيداً منها . . حتى تشبعت الأرض بملحها . . وغدا الأحمر علامة فارقة في جبين أركاديا . . مزيحاً الخضرة عن الذاكرة ملموسها ومحسوسها . .

تأتي الهزيمة كالمرض الذي يضرب الجسد الصحيح . . لتخبره أن شيئاً خاطئاً يدور في الخفاء . . ثمة عطب يستفحل في الجزء المظلم من إدراك مناعاتك . . حينها يكون ذلك المرض إما موت محقق . . أو نذير يجعلك تتدارك أمرك لتعالجه أو تستأصله . .

الهزيمة في الحقيقة تكون أحياناً حاجةً لأولئك الذين أدمنوا طعم الانتصار ، وأصبحت تحركاتهم واثقة أكثر مما ينبغي . . أما أولئك الذين ذاقوا مراراتها مراراً وتكراراً فإنهم يكونون أكثر حذراً . . ويتفقدون كوب الماء خوف أن يندس فيه تمساح مهاجم . .

كان أبي يقول : بحسب تعاملك مع الفشل تعاملك الأقدار . . فإن تمالكت نفسك وتعلمت منه كان خيراً ورخاءً . . وإن أقعدك عن النهوض كان لك قبراً تدفن نفسك فيه وإن كنت في عداد الأحياء . .

كان يقول : إن الهزائم تصنع العظماء . . فهي خير محضن يولد

أمثالهم . . المهم بالأمر أن يدركوا طريقة تعاملهم معها وألا يبالغوا في الجزع ، وألا يفقدوا رباطة جأشهم ، وحسن التدبير . .

فقدان التأمل في الحوادث يقود دوماً إلى النهايات الحزينة . . والصبر جسر الفرج . . والأمل يلوح للمهاجرين من صحاري اليأس . .

ورغم كل شيء . . كانت الهزيمة هذه المرة فأل خير لأركاديا . . فالذي حصل في تيدبا كشف كل شيء ووضع حداً لسيل الخيانة . . فما الذي حصل هناك؟ وأين ذهب الأهالي؟ وكيف عرف الركساس بوكر حمزة ورجاله؟ هذه القصة أرويها بنفسي إذ كنت شاهدة عليها . .

في ذلك الأصيل وفدت إلينا أخبار تقدم الجيش الركساسي صوبنا ، وقد قدّر الكشافة عددهم بخمسة آلاف جندي ، يقودهم أحد كبار القادة الأشداء ، فما كان من شيهانة إلا أن طلبت من غضنفر ـ والذي تركه حمزة حامياً للمدينة رفقة عامر ـ أن يخرج الأهالي والأموال وأن يسربهم إلى راهوا . .

فقال لها :

– لا حاجة لنا في ذلك . . هاشم رفض التحالف معنا . . وسنقدر على صد الغزاة حتى يعود حمزة ومن معه . .

فقالت له :

– لن تصمد الأسوار طويلاً لو نصبوا المجانيق . . خسارة تيبدا فناء لجهاد حمزة . . لنرحل إلى هناك ومن ثم نلتقي به في أي مكان يا غضنفر . .

فرفض غضنفر الرحيل ، وثبت على رأيه بتحصين الأسوار ومنع الركساس من الدخول ، وإن حاصروا القرية ، فالحصار لن

يطول خصوصاً أن حمزة ورجاله سيقفلون عائدين من روفينيا فور تحقيق الانتصار . .

لكن شيهانة رفضت الأمر ، وتوجهت إلى العزيز ليصدر الأمر ، لكنه تردد وقال :

- أنا لا أعلم شيئاً يا شيهانة . . قرروا ما ترونه مناسباً . .

فهتفت به :

- أنت الملك يا عزيز . . ينبغي أن تتخذ قراراً . .

فتلعثم الغلام ولم يحر جواباً . . فما كان من شيهانة إلا أن نادت بالجمهور إلى ميدان القرية . . واجتمعت بالأهالي وخطبت فيهم . . حذرتهم من مغبة البقاء في تيدبا ، وطالبتهم بالرحيل إلى راهوا ، حتى لا يضيعوا جهد ابن البتار ، وأنه ولا ريب سيلحق بهم هناك بعد إتمام خطته ، وشاركتها الخطاب غادة بنت القائد فهد ، وشاركت خولة كذلك ، حتى أجمع الناس أمرهم ، وحملوا نفائس مدينتهم ورحلوا لواذا قبل وصول جيش الغزاة . .

ولم تكن الرحلة ممهدة بالورود . . لقد تنامى إلى جيش الركساس خبر هروب الأهالي ، فأطلقوا في إثرهم عدداً من الكتائب لتأسرهم ، ورغم السرعة التي كان الأهالي يسافرون بها ، إلا أن الكتائب أدركتهم ، وأمعنت فيهم القتل والتأسير ، وكادت أن تفتك بهم لولا أن أدركتهم قوات راهوا . .

تجلت هنا عبقرية شيهانة وحسن قراءتها للأمور ، كانت تعلم أن الغزاة سيدركون لا محالة بمسيرة الأهالي ، ولذلك أرسلت رسولاً إلى راهوا يستجدي هاشماً بن عدنان لحماية الأهالي . .

وكتبت عدداً من الأوامر والخطط في ورقة وأعطتها والدتها ومضت وحدها على ظهر جواد صوب تيدا ، فسألتها خولة :

- إلى أين ؟!

فأجابت :

- سأنقذ حمزة يا أماه . . لن أعود بدونه . .

وركضت في وجه الريح والظلام عكس تيار الزمان . . تتبع قلبها المتفطر هلعاً . . كانت بتصرفها هذا أنثى تحب . . تبيع عمرها كله من أجل رجلها الذي تعشق . . وحين أراد عامر اللحاق بها أمرته بالعودة فوراً ، وأن يحمي العزيز بكل ما أوتي من قوة ، وألا يسمح لهاشم بالسيطرة عليه . .

وفي راهوا حرك خطاب شيهانة نخوة هاشم فقام بإرسال جنوده والتحموا مع الركساسين وصدوهم ، منقذين الأهالي وما ساقوه من خيرات ومواشي إلى راهوا ، معلنين التحالف مع حمزة ضد الغزاة .

وبتحالف هاشم في راهوا شرقاً ، وتحالف نصار في روفينيا غرباً ، واستيلاء صفوان على سيسيليا ونانا كروبا جنوباً ؛ توحدت كافة أقطار البلاد تحت راية حمزة ، ولم يبق إلا غلوريا عاصمة أركاديا التليدة . . كانت مجموع القوات الأركادية مجتمعة يبلغ زهاء عشرين ألف جندي ، فيما كان جنود ركساس تحت قيادة ليون وتيهاد في غلوريا نحو ثلاثين ألف جندي ، مما كان يعني أن كفتي الميزان تميل نحو التعادل وإن كانت ثمة زيادة طفيفة في الجانب الركساسي ؛ إلا أن أبي كان يقول دائماً : «إن قيمة الجيش تكون بقاداته . .» وهنا كانت المزية لقادة أركاديا الأفذاذ . . وعلى رأسهم حمزة بن البتار . .

ولكن . . أين هو ؟!

قبل أن أخبركم بما جرى له عشية هزيمتهم في تيدبا دعونا نحلق فوق ركساس ونشهد معكم بعض الأحداث التي واكبت

رحلة شاكان الأخيرة إلى العاصمة ، حيث اقتاد جيشاً عرمرماً إلى حدود بلاده وتركهم في حصون العزة في الممر الفاصل بين ركساس وأركاديا ، وكان ذلك اقتراحاً أملاه زيدون على الأمير الغاضب إثر عزله . . تساءل شاكان حينها :

– ألن يكون تصرفنا هذا عدوانياً قد يُفسره والدي خطأً ؟

فأجابه زيدون :

– إن دخلت بهم ركساس سيكون كما تقول . . لكن حجتنا واضحة هنا . . نحن نحمي الحدود الركساسية من الفوضى الحاصلة في أركاديا ليس إلا . . وبذلك سترسل رسالة مبطنة تفيد بقوتك ونفوذك وبإمكانية أن تخضع ركساس لحكمك ولو بالقوة . .

– أخشى غضبة أبي ومن معه يا زيدون .

– لا تخش شيئاً يا مولاي . . كل الوزراء يعلمون بأن أباك تسرع بقراره الأخير ، وأنك خير من تصلح لخلافته ، أما ليون فهو لا يبلغ معشار قدراتك .

سأله شاكان :

– وماذا إن رفض أبي سحب قراره ؟

فأجابه الوزير العتيد :

– حينها عليك جمع الوزراء وكبار القادة وأخذ رأيهم . .

– وماذا إن انحازوا إلى قراره ؟

– أرى يا مولاي أن جيشنا الذي ستتركه في الشمال سيكون قادراً على هزيمة كل الدول .

ففهم شاكان ما يريد زيدون أن يقوله في ثنايا حديثه . . ومن هذا المنطلق سافر إلى العاصمة ، يريد أن يقنع أباه بالعدول عن قرار تنحيته من ولاية العهد ، وإلا سيطلب من كبار الوزراء والقادة عزل

والده لكبر سنه وشيخوخته ، وإلا ستكون الحرب . .

دعونا الآن نعود إلى حمزة ، ولنجوس البلاد بحثاً عنه . .

الشـــمس توشك على الشـــروق . . والمطالع على أهبـــة الاستعداد . .

***

للهزيمة طعم مرٌ للغاية . . طعمٌ يُفقد الإنسان الشعور بكل شيء عداه . . وكأن الدنيا كلها تستحيل مستنقعاً آسناً من هزيمة ، تغوص فيه الأقدام حتى تفقد القدرة على التقدم أو التقهقر . .

قال له والده ذات هزيمة : ستدرك فداحة الأمر حين تصبح قائداً . .

أصبح الآن قائداً يا بتار . . وذاق هزيمته الأولى . . وخرج من تيدبا ذليلاً شريداً . .

الانتصارات السريعة تورث الغرور . . والغرور يُنتج اللامبالاة . . وحين تستفحل اللامبالاة يقع الإنسان في أخطاء جسيمة لا يدركها المرء حتى توقعه في فخ الهزيمة . .

ما الخطأ الذي ارتكبه؟ كان هذا هو سؤاله الذي ظل يقرع صدره دون إجابة شافية . .

هو يعلم أن الهجوم دون الاستعداد للدفاع خطأ شنيع يرتكبه القادة دائماً . ولقد فعل ذلك في تيدبا . ترك كتيبة عمه الغضنفر على رأس قوة لحماية القرية الصغيرة . . لكن العجيب أنه لم يجد أثراً لهم . . أين اختفوا؟ وأين ذهبوا؟ وترِد الأسئلة ماء الحيرة وتعود مثخنة بالعطش . .

لوهلة ظن أنه قد انتصر . . وأنّ فتحَ البلاد وطرد الغزاة واستعادة الحرية والكرامة على بعد خطوات قليلة . . لكن الأمر يبدو أكثر صعوبة مما ظن . . فالليل طويل جداً . . والشمس تتقاعس عن الشروق . .

أنقذته شيهانة . . هي الآن نائمة على ظهر الجواد ، وهو يسير ممسكاً باللجام لا يعلم أين ستأخذه الريح ، وإلى أي بلد ستقوده قدماه ، وهل سيكلل هذا الكفاح الطويل بالنصر؟ أم أن الموت ينسج الأكفان روابي الصباح قد غدت قبوراً صماء ؟

وصلا إلى قرية صغيرة . . سأل حمزة أهلها فقالوا إنها قرية نيروديس . . فتذكر أنها قرية والده . . وحض الخطا للسير قُدماً رغبة في استكشاف المكان الذي تربى فيه والده . .

كانت قرية صغيرة جداً ، لا يتجاوز سكانها مائة شخص ، كلهم يعملون في فلاحة الأرض وبيع المحاصيل ، وإن كان أغلبهم لا يفيض معهم شيء لبيعه ، فيكتفون بالزراعة رغبةً في الكفاف . .

حدثه والده أن هذه القرية كانت فيما مضى إقطاعية كبيرة ، يقوم فيها عمال الإمبراطور على الأراضي ويعطون الفلاحين قسماً ضئيلاً من الخراج ، حتى أمر النعمان بزيادة حصص الفلاحين ، وتقليل نفوذ العمال .

وبعد الاحتلال الركساسي اختفى هذا النظام ، وأصبحت الأراضي ملكاً لدولة ركساس ، والفلاحون أجراء فيها مقابل الكفاف من خراج الأرض .

وحدثه كذلك عن جور العمال وبطشهم وحكايات الظلم الذي كانوا يمارسونه على البسطاء المستضعفين ، وسفعات السياط التي ألهبوا بها ظهورهم المحنية ، والنساء اللواتي اغتصبن ، والرجال الذين قتلوا ، والشيوخ الذي نزل بهم العقاب لأدنى الأسباب . .

سأل حمزة بعض القرويين عن منزل جدته ، فدلوه على العنوان . كان كوخها يقع في شرق القرية قرب بستان صغير تنبت فيه سنابل القمح وأكواز الذرة . استفاقت شيهانة وسألته :

– إلى أين نحن ذاهبان يا حمزة ؟

فأجابها :

– هذه ضيعة أبي يا شيهانة . . أريد لقاء جدتي . . كان والدي يتوق لزيارتها لولا تكاثر الحروب من حوله . . وها هي الآن الفرصة تسنح لي لأوفي ما كان أبي يريد إتمامه . .

فأومأت برأسها وسارت معه صوب الكوخ ، والذي لاح لهما من بعيد كتلة من الخشب المتآكل ، تغطي سقفه كومة من القش ، وحوله سور خشبي عتيق تساقطت أغلب عيدانه ، يشتمل فناؤه على بئر صغيرة وتنور قديم وقد تناثرت في باحته رحى قديمة ومنجل وأدوات زراعة قد لحقها البلا ، وبجوار الكوخ قن صغير خلا من الدواجن تماماً ، وبقي الحقل الذهبي الممتد ، منتصبة سنابله في وجه الشمس ، وشجرة توت وحيدة تقف في طرفه كالحارس الأمين . .

طرق حمزة الباب المثقل بالغبار فلم يسمع جواباً . . دفع الباب وولج ليرى المنزل الذي تربى فيه والده وعمّاه . . كان خياله يقوده في رحلة زمنية قصيرة ، أراه فيها طفولة والده ونشأته في هذا المنزل المتهالك . .

يفضي المدخل إلى حجرة صغيرة ارتمى على جنباتها حصيرٌ بالٍ ، وموقد نار في الطرف الغربي يحوي قدراً سوداء القعر ، وقد اصطّفت بجوار الموقد أجولة تحوي بقايا حبوب وطعام ، وجوارها جرة تحوي بعض الماء ، استندت إليها طاولة خشبية ، وضع عليها قطع من الماعون الفخاري ، وفي الجهة الشرقية طرقة تؤدي إلى الباحة الخلفية حيث البئر والتنور وقن الدواجن ، وسلم صغير يقود إلى السطح حيث تخيل والده وأعمامه يقضون الليل جمعاً للأحلام وتكديساً للنجوم .

وتذكر كوخ الحكيم توفيق في جبال كوبي والدفء الذي كان يجمعه بعائلته هناك، وليالي السمر حول الشطرنج، وتعاليم الحكيم، ولذة الضحكات، وعذوبة البسمات، وتساءل في نفسه «هل كان أبي سعيداً مثلي في صباه؟»

ورنا تفكيره إلى شقيقته وردة التي حالت بينه وبينها الأسفار، وتساءل عما تعانيه هناك في عاصمة الغزاة، وأي معاملة شنيعة تلاقي.. تلك الفتاة التي شاركته أيام الصبا، وكانت نعم الأخت والرفيقة رغم فارق السن القليل الذي يفصل بينهما، لكنها شأن الفتيات كان عقلها يسبق سنها، فترى جسدها لا يزال في طور الطفولة فيما عقلها يضج باليفاع..

تنهد حمزة قائلاً:

– هنا عاش أبي وإخوته يا شيهانة.. هل يعقل أن منزلا كهذا أخرج رجلاً كبتار؟

حينها سمعوا صوت الباب يفتح وصوت عجوز تقول:

– وما بها هذه الدار أيها الشاب حتى لا تخرج رجالاً كبتار؟

فالتفتا إليها.. امرأة عجوز سمراء قد تغضن وجهها بالتجاعيد، ووخط الشيب شعرها، تتوكأ على عصا خشبية، وقد اختفى السواد من حدقتيها..

اقترب منها حمزة قائلاً:

– نعتذر لاقتحام منزلك هكذا يا جدتي.. هل أنت والدة القائد بتار قائد الجيوش الأركاديا؟

فتنهدت العجوز وأخذتها قبل أن تقول:

– نعم يا بني.. أنا والدته..

تمتم حمزة وقد تمكن منه الشجن:

- أنا ابنه يا جدتي . . أنا حمزة . .

والتقط كفها ولثمه ، وعانقها عناقاً حميماً ، تساقطت فيه دموعها ، وهي تشتم رائحته وتتحسس بشرته . .

قادتهما للجلوس على الحصير ، وأقسمت أن تصنع الشاي لهما ، وبمهارة اعتادت عليها عبر السنين ، راحت تغلي الماء وتخرج أعشاب الشاي من السلال ، وتضعها في الأكواب الفخارية المرصفوفة بعناية على الطاولة قرب الموقد ، كل ذلك على هدى من بصيرتها المتقدة ، ومن رجع الذكريات ، وأثناء ذلك كانت تحكي لهم حكايات كثيرة ، عن القرية ، وعن نفسها ، تروي أشياء عابرة تحدث باستمرار ، وكأنها كانت محبوسة عن الكلام دهراً طويلاً ، ووجدت في الشابين اليافعين آذاناً منصتة .

وبينما هم يحتسون الشاي ، قالت :

- اعذراني لطول ثرثرتي . . مضى وقت طويل لم أتكلم فيه مع أحد ، فكيف إن كان من أتحدث إليه هو فرد من أبنائي ؟

سألها حمزة :

- منذ متى فقدتِ البصر يا جدتي ؟

أجابته :

- بعد وفاة جدك بقليل . . كنت أفتقد العناية ، وقد أصاب عيني مرض أذهبها . . دعك مني وأخبرني بما أتى بك إلى نيروديس يا حمزة ؟

- قادني القدر إليك يا جدتي . . لم أتعمد هذا السفر وإن كنت أريده . . لكنني نجوت من الموت بأعجوبة في تيدبا ، وبقيت هائماً على وجهي حتى وجدت قريتكم في طريقي . فلما علمت أنها نيروديس قررت زيارتك . .

فأشاحت بيدها وهي تقول :

- أنت تشبه أباك كثيراً . . لطالما كتب لنا برغبته بالمجيء لكن الأقدار سبقت به إلى السماء . .

- ألا أعوضه عندك يا جدتي ؟

- لا أحد يعوض أحداً يا ولدي . . خصوصاً لدى الأم . . لا شيء يعوضها عن ابنها الذي حملته وتجشمت مشقة ولادته . .

فأطرق حمزة برأسه . . وتذكر أشواق والدته . لقد كان يتفق معها في ذلك ؛ فبرغم الكنف الدافىء الذي وجده لدى الحكيم توفيق ، لكنه لم يعوضه للحظة عن كنف والده الراحل . . لا يزال مشتاقاً له ولحنانه الدافق .

قال :

- حدثيني عنه أكثر يا جدتي . . كيف كان في طفولته . . في شبابه . . كل شيء . .

فجمعت نفساً عميقاً ، وحمّلته حروفاً وكلمات تنبلج من عمق روحها :

- بتار يا حمزة كان فتى عجيباً . . هادئاً . . جاداً . . لا يغيره الهزل وألعاب الأطفال . . لطالما كان قوياً عادلاً شهماً . . يأبى الضيم والذل والقهر . . لم أشعر بالتعب في تربيته كما كان الحال مع فهد وغضنفر . . كان قرة عينٍ لي ولوالده ولأهل القرية جميعاً . . أذكر هدوءه في طفولته وعدم خروجه من المنزل ، ولعبه وحيداً في الحقل مع الدواب ، ونادراً ما كان يلعب في الحي مع الصبيان ، كان طيعاً لوالده ، يساعده في كل شؤونه . .

تبسم حمزة سعادةً بالثناء البالغ على والده . . وشعرت شيهانة بالفخر لأنها تسمع الثناء على والد الرجل الذي تحب .

قال حمزة بشجن :

- وماذا عن عمي فهد ؟

فأجابته باسمة :

- فهد . . أتعبني في الحمل وفي الولادة ، كان ضخماً منذ طفولته ، شقياً عنيداً مشاكساً ، لا يقبل النصيحة والتوجيه ، ولا يفيد فيه الضرب والتأديب ، ورغم سمار بشرته ؛ إلا أن قلبه أبيض من الحليب ، يثور سريعاً ويهدأ سريعاً . . كان زعيماً لصبيان الحي ، يخافونه ويهابونه ، يبطش بكل معتدٍ ، ويحمي كل ضعيف ، ولم يكن يقدر عليه أحد إلا بتار . . هو الوحيد الذي كان قادراً على صده ، وكم كانت كثيرة اشتباكاتهم الدامية ، والتي كنا نعاني لفضها . .

حاول حمزة كبح دمعة تأثر كادت أن تسيل على وجنته رثاء لعمه الذي فداه بحياته في تيدبا ، لكنه دارى موجة التأثر التي اجتاحته بنحنحة وسؤال آخر :

- وماذا عن عمي الغضنفر ؟

فسكتت الجدة قليلاً وبدا الاضطراب على ملامحها قبل أن تقول :

- غضنفر كان مختلفاً عن شقيقيه . . يأخذ من هذا ومن ذاك . . كان هادئاً . . لكنه عنيف ، وأحياناً يكون عنفه بدون سبب ، لاقى المتاعب في صغره لضآلة جسمه ، وانتقاماً من الصبيان مما كان يفعله فيهم شقيقه فهد . . كذلك كان العمال يقسون عليه لشقاوته غير المبررة ، إذ أنه كان يتصرف بعشوائية عجيبة ، لا أدري في الحقيقة ما مردها . .

فسألها حمزة باهتمام :

– كيف ذلك يا جدة ؟

– يكون هادئاً أحياناً ، وفجأة تراه مندفعاً كالصاروخ يحطم ويفجر ، ويفعل أشياء عجيبة . .

تمتم حمزة باستغراب :

– غريب هذا الأمر . . أهي حالة مرضية ؟!

– في الحقيقة لا أدري يا بني . . لقد عانى منها غضنفر كثيراً . . لاقى الاضطهاد من الجميع بسببها خصوصاً شقيقه فهد ، ولم يكن ثمة أحد شفيق به كبتار ، لكن كان ثمة حسد طبيعي بين الإخوة كما تعلم . .

سألها :

– أتقصدين أنه كان يحسد أو يغار من أبي ؟

أومأت قائلة :

– نعم . . كان يريد دوماً أن يكون أفضل منه ولم يقدر . .

قال شيهانة للمرة الأولى :

– هل السبب أن بتار كان أقرب للمثالية ، وغضنفر كان عاجزاً عن إدراكه أو التشبه به ؟

قالت الجدة :

– نعم كذلك يا بنيتي . . لطالما تهكم غضنفر من مُثل أخيه وحاول التنقص منها . .

فتبادل حمزة وشيهانة نظرة تفيض بالريبة . . قالت الأخيرة :

– ثمة أمر لاحظته في أبنائك يا جدتي . . أرجو أن تخبريني عن سره . .

– وما هو ؟

قالت شيهانة :

– أراهم يقدسون الإمبراطور تقديساً خرافياً . . أثمة سبب وراء ذلك ؟

أجابت :

– هكذا رباهم أبوهم يا بنيتي . . خصوصاً بتار ثم فهد . . غضنفر كان أقل منهم بعض الشيء . .

سألها حمزة باهتمام :

– ولماذا يا جدتي ؟!

تنهدت الجدة وقامت من مقعدها وطلبت من الشابين أن يلحقا بها إلى البستان . . أشارت العجوز إلى الحقل وقالت :

– سأخبركما بأمور لا يعلمها أحد على الإطلاق ، ولا أدري لماذا أخبركما بها هذه الساعة . . ربما لشعوري بفوات عمري ، أو ربما لفضولكما الزائد ، أو لشيء لا أعلمه أنا وتعلمه السماء . .

في الحقيقة كان يشرف على قريتنا عامل ظالم ، لطالما سفعنا بسياطه هو ورجاله ، ولم نكن نملك دفاعاً عن أنفسنا إلا الصبر والتسليم . وإذ أن زوجي وبتار وفهد كانوا يغادرون صباحاً للعمل في الحقول والسفر طلباً للحبوب أو لبيع ما ننتجه من سلع ، كان غضنفر يبقى معي لصغر سنه ، وكان العامل يأتينا متودداً يسعى لاستغلال غياب زوجي . . لكنني كنت أصده بطريقتي الهادئة المحايدة ، دون إثارة لحفيظته أو جرحاً لكرامته ، لكن غيرة غضنفر كانت تجعله يهاجم العامل بأشياء لطالما جرّت عليه العقاب الأليم . .

وسكتت هنيهة تلتقط فيها أنفاسها وتجمع أفكارها :

– وذات يوم أخبرني غضنفر أنه قد رأى العامل قد ولج بيت إحدى جاراتنا وكان زوجها غائباً في حقله ، وأنه قد كان يضاجعها . . فنهرت الصبي عن ذلك وأمرته ألا يخبر أحداً . . لكنه

هدد العامل من تكرار فعلته ، فأضمر له العداء ، وراح يهينه كل مرة يلتقي فيها به ، حتى انفجر غضنفر ذات يوم وأخبر بتار بما جرى ، فما كان من بتار إلا أن أوسعه ضرباً عقاباً على اتهام عامل الإمبراطور بارتكاب فعل شنيع ، وسحبه من أذنه حتى ركع أمام العامل وأجبره على الاعتذار ، لكن الغضنفر لم يعتذر ، وظل حانقاً على بتار طيلة حياته هذا الموقف المذل . .

تمتم حمزة :

ـ يا للغلام المسكين . .

تابعت العجوز سردها :

– مضت الأيام ، وغادر والدك للالتحاق بفرسان أركاديا ، وبعد مدة تبعه فهد ، وبقي غضنفر هنا وحيداً ، يرفض خدمة الإمبراطور أو أحد رجاله ، وشب عن الطوق وتزوج ، وأحب زوجه كثيراً وألفها . . وبعد سنوات أنجب منها ابنه الوحيد عامر ، وبعد مدة أصيبت أم عامر بمرض غامض وتوفيت بعد معاناة طويلة . . أتعلمون ما سر مرضها ؟

سألتها شيهانة :

– اغتصاب العامل لها ؟

فسكتت الجدة ملياً قبل أن تقول بإعجاب :

– أنت فتاة ذكية يا شيهانة . . تليقين بحمزة تماماً . .

فأطرقت خجلاً ولمعت عينا حمزة بالفخر . . قالت العجوز :

– بالفعل . . لقد كان العامل يتسلل إلى داره في غيابه ويرتكب العمل المشين مرة تلو الأخرى ، والمرأة المسكينة تأبى الحديث خشيةً على غضنفر من غضبته التي قد تؤول إلى عمل متسرع ينهي حياته . . لذلك رضيت الضيم فداءً لزوجها . .

وبدأ التأثر بالتسلل إلى نبرات الجدة ، وظهر الوجد جلياً على ملامح حمزة وشيهانة ، التي قالت :

– وكيف عرف غضنفر ؟!

– لم يعرف المسكين إلا بعد أعوام من وفاتها . . فبعد ذلك ارتحل بابنه إلى غلوريا حيث التحق بالفرسان رفقة شقيقيه ، وذات مرة التقى صدفة بالعامل في حانة من الحانات التي كان يقصدها ، فأخبره تحت تأثير الخمر بما كان يجري بينهما ، ويدعي أن عامر هو ابنه وليس ابن غضنفر . .

شهقت شيهانة ، وقال حمزة :

– وماذا فعل عمي ؟!

– قتله في الحال . . وجاءني هارباً ، وسألني عن حقيقة ما جرى بين زوجه والعامل ، فلما أكدت له ظل يبكي أياماً عديدة ، حتى جاء بتار على رأس عدد من الجنود ، واقتاده إلى غلوريا ، ليسجن فيها عاماً ويجلد ألف جلدة ، وكان الحكم بادئ الأمر الإعدام ، لولا أن شهد جميع من في الحانة بأنهما كان مخمورين ، ثم من أجل شفاعة بتار ، والتي حظيت بمباركة الإمبراطور النعمان . .

هتف حمزة :

– يا للهول!! لقد أصيب عمي مصاباً جللاً . .

وقالت شيهانة :

– لقد تكشفت لنا هذا اليوم حقائق كثيرة . . للأسف . .

قالت العجوز :

– يقال بأن الشمس تشرق من حقول نيروديس ، فلا عجب أن الحقائق تكون معلقة بذيولها . .

وظل حمزة واجماً يفكر فيما سمعه ، ويقلبه في دماغه . .

قال :

- أيعقل ؟!

قالت شيهانة :

- لا شيء مستحيل يا حمزة . . هذا يفسر كل شيء . .

وكرر حمزة قوله وهو غارق في الوجوم :

- أيعقل ؟!! أكاد أفقد عقلي . .

وتعالى وقع خيل تقترب ، وسمعوا صوت عامر بن الغضنفر ينادي باسم حمزة ، فاستجاب له ، وخرج ليلاقيه مع شيهانة . فعانقه عامر قبل أن يقول :

- حمداً للسماء أنك بخير يا ابن عمي . . لقد نهبنا الأرض كلها بحثاً عنك . .

قال حمزة وهو يربت على كتفيه :

- نعم الرجل أنت يا ابن عمي . . هات الأخبار . .

قال عامر :

- بناء على الخطة التي كتبتها شيهانة قبل أن تلحق بك ، فإن جنودنا الآن يحاصرون العاصمة غلوريا من الجهات الثلاث ، شرقاً جيش راهوا بقيادة هاشم بن عدنان ، ومعه الإمبراطور العزيز ، وغرباً جيش روفينيا بقيادة نصار بن زيدون ومعه والدي ، ومن الجنوب صفوان وأبناء قبيلته الناناكروبيين . . نحن قريبون جداً من النصر يا حمزة . .

هتف حمزة قائلاً :

- ينبغي إذن أن نسرع وإلا فاتنا كل شيء وصرنا أبعد ما نكون عن النصر . .

وامتطى صهوة الجواد الذي قدمه له عامر ، فيما جاءت العجوز وقالت :

- قبل عدة أعوام قلت لوالدك وهو يغادر إلى غلوريا «صن اللبن الذي سقيتك إياه» . . سأقولها لكم الآن وأزيد عليها «صونوا اللبن الذي سقتكم إياه أمهاتكم . . صونوا الماء الذي أغدقتكم عليكم به أركاديا . . صونوا شعاع الشمس الذي ترعرعتم أسفله . . كونوا نعم الأبناء لهذه الأرض . . ولتحفظكم السماء» . .

فأومأ حمزة برأسه . . وسار مع رجاله صوب الشمس . . صوب الخلود . .

***

# الفصل الرابع:
# الخلود يأوي إلى مثواه

حين تسير الشموس صوب المغارب فهي تعد نفسها لإشراق قادم . . تستحم في مياه البحر . . تغسل كهولة الظهيرة وتجاعيد الأصيل . . ترتدي برانس الشفق وتستند على قمم الجبال . . وتطل لتنشر عبق الأمل في القلوب الكسيرة . .

فيما يكون الوطن مطروحاً على خشبة الليل . . يحلم كالصغار . . ويمني النفس بإصباح سعيد . . للصبح أحلام كثيرة . . تتجلى في سواعد أبنائه المخلصين . . يبحث لهم عن السعادة . . وهو يعلم أنها لن تتحقق إلا بهم . .

السعادة ثمرة تنمو على شجر الإنجاز . . وكلما كان الإنجاز عظيماً كانت السعادة أكثر عظمة . . وأبناء الوطن المخلصين هم بذورها . . وسواعدهم جذورها . . وعرقهم سقاؤها . . وأرواحهم سمادها الذي يضمن لها الخلود عبر الأزمان . .

والوطن الآن عروس تستعد للزفاف . . تحملها العواتق عبر أقواس قزح . . صوب الغيم والمطر والنجوم الراقصة والأحلام المؤجلة وتباريح النشوة والأمنيات المحفوفة بالبهجة والأمل . .

وأبناء الوطن تشرئب أعناقهم صوب السماء انتظاراً لانهمار أغصان الغار . . كانت السيوف تصلي لذياك المطر . . والدماء تختمر في العروق لكي تسفح قرباناً لنصر لطالما تمنع عن الأبطال .

الرايات الخضراء تتعانق في طريقها صوب غلوريا . . تمر بها الريح وتتصرف عبقة بالحماسة . . النصر الوشيك يلوح في الأفق . . والكل يغنون لأركاديا . . للأمل السعيد . . والحلم الرابض في رحم القدر . .

هاشم بن الوزير عدنان على رأس خمسة آلاف مقاتل . . ينطلقون من راهوا بعزائم متقدة ونفوس متطلعة للانتصار . . يقود جيشه عدد من كبار الفرسان وأشرسهم وأقدرهم على الفتك وتطبيق الخطط والأوامر . . غضنفر شقيق بتار . . وعرندس ونبراس ابنا المستشار عدنان . .

ومن الجهة الأخرى . . وفَد نصار بن زيدون من روفينيا رفقة رجاله الأشاوس من بقايا الجيش الذي خاض معركة السهل الأبيض مع بتار . . تؤزهم رغبات الانتقام وتركات الثأر المعلقة بأعناقهم . . ذاكرة من الندوب ترتسم كالخرائط على أجسادهم . . هم الآن على موعد لمحو العار وتحطيم نُصب الهزيمة . .

وجنوباً يتقدم صفوان من سيسليا مع جنوده النناكروبيين ، يتطلعون لعمل ينسي البلاد فداحة خيانتهم . . وتحقيق نصر يشاركون في بناء صرحه الأشم . . وإثبات شدة بأسهم وقوة عزمهم وإرادتهم . . وقد انضم إليهم علام مع بعض جنود سيسليا الذين أُسروا وشردوا بعد احتلال النناكروبيين . . لقد كان غريباً أن يقاتلوا معاً وقد كانوا متناحرين قبل ليالي قريبة . . والعجب كل العجب أنهم كانوا يسيرون جنباً إلى جنب لغاية مشتركة . . وهي تحرير الأرض . . وطرد الأعادي . .

ومن بينهم جاء حمزة بن البتار . . مكللاً بالجلال . . بمحبة الشعب وتأييد الأرض وبركات السماء . . بمعية شيهانة وعامر

والسمهري . . يرفعون الرايات الخفاقة . . تزفهم أرواح الراحلين إلى بوابات المجد وقصور الكبرياء . .

في ذلك اليوم ازدحمت السماء بالصلوات . . كل الأركاديين التعساء لهجوا بالدعاء . . تضرعوا لإنقاذ الأرض وحقن الدماء . . الحرب مرهقة جداً . . تحتاج الأرواح لغطاء من أمان . . يهدهدها حتى تنال هجوعاً ينسيها مدامع الآلام . .

واجتمعت الجيوش تحت قيادة حمزة أمام أسوار غلوريا الحصينة . . معه العزيز بن النعمان صاحب الحق ووريث الأرض . . ينظر إلى موطنه تحيط به السيف والرماح . . قد تعود الأرض ، ولكن هل تعود أرواح الراحلين ؟!

وانتصبت المجانيق وكأنها رعدُ الأرض يصيب السماء . . واشتدت أوتار القسي وتحفزت النبال . . وتناثرت خيام المهاجمين على مد البصر . . وتوثب المدافعون للموت دون أرضهم المكتسبة . . وتعالى التأهب واستطال الوقت وتكاسلت الساعات . . وحام الموت كالغربان وتفشى نعيق الجزع . .

كل شيء ينذر بالنهاية . . نهاية شعب . . أو نهاية احتلال . .

وبعيداً هناك . . حيث غاب عن الأحداث أهم أبطالها . . شاكان في صحبة زيدون في العاصمة الركساسية . . يطالب بلقاء الملك . . لكنه يرفض محتجاً باعتلال صحته . . وينحاز الوزراء إلى مليكهم فيرفضون إدخال شاكان . . وتمر الأيام . . تجتمع في حلق الأسابيع . . وتتكدس في أجولة الشهور . . وتفد الأخبار إلى شاكان بما يحدث في أركاديا فينفد لديه مخزون الصبر . .

وفي جُنح ليلة مرصودة ينفذ إلى جناح والده الهاجع في الظلمة . . يقترب بخفة أسد يتوثب للانقضاض . . تحدّث إليه فلم

يجب . . أعرض عنه ولم ينبس ببنت شفة . . فاستل شاكان خنجراً وقطع به عنقه . . وتركه ينزف ببطء حتى فارقته الروح . . وغادر الحجرة ورجاله من خلفه . . اقتحموا جناح زيدون . . واقتادوه معتقلاً . . زجّوا به في السجن بتهمة اغتيال إمبراطور ركساس . . وتحت تهديد السلاح شهد بذلك كافة الوزراء . . وأخرج أحدهم مرسوماً مختوماً باسم الملك يُعيد تنصيب شاكان ملكاً على البلاد . . وفي الصباح أعدم زيدون . . وصُلب على مدخل العاصمة . . وبقي رأسه معلقاً على نصل رمح . .

وواجهته ريفالا وأعلمته أنها تعلم بجرمه . . فركل وضرب وصفع . . وغادر يرفل في كبرياء . . أعدّ جيشاً قوامة عشرون ألف مقاتل . . بالإضافة إلى الذين ينتظرونه في حصون العزة . . فكوّن جيشاً عرمرماً تعداده خمسون ألف مقاتل . .

وصباحاً عندما تحرك على رأس الجيش . . كانت ريفالا تراقبه من شرفتها . . وهي تحمل ورقة مكتوبة بخط وردة بنت البتار . . تذكرت منظر الصغيرة تتدلى من سقف الحجرة . . وأنشوطة الحبل تحيط عنقها وقد رُبطت بالثريا . . فتسقط الدموع على الورقة . . تعيد قراءتها . . فتضحك . . ثم تعود للبكاء . . وتنظر للبعيد تنتظر الخبر . .

لقد تنبأ أبي بموت زيدون حين قال لي : الخونة لا يعيشون طويلا . . ولا يستلذون بثمرة خياناتهم . . هم يعبرون اللذة كالضباب . . كالسراب . . تحسبه شيئاً . . وهو عدم . .

وإلى المعركة الأخيرة . . معركة المجد والخلود . . معركة غلوريا . . معركةٌ غيرت تاريخ أركاديا كله . . ولا أعني بذلك انتصاراً أو هزيمة . . بل أمر جلل غير أحداث البلاد إلى الأبد . .

***

طوال النهار والليل ومجانيق أركاديا تضرب أسوار غلوريا بالحجارة والقذائف النارية ، والنبال تطير من الجانبين تشق الريح وتهوي كالشهب ، والجنود الأشاوس يقتحمون الأسوار فتردّهم السهام وجرار الزيت الحارق . رائحة الدماء تزكم الأنوف ، وتفعم القلوب بالتحدي والإصرار . .

المهاجمون يتعجلون الفتح خشية عودة شاكان بجنوده الكثيفين . . والمدافعون يستميتون في الدفاع انتظاراً للمدد ، والأمل ينتقل من معسكر إلى آخر ، ويتفشى اليأس وينثقب مخزون الصبر . .

العرق الكثيف ينثال على الجباه . . على مقابض السيوف وخشب الرماح . . والأجساد تتصلب في وجه الشمس . . وتغدو كالسنابل انتظاراً لموسم الحصاد . .

وتقدم القادة بطلب المبارزة . . وتجلت شجاعة الفرسان . . رؤوس تدحرجت تحت نصال صفوان وحمزة وعامر ونصار . . وعتاب مطول من تيهاد للأمير ليون لقبوله هذه المبارزات . . معنويات الأركاديين في ارتفاع . . وآمال الركساسيين تتعلق بالشمال . . بمدد شاكان قائدهم العتيد . .

تيهاد يتبرم استنكاراً من تخبطات ليون . . والأمير الذي طالما اضطهد يحاول التنفيس عن نفسه وإثبات قدرته على قيادة البلاد في حرب مصيرية ، فإما نصر وإما اندحار . . وكل الخطط

والاستراتجيات التي تأتي من قبل تيهاد تقابل بالرفض من ليون . . ويتصرف الأمير الشاب وفق هواه ولا يطاوعه التوفيق ويتخلى عنه حسن القرار . .

ومضت أيام ثلاثة ، ولا نصر ولا هزيمة إلا في مجال المعنويات ، ويجتمع ابن البتار قُبيل الغروب بكبار قادة جيشه . . صفوان . . غضنفر . . علام . . نصار . . وهاشم . . ومعهم شيهانة . . بالإضافة لحضور شرفي للإمبراطور العزيز . يتباحثون الوضع الراهن . . محاولين إيجاد طريقة لاقتحام المدينة قبل عودة شاكان . .

قال عامر :

– عيوننا تفيد بأن شاكان لم يغادر الحدود الركساسية بعد . . وأنه قد انطلق من العاصمة بجيشه البالغ عشرين ألف مقاتل ، بما يعني أنه سيصل للحدود خلال أسبوعين تقريباً . وبعدها سيقطع المسافة من الحصون إلى غلوريا في أسبوعين آخرين ، مع إمكانية اختزال يومين أو أكثر إن هم أسرعوا قليلا . .

غمغم حمزة مفكراً :

– أي أمامنا شهر على الأكثر . . أحب أن نفتح غلوريا قبل ذلك إن أردنا إنهاء الاحتلال وردع الركاسيين قبل ولوجهم أرضنا مجدداً . .

سأله علام :

– هل المؤن تكفي يا حمزة ؟

فقال حمزة ضاحكاً :

– المؤن تكفينا لستة أشهر قادمة . . لا تقلق من هذا الجانب يا عماه . .

وقال غضنفر :

– غلوريا مدينة حصينة ، توجد بها من المحاصيل ما يكفيهم لعام أو عامين . . لن يستسلموا أبداً وهم يعلمون باقتراب شاكان وجنوده . . والذي كنت أخشاه جداً هو استخدامهم للعربات المدرعة ، كانت ستُعمل في جنودنا الحرق والتقتيل ، لكن فكرة المستشارة شيهانة كانت رائعة ، بتطيين الأرضية أمام بوابات المدينة الأربع . . لطالما أعيتنا هذه العربات ولم نجد حلاً لردعها ، فإذا بهذه الشابة تأتي بحل بسيط كفانا ووقانا شرها . .

فابتسمت شيهانة وأومأت برأسها قائلة :

– أنجع الحلول وأقربها للعبقرية أكثرها واقعية . . وأحيانا يكون الحل أمام أعيننا ولا نراه . . لأننا نبالغ في البحث عن الأشياء المستحيلة . .

قال حمزة :

– دعونا نركز في إيجاد حل نقتحم به المدينة ، لا يكلفنا كثيراً من الرجال ، ويمكننا من النصر وتحرير البلاد عاجلاً . .

وأدلى كل بدلوه ، والعزيز يراقبهم لا يملك صرفاً ولا عدلا ، يتشاورون في شأن بلاده ، ويتمزقون لأجلها ، وهو ساكت لا ينطق ولا يدلي بما يفيد . . كم كان ذلك الشعور يؤلمه ، ويرديه في قاع الألم ، يشعر بالتخبط ، بالوجع ، بأمور لم يكن يدرك كنهها ، لكنه يعلم جيداً أنها تؤرقه ، وستجعله يغير مسار قافلة حياته نحو واحات الراحة . .

ختم حمزة الاجتماع متضرعاً للسماء أن تكلل جهدهم بنصر وشيك ، وصبح فريد يهديهم سُبل الانتصار . . وخرج القادة ملقين التحية على العزيز وهم في طريقهم إلى خيامهم ، فيما اصطحب حمزة عامر وأمره بإجزال الولائم هذه الليلة للرجال رفعاً لمعنوياتهم

ومكافأة لهم على جهودهم الجزيلة . .

وانتحى جانباً بعمه الغضنفر وأسر له قائلاً :

– أريدك في أمر جلل يا عماه . .

– ما هو يا ابن أخي باركتك السماء ؟

– المؤن يا عمي . .

– ما بها ؟!

– لن تكفينا أكثر من ثلاثة أيام!!

فهتف غضنفر :

– ثلاثـــــــ . . . ؟!!

فقاطعه حمزة :

– اخـفـض صـوتك . . لا أريد الرجـال أن يعـرفـوا فـتـهـبط معنوياتهم . .

هدّأ أبو عامر من روعه وسأل :

– دام الأمـر هكذا . . فلمـاذا أولمت للرجـال إذن ؟! كـان من المفترض أن تقتصد في إنفاق المؤن .

فقال حمزة :

– لسببين اثنين . . الأول حتى لا نشعر الجنود بهذا النقص . مـعنويات الجيش أسـاس ركين في انتـصـاره أو هزيمتـه . . ولـذلك نحرص على بقائها مرتفعة ما استطعنا . .

– أحسنت يا حمزة . . والسبب الثاني ؟

– ثمـة قـافلة تقـترب من راهوا ، بهـا مؤن تكفـينا شـهـراً على الأكثر ، لكنني أخشى من عيون العدو أن ترصدها فتعترض طريقها وتحرمنا نصراً مؤزراً . . وأريد منك تحسباً أن تنطلق مع كتيبتك لحماية القافلة وإيصالها سليمة إلى معسكرنا .

لمعت عيناه العسليتان وهو يقول :

– سمعاً وطاعة يا ابن أخي . . سأنطلق من فوري . .

وانطلق الغضنفر لتنفيذ ما أنيط به ، ومضى حمزة صوب أسوار المدينة ، يراقب النجوم الساهرة حد الخلود ، ويستدعي الذكريات المارقة . . في هذه المدينة ولد ونشأ وتربى . . تعلم المشي والكلام والقتال والفروسية . . واجه موت أمه أشواق وتعامل معه كرجل . . أنقذ الإمبراطور وصحبه وفقأ عين شاكان . . وها هو اليوم يعود بعد أمد طويل تغير فيه كل شيء وأصبح رجلاً جديداً لا يشبه الصبي الذي خرج يتقدم الأسرة المالكة إلى سيسليا عاصمة الجنوب . .

هنا قاتل أبوه ونقش اسمه بالدم على بلاطها أسطورة لا تعادلها أسطورة . . وحده قاتل كتيبة وهزما . . وسار على صهوة الزمان بطلاً لا يبارى . . ولم يسقط في معركة إلا بسكين الغدر . .

والغادر اليوم يترنح على شفير النهاية . . سيحقق الانتقام . . ويعيد الأرض إلى أصحابها . . وينسدل حجاب التاريخ على عاتق جهاد طويل يرجو أن يكلل بالنجاح . .

– «أمازلت مستيقظاً أيها القائد ؟»

تسلل إلى مسامعه صوت شيهانة يحمل في نبراته هذا السؤال ، فالتفت إليها مبتسماً ، ليراها تخطر في رداء أبيض تغطي رأسها بقلنسوة موشاة بزخارف ذهبية . . فقال لها مداعباً :

– تبدين كالعروس يا شيهانة . .

فنفرت حمرة الخجل على وجنتيها وهي تقول :

– فتح غلوريا وطرد الأعادي سيكون عرساً لجميع أهالي البلاد . . وستكون أنت هو البطل . .

فتنهد حمزة وهو يقول :

- فور انتهائنا من قتال الركساس ، سنعود للجبل يا شيهانة .. نبحث عن الشيخ ، ونربي الدواجن ، ونعيش كما تعودنا ..

فاعترضت قائلة :

- ولمن ستترك قيادة البلاد ؟!

- لمن هو أهل لها .. لصاحبها الشرعي ..

فقالت بحدة :

- أتراك ستترك العزيز على عرش البلاد؟ إنك بذلك تترك دمية يتلاعب بها القادة .. سيطمع الجميع بالسلطة ، وتقع أركاديا مجدداً في فخ التناحر ..

قال في حيرة :

- بماذا تشيرين علي يا شيهانة ؟

أجابته على الفور :

- أن تبقى بجواره تحكم بإرادة السكان ..

فلوح بيده قائلاً :

- سيظن الناس أنني قاتلت معه رغبة في الحكم .. أنا لا أريد إلا تحرير بلادي ونشر السلام ..

قالت :

- وهل يريد الناس إلا ما تريد ؟!

فأطرق وفكر طويلاً .. حتى بدأت النجوم بالانطفاء .. وشعر أن الشمس تبزغ من جبينه ..

وعلى مقربة منهم .. كان العزيز ، استمع لكل كلمة قالتها شيهانة ، فمضى إلى خيمته ، وغصة مريرة تتكون في حلقه ..

في أواخر تلك الليلة ، تسلل عدد من الجنود الركساس من البوابة الشرقية ، نثروا الرمل على الطين ، وعادوا أدراجهم إلى

المدينة ، وخرجت ثلاثون عربة مدرعة ، تنهب الأرض صوب راهوا ، تسير في تشكيلات معينة ، تتحين الفرصة لاقتناص قافلة المؤن وحرقها حتى لا يبقى لخصمهم أي فرصة للصمود . .

وبُعيد بزوغ الفجر لاحت لهم عربات القافلة ، فأسرعوا بالهجوم عليها ، مستعدين لإطلاق أحزمة اللهب ، وعندما بلغوا المدى لإصابة الأهداف ، فوجئوا بأبواب العربات تُفتح وعشرات من الرماة الأركاديين ، يخرجون بأقواس مشدودة بالسهام ، على رأسهم حمزة وعامر وهندس وخبور ، وغيرهم من الأشاوس ، ما إن اتخذوا الوضعيات المطلوبة هتف بهم حمزة :

- أطلقوا . .

فتنطلق السهام صوب النقطة الوحيدة غير المحصنة في العربات ، وهي فتحات الرؤية المخصصة لقادة العربات ، فأصابت أغلب السهام أهدافها ، وتشتت العربات بلا قائد يسوسها ، ظهر من بين الأشجار فرسان أركاديا ، لحقوا العربات التي نجت من السهام ، قطعوا بالسيوف لجامها ، ففقد القادة القدرة على التحكم بالعربات فازدادت تخبطاً . .

ودارت رحى المعركة سريعاً ، حتى سقطت كل العربات محطمة وأسيرة . .

وكان الجميع سعداء . . إلا حمزة . . كان يتميز غيظاً . . ذاهلاً لا يكاد أن يصدق ما حصل . . فمضى سريعاً على جواده الأبلق ، عائداً إلى المعسكر ، وعبثاً حاول رفاقه اللحاق به ، إلا صفوان ، كان يتنهد ، وقد بدت على ملامحه أمارات التفهم ، فمنعهم من اللحاق بحمزة ، وأمرهم بسوق الأسرى وجمع الغنائم . .

ووصل ابن البتار إلى خيمته ، أخذ حربة والده وتوجه إلى

خيمة غضنفر ، انتبهت له شيهانة فعلمت بما جرى ، توسلت إليه ألا يذهب وحيداً ، فأبى أن يرد عليها ، بحث عنه بين الرجال حتى وجده ، طلب منه أن يأتي معه للحديث حول أمر هام . .

وحين انتحوا ناحية معزولة من المخيم ، ترجل حمزة من جواده وغرس حربة والده في الأرض ، وأخذ يحدق في الأرجاء ، وشعره الطويل يتطاير إثر هبات الرياح . سأله غضنفر عن الأمر ، فقال :

- ما الخطب يا ابن أخي ؟!

قال حمزة دون أن يلتفت إليه :

- قبل اثني عشر عاماً كنت أنت من جاء بالنذارة بقدوم جيش ركساس إلى والدي ليلة ولادة العزيز بن النعمان . . وكنت أنت من أنذر أيضاً بحصار غلوريا . .

تلك الليلة ماتت أمي أمام عيني بقذيفة منجنيق سقطت على رأسها ففلقته . . وقاتل أبي وحده كتيبةً كاملة وأصيب بجراح ظل يعالج على إثرها شهرين كاملين . . وعانت الأسرة الحاكمة ما عانت في سبيل الهروب إلى سيسليا ، وقُتل خلق كثير من الأبرياء . .

قال غضنفر في حيرة وهو يتحسس مقبض سيفه :

- عن ماذا تتحدث يا ابن البتار ؟

واصل حمزة الحديث دون أن يتوقف أو يلتفت إلى عمه :

- وفي السهل الأبيض اعتمد عليك أبي في إتمام جزء من خطته المحكمة ، وكلفك قيادة خمسة آلاف جندي صوب الغرب ، وكنت مجدداً أنت من جاء بالنذارة باكتشاف الخطة وفناء من معك من الرجال . .

في تلك المعركة ذبح وحرق أكثر من أربعين ألف أركادي ،

وعانى أبي ما عانى في سبيل إنقاذ الإمبراطور النعمان ، حتى وصل به صحيحاً إلى سيسليا . .

سكت غضنفر واستل سيفه ، وانتظر ما يفضي إليه حديث حمزة الذي تابع وهو يشد قبضته على حربة والده :

- وأكاد أرى أنك بعدما بعثك أبي لتحصين المدينة رفقة رجال الأرغل ، قد عدت إليه مقنعاً تحمل ذات السيف الذي أشهرته الآن في ظهري ، وهاجمت أبي المرهق وهو مثخن بجراحه ، وقتلته بين رجاله دون أن ينقذه أحد . .

وأنت أيضاً من دبر المكيدة ودفع الركساس إلى جبال كوبي ليقتلوا أهلها الطيبين الذين استضافوني بعدما شردت وذقت اليتم مرتين . .

وكنت السبب في اختفاء الحكيم توفيق الذي رباني وعلمني ودربني لأصبح الرجل الذي ترى . . كنت السبب يا غضنفر في قتل أبي مرتين . . مرة في بتار . . والأخرى في توفيق . .

وسكت هنيهة قبل أن يكمل :

- وأنت من أبلغ الركساسيين بمكان اختفائنا في تيدبا ، وكنت السبب في تشريد أهلها الطيبين ، ومقتل أخيك الثاني فهد ، والتفريق بينه وبين ابنته التي لم يهنأ بلقائها بعد فراق السنين . .

وتذكر لحظة انقاذه من قبله فالتفت يسأله ودمعة تلمع في عينيه :

- لماذا فعلت كل هذا يا عماه ؟! لماذا خنت أرض أركاديا ؟!! وفوق كل هذا . . لماذا قتلت أخاك الأكبر ؟!! الذي شاركك الرحم ورضعت من ذات الثدي الذي أرضعك ؟! وأكلت من ذات الطبق الذي أكل منه ؟!! لماذا يا عمي ؟! لماذا يا أبا عامر ؟!!

قال غضنفر :

- انتقاماً لزوجتي التي ذاقت مرارة الاغتصاب دون أن أدري حتى توفيت من إثر العذاب . . عامل ملكك الذي تدافع عنه لم يترك حرة في نيروديس إلا وقام باغتصابها باسم ملكك . . باسم أركاديا يا حمزة . . كنا نهان أشد الإهانات ونحتمل من أجل أركاديا . . ولأي شيء ؟! من أجل حفنات تراب نحتمل الذل والمهانة . . كلا!!

قال حمزة :

- لنفترض أن هذا هو مبررك للخيانة . . فما هو مبررك لقتل أخيك ؟!!

أجابه بحدة :

- ومن غيره كان يحمي هذه الأرض التي أردت لها السقوط ؟!! كان هو الحامي الوحيد لها ، يبالغ في احترام قوم لم يكونوا أهلاً للاحترام . . أبوك الذي كان يعلم بشأن الإهانات التي تتلقاها جدتك ورغم ذلك ينفر إلى الجيش ويكون القائد ، ويدحر كل محاولة لإسقاط هذه البلاد الدنيئة . . أبوك الذي أجبرني على الركوع لمن اغتصب زوجتي ظلماً دون وجه حق ، كان لزاماً علي أن أمحو عاري بدمه . .

والحق أنني لم أكن أريد قتله لولا أن وقف في طريق انتقامي . . لطالما كان أبوك عنيداً يا حمزة . . كان يستحق القتل ولا ريب .

صاح فيه حمزة :

- ومقابل أي شيء فعلت كل هذا ؟! ما الذي ستجنيه من سقوط أركاديا ؟!!

- مقابل الوعود التي نفحتني إياها شاكان بتحقيق العدل بين الأركاديين ، ولقد رأيت ذلك بعيني ، وأتيت أنت أيها القميء لتنهي كل ما تعبت من أجله . .

وانقض على حمزة بسيفه ، ليتبارزا بعنف وندية ، وغضنفر يصيح :

- ظهر ذلك المأفون أولا ليطالب بعرش أبيه ، ثم ظهرت أنت لتكمل مسيرة أبيك ، وكأنني لم أنجز شيئاً ولم أحقق ما كنت أصبو إليه . . لوحدي أسقطت أركاديا . . وأنت تريد الآن أن تقيمها ؟! على جثتي . .

شعر حمزة بأفضلية عمه عليه ، لكنه قاوم ، واستبسل في الدفاع عن نفسه ، سأله :

- ماذا سيقول عنك ابنك عامر بعدما يعرف بخيانتك ؟

صاح الغضنفر وهو يشد من وطأة ضرباته :

- وما أدراك أنه ابني ؟! حتى أنا لم أشعر لوهلة أنه من صلبي . . هل تعرف مرارة أن تربي صبياً ، وأنت لا تدري أهو ابنك أم لا؟ ولم أجد الشجاعة الكافية لقتله أو طرده ، ابتلعت ذلي ورضيت بالهوان . .

واشتدت المبارزة بينهما ، وشعر حمزة بدنو النهاية ، حاول جهده أن يقلب ظهر المجن على عمه لكن دون جدوى ، كان الغضنفر صلباً كما ينبغي لرجل قضى نصف حياته في ساحات القتال ، والطريف أن حمزة فكر لوهلة ، في قدرات والده العظيمة إن كانت هذه قدرات أخيه الأضعف! وراح يفكر في طريقة ليهزم بها عمه قبل أن يقدر عليه . .

ورأى طيف والده يلوح في الأفق ، يطالبه بوجه صارم بالصبر

وعدم الاستسلام . . وشعر بذراع عمه فهد تهبط على كتفه تشد من أزره وتطالبه بالتقوي . . ورأى خيال أسامة من بعيد يركض يناديه ويشجعه . . ويشد من رباطة جأشه وعنفوان قتاله . . ولاح له طيف أبيض . . يتوكأ على عصا خشبية . . يجلس على غيمة ويجري من تحته نهرٌ فرات . . وبين يديه لوح شطرنج مصفوفة عليه الأحجار ، فتذكر جولات الشطرنج التي كان يشاطرها شيهانة في صباه ، وتذكر الهزائم التي كانت تمنيه بها ، سمع الحكيم يقول :

- من ينتصر في النزال هو أقل الطرفين أخطاءً . . استفد من أخطاء خصمك تكن الأقرب إلى النصر ولو كنت الطرف الأضعف . .

ولذلك بدا متوثباً لاقتناص خطأ يقع فيه غضنفر ، وبالفعل . . طوح غضنفر بسيفه في حركة متهورة ، فتفاداها حمزة وانقض بحربة والده ليتخرق بها صدر عمه ، ثم دار على عقبيه والتقط السيف الذي سقط ، وأطاح برقبة عمه أرضاً . .

وجلس حمزة بجوار عمه . . يلهث تعباً ، والدموع تنهمر على وجنتيه . . بكى وهو يتذكر والده عشية عودته من السهل الأبيض مهزوماً رفقة الإمبراطور النعمان . . تذكر وقوفه صامتاً رغم جراحه النازفة ، وآلامه الحسية والمعنوية . . سقوطه أرضاً إزاء نظرات ابنه . . كلماته الأخيرة . . وكفه المخضبة بالكبيرياء . . الاحوار الأخير قبل ذهابه إلى الإمبراطور . . وأخيراً . . جسده المسجى على الأرض . . وروحه الهائمة بين الأرض والسماء . .

بكى حمزة . . وسالت دموعه غزيرة . . ومن قريب كانت تراقبه شيهانة . . تستمع إلى نواحه ونداءاته لأبيه . . تحن عليه . . تعلم كم هي غالية دمعة الرجال . . طوال الفترة التي قضاها معهم

في الجبل لم تره باكياً قط .. كانت تود مواساته كما يليق بحبيبة .. لكنها كانت تخشى مواجهة رجل حال انكساره .. الرجال حين يبكون فإنهم يكونون في حالة من التعري، لا يقبلون أن يراهم من يحبونهم عليها ..

جمع حمزة جأشه وقام متوكئاً على حربة أبيه .. حفر قبراً لعمه وواراه الثرى .. وقف أمامه طويلاً وتضرع للسماء أن تغفر له .. وامتطى فرسه ومضى صوب شيهانة .. أدركت أنه قد رآها فخرجت من خلف الشجرة .. قال مبتسماً وهو يساعدها على الركوب خلفه :

- لقد انتهى كل شيء يا شيهانة ..

استوت ردفه وقالت :

- بل بدأ كل شيء يا حمزة ..

***

# الخاتمة:
# إمبراطورية على أعتاب الخلود

ما الزمان إلا حلقة كبيرة ، تدور فيها الأحداث بلا بداية ولا نهاية . وكل ما يظنه الناس بداية أو نهاية ، إنما هو محض تقدير يتفاوت من إنسان إلى آخر . .

الشمس تشرق . . الشمس تغرب . . في كل حدث تتمثل بدايات ونهايات . . ويأفل نجمٌ ويلمع قمر . . والأحوال تتبدل . . والناس هم الناس . . يرضون ويسخطون ولا يعرفون للقناعة سبيلا . .

والأجساد التي حملت الأرض على أكتافها . . عادت إلى باطنها . . والأرواح التي سكنتها لوهلات قِصار ؛ تجول السماء بعد انقطاع الوصل . .

وتدور الحلقة المفرغة . . وينتفض الزمان ناهضاً على خشبة المكان . . لا يتوقف لعزاء أحد ولا لولادة أحد . . فلا بداية . . ولا نهاية . . إلا ما يظنه تقديراً بنوا الإنسان . .

واستطاع الجيش تحرير غلوريا . . ودخلها حمزة ورفاقه يجللهم الكبرياء . . وتوافد الناس لرؤيا الأبطال الفاتحين وهم يلجون المدينة السليبة ، وتعالت الأصوات غناءً وثناءً ودعاءً . . وسار وسط الحشد الإمبراطور العزيز لا يلتفت إليه أحد . . الكل ساروا نحو ابن البتار يهنئونه ويثنون عليه . .

وقد ترجل هو وخلع خوذته ، وسار بين الناس كواحد منهم ، يصافح هذا ويعانق ذاك ، ومن خلفه رجاله المخلصون يحذون حذوه . .

وجاءت الإمبراطورة نور ، ووقفت على أعتاب القصر تبحث عن وليدها الذي غادرها طفلاً ، وعاد لها إمبراطوراً . . عانقته طويلاً ، وذرفت الدمع غزيراً . . وهو يعناقها ويبكي بلا صوت . . يذكر شروق وأحاديثها . . فينهمر على قلبه دفء الأمومة . .

واقتاد جنود أركاديا المستسلمين من الركساس ، وجمعوهم في فناء القصر ، حيث هزم بتار الكتيبة وحده قبل عقد من الزمان ، وجاء حمزة يرفل في ثوب القيادة . . نظر إلى وجوههم جميعاً . . وتبسم إذ ذكر أنهم مأسورون في ذات المكان المضمخ بأمجاد أبيه . . فأعرض عنهم كارهاً أن يعاقبهم في مكان كهذا . . وأمر بإكرامهم وحسن معاملتهم . .

زار بيته القديم . . تفقد حجراته العتيقة . . هنا أحلامه لم تزل في طور الطفولة . . مسح التراب عن أشيائه القديمة . . وغادر على أمل بعودة وشيكة . .

وأنا . . كنت في قمة سعادتي يومها . . عدت أنا أيضاً إلى المدينة التي تربيت فيها وسرت في شوارعها رفقة أبي . . شعور جميل أن تعود إلى وطنك بعدما بذلت له كل ما تستطيع . .

جاءني حمزة . . وقبّل يديّ وقال :

- لن أنسى أفضالكم علي يا خولة . .

فقلت له والعبرة تأخذ من نبراتي :

- لم نفعل شيئاً يا حمزة . . أنت صنيعة السماء . . وما كنا إلا شرنقةً حوتك حتى آنست أجنحتك القدرة على الطيران . .

قال وهو يلتفت إلى شيهانة :

- وهذه ؟! أهي صنيعة السماء أيضاً ؟!

فقلت له :

- هذه صنيعتك أنت . . هي بعضك يا حمزة . . فكن لها تكن لك . .

فتبادل مع ابنتي نظرة مفعمة بالخجل . . وتذكرت اقتتالهما أيام يفاعتهما ، وكيف انقلب الحال إلى ما أراه . .

وجاء رسول من العزيز يستدعي حمزة إلى القصر ، فذهب حمزة للقاء الإمبراطور ، الذي استقبله بالأعناق مع الملكة نور . . هنأه على النصر ، وشكر له جهوده العظيمة في تحرير البلاد ، وطلب منه أن يرافقه إلى الشرفة المطلة على المدينة ، حيث كان الناس يحتلفون بالاستقلال بالغناء والبهجة والفرح والرقص وكل أنواع الفرح قليله وكثيره . .

فقال العزيز :

- أترى يا حمزة كيف هم مبتهجون؟ كل ذلك أنت من صنعه . .

فأجابه :

- بل هو جهد مشترك وتوفيق من السماء . . وحقك المحفوظ يا مولاي . .

- لن أنسى ما فعلته من أجلي يا حمزة . . أنقذتني من الموت مراراً . . وأعدتني إلى أمي ، وأعدت أرضي إلي . . كيف أشكرك ؟! أخبرني ؟

أشار حمزة إلى الجماهير المبتهجة وقال :

- بالإبقاء على بهجة هؤلاء كما نراها الآن . .

وأشار إلى الأسرى في باحة القصر:

- وأن تحمي البلاد من كل معتد غاصب ..

سكت العزيز مدة طويلة .. ثم قال:

- لست أنا من يقدر على فعل ذلك ..

- بل تقدر يا مولاي .. ونحن معك ..

استجمع العزيز أنفاسه وقال:

- لدي أمر أريدك أن تنفذه دون نقاش يا حمزة ..

- سمعاً وطاعة يا مولاي ..

- أنت أقدر الناس وأجدرهم على قيادة البلاد .. سأتنازل لك عن الحكم .. ستصبح أنت الإمبراطور منذ الآن وصاعداً .. وسأمضي أنا مع أمي نعيش حياتنا كما ينبغي لنا .. لن أكون قادراً على حماية البلاد كما تفعل أنت .. خذها مني يا حمزة ..

فامتعق وجه حمزة ولم يجد جواباً .. وحينها اقتحم الشرفة عامر هاتفاً:

- أيها القائد .. الركساسيون قد اقتحموا حصون العزة .. ثم عادوا أدراجهم .. لقد مات الأمير شاكان .. مات قائدهم ..

فرنا حمزة إلى الإمبراطور .. ورنا إلى الشعب المبتهج بالنصر المؤزر، والتفت إلى السماء وتشبع بضوء الشمس .. مد يده وصافح الإمبراطور .. وقال:

- إننا شريكان في هذه الحياة .. الأمانة في أعناقنا جميعاً ..

وفي أرض ركساس .. ارتجت العاصمة بخبر وفاة شاكان، وازدادت الفاجعة بعلمهم بسقوط أركاديا وأسر ليون وتيهاد .. اجتمع الوزراء .. وقرروا تنصيب ريفالا إلى حين عودة ليون .. فجلست الأميرة على العرش .. وتذكرت الورقة المخطوطة بخط وردة

بنت البتار وقد كُتب فيها :

- لن يصل إلى أركاديا بعد الآن . . السم في قربة مائه سيكون كفيلاً بتنصيبك ملكة على ركساس . .

وكما قالت شيهانة . . كانت تلك البداية التي وضعت أركاديا على جناح الخلود . . مخاض عسير تقلبت فيه البلاد بين أوجاع وآلام وجراح ودماء . .

ثم ظلت في مهد السماء تسقى من نفحات النور الوضاءة . . والنجوم ترصع جبين القدر ، وحتى ناهزت الفطام . .

ومن بعده غدت عروساً في طور اليفاع تخجل سنابل الشمس وتخسف روابي القمر . .

ولم يبق إلا الخلود يزين جهاد الأبطال . .

وطالما كان هناك رجالٌ كحمزة . . ونساء كشيهانة . . سيظل الغار ينمو على جبين السماء . .

**تمت بحمد الله**

## كلمة الأرض آركاديا

السلام قد يئس من البشر ..

لم يعد له مكان في أرض أركاديا ..

جمع أسماله البالية وغادر مع أسراب الحمام ..

وظل حائماً على وجهه يطارده بنو الإنسان

ولا يدركوه ..

ومهما انتظرهم ..

لا يلحقوه ..

هاني حيدر


@HANI_HAIDAR

@HANI.HAIDAR707


آركاديا

هاني حيدر


KALEMAT